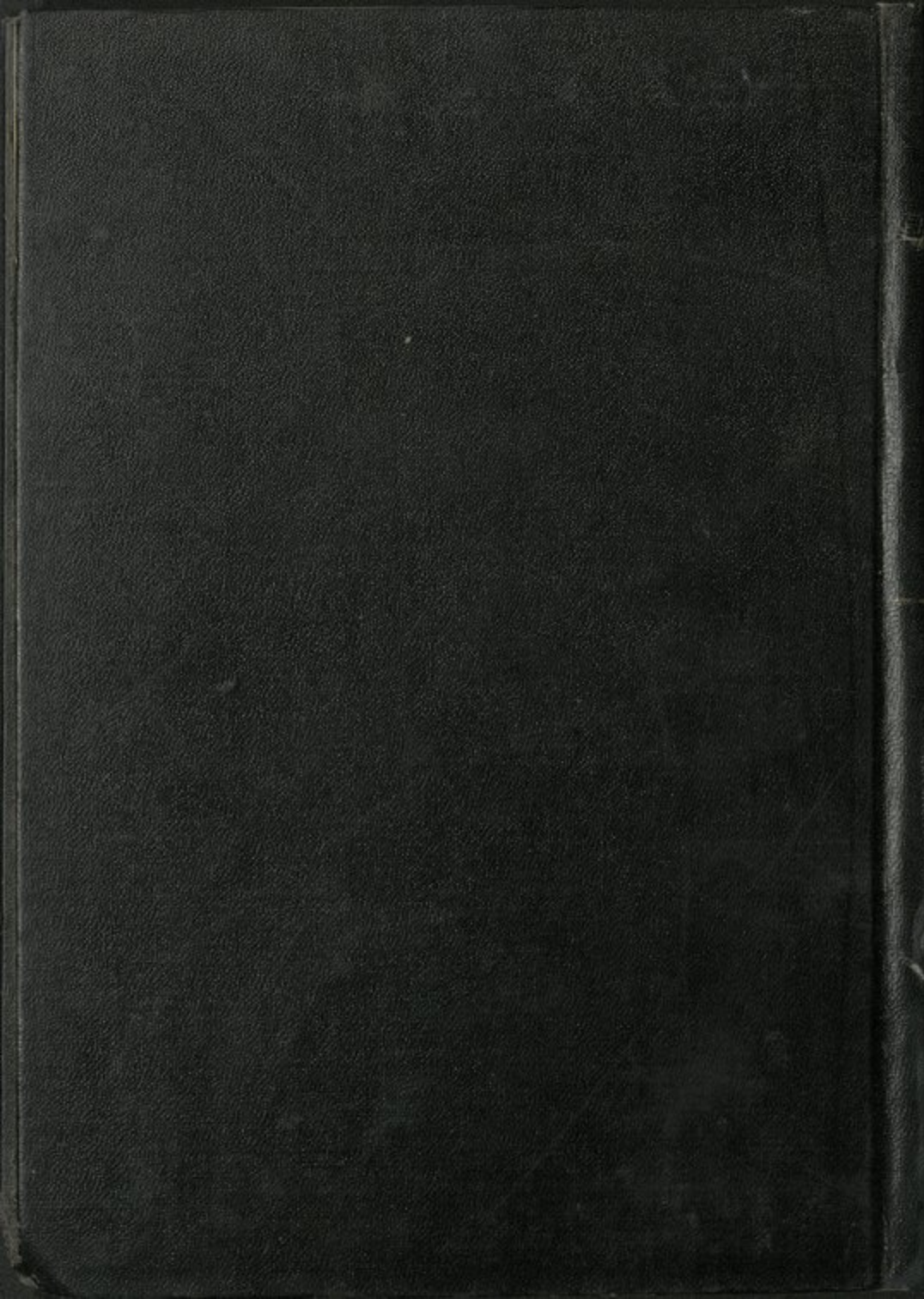
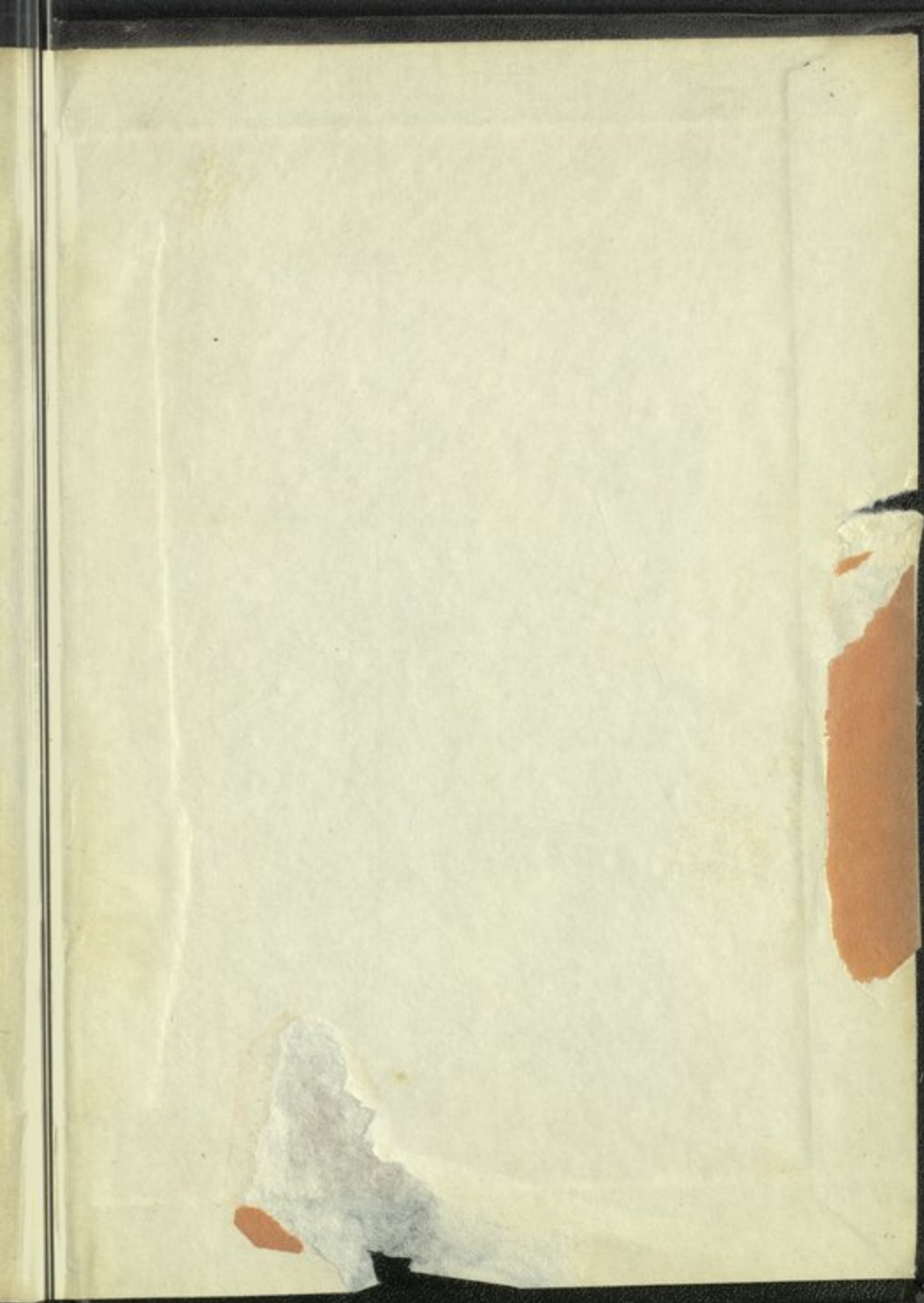
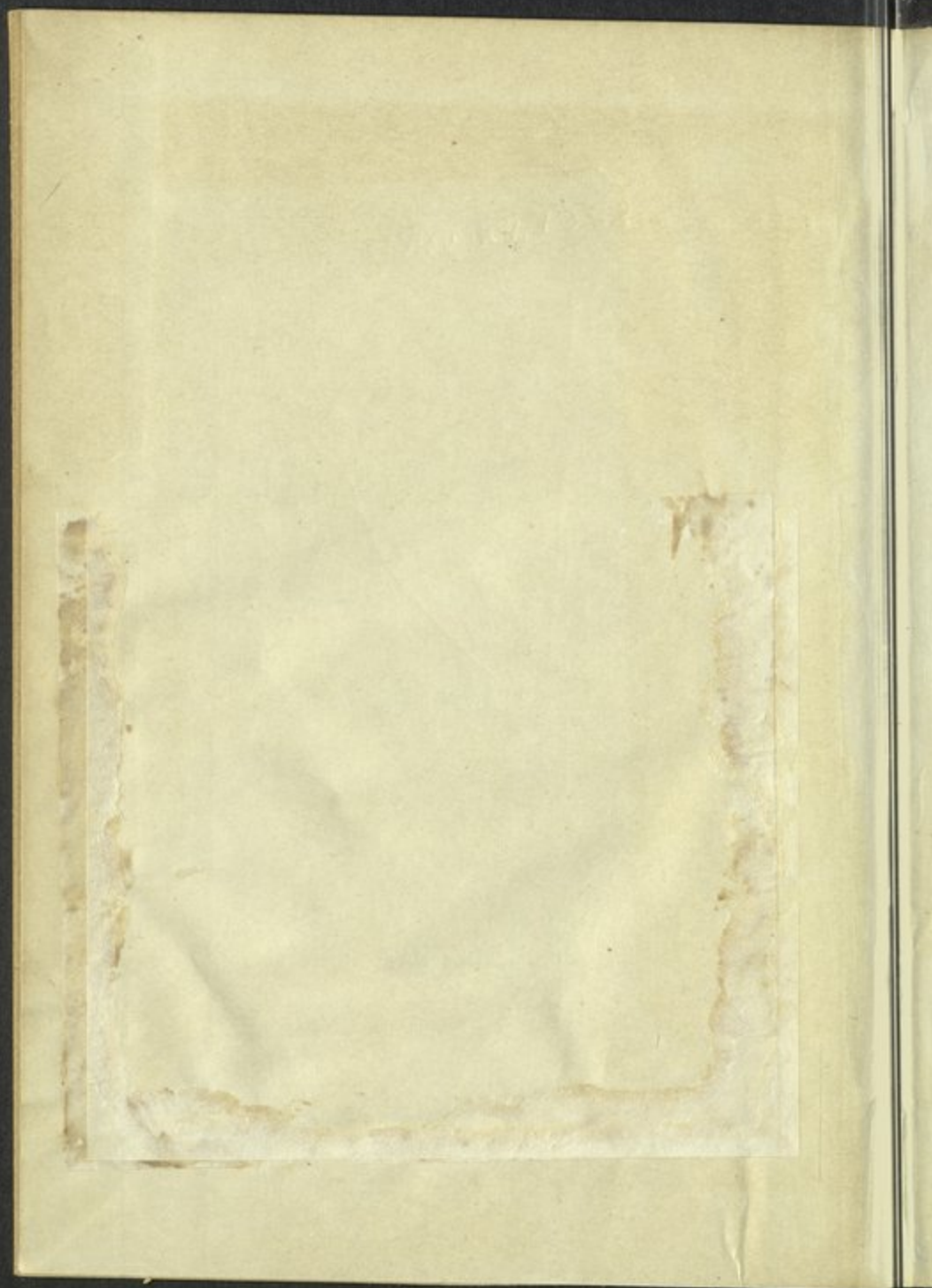
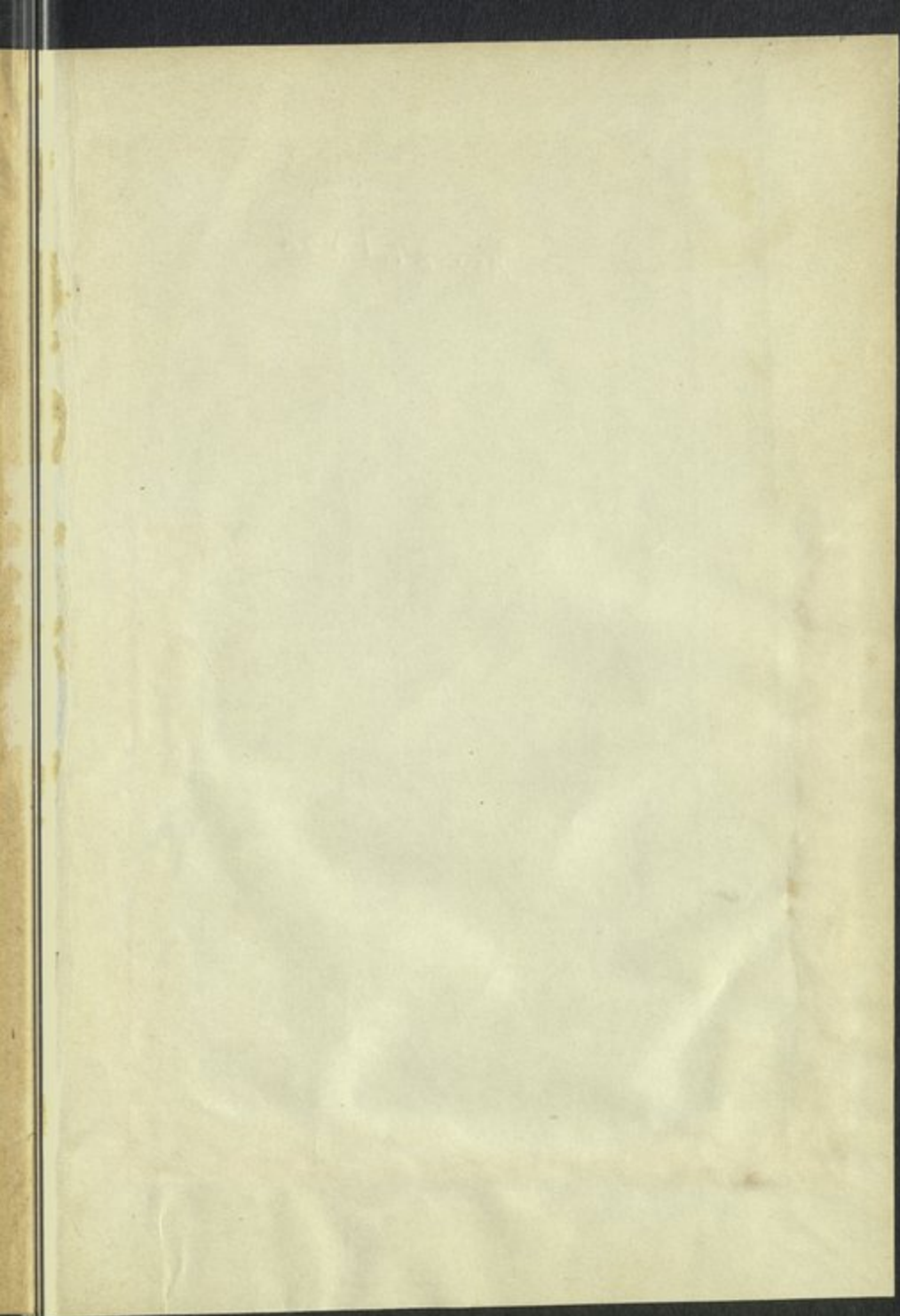










﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ

فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا ، فَنَمَّ

وَجْهَ اللَّهِ ﴾

• قرآن كريم •

إِنَّا الشَّهِيدُ

مَدْرَسَةُ النُبُوغ

شركة فن الطباعة	...	عرش وقلب	...	(تحت الطبع)	...
	...	حياة يهرون	...	(دون جوان)	...
	...	حياة شلى	...	(قبور فى جنة الحب)	...
	...	حياة بلزك	...	(القصصى الأعظم)	...
	...	التليفة الخالدة	...	(حياة مدام كورى)	...

الناشر

مَدْرَسَةُ المَجْتَمَعِ

شركة فن الطباعة	...	أنا الشرق	...	...	...
	...	رجال ونساء (١)	...	...	...
	...	" " (٢)	...	...	...
	...	حياة قلب	...	...	...
	...	الموجة العنداء	...	...	...
مطبعة المعارف	...	المرأة لعبتها الرجل	...	...	...
	...	شباب القولجا	...	...	...
	...	جرائم شرقية وغربية	...	...	...
	...	العاصية أو كتاب الغيرة	...	...	...
	...	غانيات	...	...	...

مطبعة

المعارف

ومكتبتها

بمصر

مَدْرَسَةُ الحَرْبِ وَالسِّيَاسَةِ

شركة فن الطباعة	...	مأساة فرنسا	...	...	...
	...	أسرار انهار أوروبا	...	...	...
	...	الرقص على البارود	...	...	...
	...	الوحش الأصفر واللب الأحمر	...	...	...
	...	الطلابور الأول	...	...	...

مطبعة المعارف

نقلت

مطبعة دار الكتب المصرية	...	باديس	...	...	...
	...	ماقل ودل (فى جزمين)	...	...	...
	...	تايس	...	...	...
	...	الزنبقة الحمراء	...	...	...
	...	أفروديت	...	...	...
مطبعة دار الكتب المصرية	...	فى الحياة والحب	...	...	...

حارطوف } بتكليف من وزارة المعارف العمومية
عدو المجتمع

عيد الذهب .. أخرجتها الفرقة القومية بدار الأوبرا الملكية

بالفرنسية (باديس ١٩٣٨)
بالاصلاح فى مصر منذ ثورة ١٩١٩ ... (١٩٣٩)

أحمد الصاوي محمد



892.7408
M952aA
C.1

أنا الشرق ، عندي فلسفات . .
فن يبيع بها طائرات . . .
أمين الربحاني

أنا الخريف



ملازم النشر

مطبعة المعارف ومكتبتها ببصر

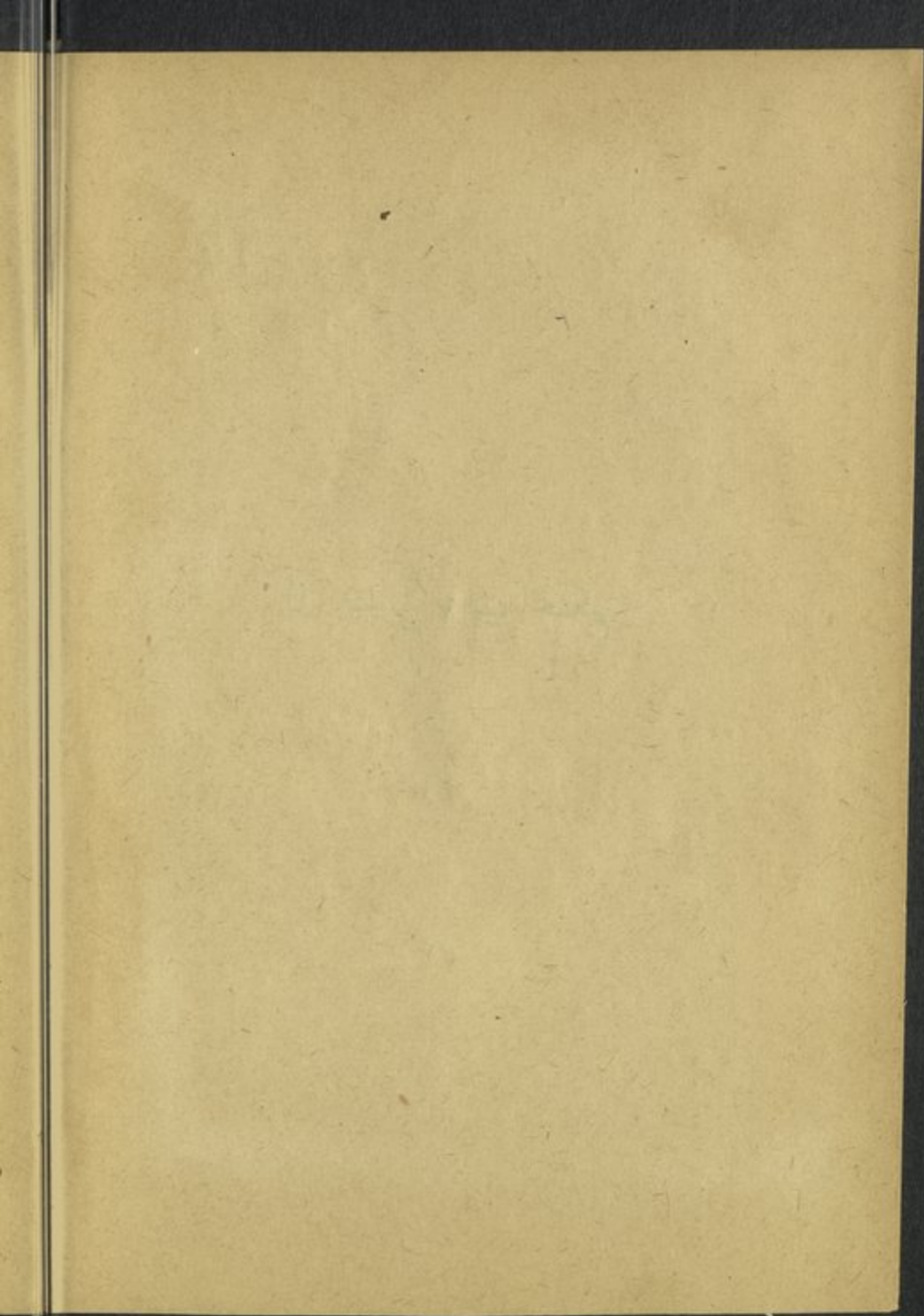
79568

Cat. 4100.52



ROBERT

إلى صديقي توفيق الحكيم



أنا الخريف

منذ بضعة عشر عاماً ، من بالقاهرة الفيلسوف الشرق الكبير « أمين الريحاني »
والتي محاضرة خلاصتها : « أنا الشرق ... عندي فلسفات ... فمن يبيعني بها
طائرات ١٩ ، ... »

فابسم كثيرون .. ولعل الذين كانوا يشتغلون يومذاك بالأدب قد دهشوا
لهذه الأمنية .

وها هي ذى الأيام قد دارت دورتها ، وشهد الكون إلى أي حد كان
الريحاني صادقاً في حكمه القاسي على الفلسفة .. الفلسفة الشرقية .

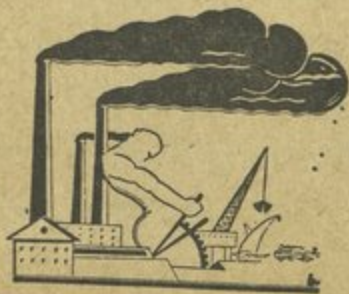
وهذه الحرب ، التي يصطلي العالم الآن بنارها ، تعد ثورة على الحرب . فقد
انتهى بها عهد الجندي الباسل . لم تعد الشجاعة إلا عاملاً جزئياً في النصر .
أما العامل الأول ، والعامل الأقوى ، والعامل الحاسم ، فهو المهندس .

فالمهندس هو الذي جلس أمام لوحة الخشب ، ورسم على الورق أقصى ما يخطر
بالبال من خيال الأهوال . تصور الموت نفسه أمامه ، وتحده بالحديد والنار .
فرسم الطائرة ، ورسم الدبابة ، ورسم الغواصة . ثم عاد فرسم لكل آلة من
هذه عناصر دمار جديدة . فلم يكتف بنوع واحد من الطائرات والدبابات .
جعل الطائرة لتستكشف ، وتقذف اللهب ، وتلقي القنابل بالأطنان ، وتحمل
عشرات الجنود المغامرين بالباراشوت . وكذلك فعل في الدبابة ، فجعلها تكسر
الحجارة ، وتقطع الأشجار ، وتخوض المزارع ، وتعبّر الأنهار . وجعلها تحمل
المدافع ، وترمي بالشرر . وجعلها تقفز الحواجز ، وتنحط الخنادق ،
وتكتسح الأدغال .

ورسم المهندس حوتاً هائلاً من الفولاذ ، يحمل في بطنه الرجال والنخائر
والعتاد ، ويحمل الطوريب ، سهم البحار ، الذى لا يكثرث بالعواصف
والأمواج والأنواء ، فيقسم ظهر البوارج الشائعة ... ورسم المهندس ، إزاء
ذلك ، حاملة الطائرات ، تلك المدينة المتنقلة ، تبعث أوكارها ، فى وقت واحد ،
أربعين طائرة ترمى الغواصات بالحجم ، وتدفعها فى قاع المحيطات .
هذه هى رسالة المهندس والعالم الكيميائى ، يعملان جنباً إلى جنب . هذا
هو الحاضر ، وهذا هو المستقبل .

قالى الشباب المصرى ، نقول : استيقظ ! .. لقد دقت ساعة الحقائق ..
فأقبل على العلم بكل قواك .. كن رجلاً عملياً ، عاملاً ، متنبهاً إلى ما يدور من
حولك . لقد بدأت رقعة العالم تتغير ، ووجه الأرض ينقلب . لقد رأينا الأمم ،
التي تتفانى فى تحميل الحياة وتزويقها بالفنون والآداب وحدها ، كيف تعاني
الويلات من الأمم التي كانت لا تفكر ولا تعمل لغير المدافع والقنابل ، لتدمر ،
وتفتك ، وتظفر ، عن طريق العلم ، والكيمياء الصناعية ، والاختراعات
النافعة ...

وأنت يا آلهة الشعر ، فلتجعلي من الشعر للشباب قوة وحياة ! .. وأنت
يا آيتها الأرض ، فلتخرجي شباباً واقعيّاً قوياً ، يفل الحديد بالحديد ، والنار
بالنار ، لا بالقصائد وحدها والأشعار ! ..



فلسفة القوة

القوة هي الحرية

ليس غريباً أن يتصدى صديق «توفيق الحكيم» لمعارضة ندائي إلى شباب بلادي بالاستفادة من عصر القوة الجامحة، الذي نعيش فيه، فلا يظنون مخلقين في أجواء الشعر بأجنحة مذهبة كأجنحة الفراش... ذلك أني قد تمنيت أن يستفيد الشرق من أخطاء الغرب وأخطاره، قبل أن يدفع هو نفسه ثمناً باهظاً لكسله وخموله وتهاونه وضعفه.

نعم، ليس غريباً هذا الرد من صديق، وهو من رسل الضعف والخيال، لا يعيش في زمنه، ولا يدري في أي زمن نحن نعيش. وهو لا يطلع الصحف إلا لما، ليلح حركة أدبية أو بادرة اجتماعية، أو تقريراً لأحد كتبه التي يوحى هو نفسه بها... وهو لا يقرأ البرقيات، ولا يتتبع أنباء الحرب والويل، لأنه يخاف على نفسه الناعمة أن تأذى وتزعزع من دوى القنابل - ولو على الورق! - ويخشى على فكره الرقيق أن يسبح من لهب أخبار القتال...!

أقول إنه لا يعيش في زمنه. وهذا من حقه - ولا يعني - ولكن ليس له أن يغمر بشبابنا، ويزيدهم نعمة، ويدفعهم في طريق الرخاوة الشعرية.

وما دام توفيق الحكيم قد ذكر في كلمته «نيتشه» و«فاجنر»، فإنني أقول له: إننا رأينا ألمانيا تخرج إلى الحرب الماضية مشبعة بآراء فيلسوفها نيتشه، الذي لم يكن يكثرث بخير أو شر، بل يدعو إلى القوة الغاشمة المطلقة في الإنسان الألماني الأعلى. لتزحف القوة وتسحق، وتحقق ما يريد. وما يريد هو تحطيم ما حوله من حضارة غربية بائدة، لينبئ على أطلالها الحضارة الجرمانية الأولى.

وهكذا استغل دعاة الحرب فكر نيته وخيال فاجتر لتغذية الشعب بروح الحرب وسفك الدماء . وقد سمع كثيرون منا ، حتى في القاهرة ، أوبرا « لوهنجرين » الحماسية الجميلة ، فنفذت منها روحنا على وجه برى... أما « هتلر » فقد اعترف في كتابه « كفاحي » ، بأنها فتنته ، وغذته بالاندفاع الحماسي لوطنه ، إلى غير حد ، فاستمد منها روح الكفاح والغطرسة والبطش .

ولا ضرب لصديق الحكيم مثلاً صغيراً من كلامه هو نفسه في كتابه الأخير الذي أهداه إلى منذ أيام ، كتاب « حمار الحكيم » .. فقد جاء فيه أنه باع سيارته واشترى جحشاً ، وأخذ الجحش الرضيع إلى الفندق الذي يسكنه ، واشترى له « بزّازة » من الأجزاء خانة ، ليرضه ، واستعان على ذلك بفتاة شقراء من ساكنات الفندق ! ..

واسمع بالحرف الواحد تعليله الاستغناء عن السيارة :

« ... أما السائق فلا يريد أن يضغى إلى رجائي كلما طلبت إليه ألا يسرع ، فأنا أبغض السرعة .. إنها تمنعني من التفكير ، ولطالما أكدت له أنني لست متعجلاً شيئاً . ولا شيء في الوجود يستعجلني ، فأنا عدو الزمن والوقت . ولم أحمل ساعة قط . فالوقت عندي ليس من ذهب ، بل من تراب كأجسامنا ... »
فنحن يا صديق توفيق عند ما زرد كلمة « أمين الريحاني » : « أنا الشرق ! .. »
عندي فلسفات .. فمن يبيعني بها طائرات ، ، نعرف أن الشرق عند ما كان لا يتخذ غير الجبل والبعير مركباً ، قد أخرج « عباس بن فرناس » الذي سبق زمنه ، وفكر في « الطائرة » .. وأما الآن ، في الوقت الذي يسير فيه العالم بالسيارة والطيارة ، فإن بعض أدبائنا يريد أن يعيش على حماره ! ..

حقاً ، إن الفكر أساس القوة .. ولكن الفكر السقيم أساس الضعف ، وهو كفيّل بأن يخلق لنا جيلاً : له أعصاب الفتيات ، وقلوب المراضع ! ..

عش في زمنك !

ما أظرف أسلوب توفيق الحكيم في الرد على من يسفهون فيه أحياناً الرأي السقيم ! . فهو يسميهم : « فيران السفينة » ، لأنه كاتب قصصى ، وليس مصلحاً اجتماعياً . . هو يعتصم بالخيال ، ويخاف الواقع ، ويجهله ! . .

أقول إن أسلوبه يعجبني ، ولا يقنعنى . وإن آراءه ، بشهادته ، تصدر من « برجه العاجى » ! . . فأرجو أن يتنازل ، وينزل قليلاً إلى أرضنا المسكينة ، ليرى كيف خضبت بالدماء ، وقد ساهم في قتلها حملة الأقلام الذين يريدون إغراق الناس في الترف باسم المدنية ، وفي القوضى باسم الحرية !

إنه يأخذ الأمور بظواهرها ، لأنه روائى وصَّاف . فيعتقد مثلاً أن القوى الوحشية تفوق بعدتها وعددها . ألا فليعلم أن الهزيمة حقاً تبدأ من الداخل ، أو كما قال « بيتان » في رسالته المؤثرة عن أولئك : « الذين انتشوا بخمرة النصر فبدلوا أقل مجهود » .

وسنعود فنرى أبناء البلاد الباسلة ، التى نحبا ، كيف ينهضون بها ، ويظهرونها من أدرانها ، فتخرج من محنتها مصقولة كسبيكة الذهب التى تخرج من النار . . وليس ذلك جديداً عليهم . فإن شمال فرنسا وشرقها قد خربا فى الحرب الماضية ، فوضعت الحكومة تعويضاً لسكانها زاد على مئة مليار من الفرنكات . وكانت ديون الدولة هائلة ، وقد اختل نظامها الاقتصادى ، ومع ذلك عاد هذا كله إلى الاتزان ، فى عشر سنوات جهاد بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ، ولكنه لم يحل ، للأسف ، بعد ذلك ، دون طغيان دعاة التفكك والانحلال .

وعملية التطهير المنتظرة لن تشمل فرنسا وحدها ، بل العالم كله . فإن جانباً كبيراً منه يروح فريسة الكسمالى ، والعاطلين ، والرقعاء ، والنفعيين ،

والفوضويين . وإذا كان توفيق الحكيم لا يريد أن يستفيد ويفيد أبناء وطنه من تلك الأخطاء البشعة ، التي ظهرت فجأة بشكل مروع قلبت الدنيا ، فهو معذور ، لأنه يعيش في برج من العاج . وهو على حد قوله : « يبغيض تحمل التبعات » ، وعندما أقول إن صديق توفيق لا يعيش في زمنه ، وإن آراءه خطيرة على الناشئة ، لأنها ألفاظ مزركشة ومبرقشة ، وليست روحاً مصلحاً مؤمناً قوياً ، لا أراى متجنباً عليه ، أو عازياً إليه آراء أحد سواه .

ولمى بأسط هنا بعض أفكاره هو نفسه في آخر كتاب ظهر له ، منذ أيام ، لا منذ أعوام .. فنحن نقدر التطور في الكاتب ، كما نقدره فيما حولنا من انقلابات وأحكام ...

في كتابه « حمار الحكيم » ، يقول إنه قصد الريف في عمل مع جماعة من الأجانب ، نساء ورجالا ، فسمع فلاحاً يقول إن صاحب المنزل الذى سيقطنه كان مرايياً أثرياً ، فأبغضه الناس ، وقتلوه . فكيف ينال توفيق ، وكيف يغمض له جفن ؟ يقول : « ... فتملكنى رعب ، وأنا شديد الخوف من العفاريت ، مع الأسف الشديد » !! وقضى ليله على السطح ، وفي الفجر ترك الديار ، وولى الأدبار ... !

فأى فرق بين كلامه هذا وما كان يسمعه أطفالنا في الجيل الماضى عن « أبو رجل مسلوخة » ؟ ... !

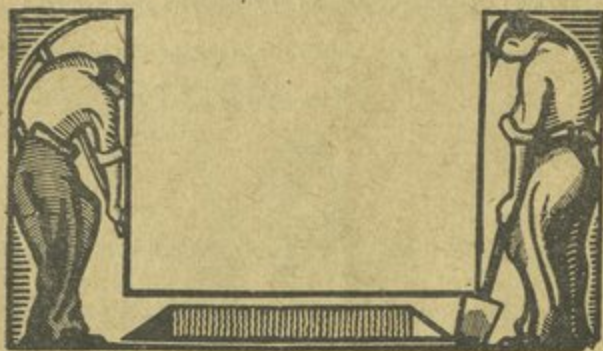
واسمع القصصى الفنان يفسر خوفه ويعلم شباب وطنه : « ... فإن ظهور شيخ لا أستطيع تعليل سره بعقلى ، وأرى أن قد انهار أمام ظهوره منطقى ، لخليق أن يصعقنى ، أو يفقدنى صوابى من الفور ، ... !

مسكين صديق توفيق الحكيم ! .. كان الله فى عونته ... ! إنه « شديد الكسل » ، و « الوقت عنده من تراب » ، وهو « يخاف العفاريت ، يصعق من سرها ، ويفقد وعيه من وهما » .. ! فماذابقى منه للإصلاح ؟ وماذابقى منه

في المصلحين! لا شيء.. أو تقريباً لا شيء، إلا دعاية، وخفة روح، وقصة
«المنتحرة»!..

وما أبلغ ما وصف به نفسه بقلبه، في هذا الكتاب بعينه، وهو آخر ما نرد
به عليه، فاسمع بالحرف الواحد ماذا يقول توفيق الحكيم عن نفسه:
«فما أنا في الحقيقة - دائماً - سوى كوخ مقفر وسط صحراء من الجليد،
وضعت داخله يد المصادفة إناء يغلي ويتصاعد منه بخار، هو تلك الأفكار التي
تخرج من نافذتي إلى حيث تصل أحياناً إلى جموع الناس!»
فهنيئاً يا صديقي لجموع الناس عندنا - أيها الكوخ المقفر وسط صحراء
الجليد - بما يتصاعد من «غلاية» بخارك، وأفكارك!..

[٢٠ يونيو ١٩٤٠]



بين الحرية والفوضى

[با صريفي الصارى]

إننى أطلع ، فى شئ من الرضى والسرور ، هذه الصورة المضحكة التى ترسمها
لى : صورة ذلك « الفيلسوف » المعتصم ببرجه العاجى ، الذى « لا يتنازل ، وينزل قليلا
إلى أرضنا المسكنة ، ليرى كيف خضبت بالدماء . . . إلخ . إلخ . . . » . وإننى
معجب بمهارتك الفنية ، وبراعتك الجهنمية ، فى استخلاص تنف من كتابى الأخير ،
تعرف كيف نضعها بحيث تنتج الأثر الذى تريد إحداثه فى النفوس . ولا أريد أن
أحتج على تصويرك المزرى فى أحيانا . فكثير من الناس يعرفون حقيقة شعورك
نحوى . لكن الذى يرغبى منك هو إصرارك على اعتبارى « عائشا فى غير زمنى » ،
لاهايا عن الصراع المستمر حول ، لأنك ترائى ، والمعركة دائرة ، لا ألتفت إلى غير
الفلسفة والفن والجمال والحرية والفكر . . هذا صحيح . لكن . . . أليس فى كل
مشجرة حامية ، تحطم فيها الآنية ، رجل يتحنن بين الصفوف ، يجمع الأزهار التى وطنها
الأقدام ، ويضعها إلى صدره ، ويحتفظ بها ، إلى أن يشرق وجه السلام ؟ . . .
لماذا لا تريد أن أكون هذا الرجل ؟

توفيق الحكيم

° ° °

أعتقد ، بعد هذا الكتاب الرقيق ، أن شقة الخلاف بينى وبين صديق
توفيق الحكيم قد دنت ، واختفت أوجه كثيرة من الجدل . وأحب ، قبل
تعليق الأخير ، أن أقول لبعض الناس إنه ما من خصومة بيننا ، ولكنها المودة
الخالصة هى التى تجمع بينى وبينه كل مساء ، ولا تحول دون اختلاف وجهة
النظر ، وتحكيم رأى العام ، من حين إلى حين . . .

إن المحنة التي أصابت البلد الذي أحبيناه هي التي أثارت هذا الحوار . فهو يدور حول محنة الحرية . ولم تكن صيحتي إلا صيحة الجزع على هذه الحرية . فدعوت إلى اتخاذ أسلحة جديدة لحمايتها . ماذا يكون مصير الأدب نفسه بغير حرية ؟

ما هي قيمة الأدب إن لم يكن دافعاً للقوة واليقظة لصيانة الحرية ؟ وأي حرية يمكن أن تقوم على غير أسس من الخلق المتين ، والعمل المتواصل ، واليقظة الدائمة ، والتضحية المستمرة ؟

إن التراخي والترف والبطالة ، ليست من مظاهر الحرية ، وإنما من عوامل الفوضى . والأدب الماخن العايب هو من عوامل الانحلال . ونحن في الشرق بحاجة إلى « تعبئة عامة » ، روحية ومادية . بحاجة إلى « التسليح المادي » قبل « التسليح الأدبي » ، وإلا وجدنا أنفسنا ، بعد قليل ، أمة منحلة ، ضائعة .

وصديقي توفيق الحكيم يحسن صنعاً إذا انضم إلينا في هذا الزحف القومي الذي ندعو إليه ، لمقاومة كل أسباب انحلال الاخلاق في بلادنا ، وكل دعاة المجون والاستهتار ، وكل أنصار الفوضى وراء ستار الحرية . . .



مأساة فرنسا

كان أمس، ٢٥ يونيه ١٩٤٠، يوم حداد في فرنسا. ولم يكن هذا الحداد وفقاً على الفرنسيين، لأنه شمل كل أحرار الفكر في العالم، وكل الذين تثقفوا بالثقافة الفرنسية، وكل الذين تغذوا بالذوق الباريسي، وكل الذين عرفوا من التاريخ آيات جهاد هذا الشعب الحر في سبيل الحريات جميعاً.

ويصعب على غير الذين عاشوا سنوات طويلة مندمجين في هذا الشعب أن يدركوا اليوم مبلغ آلامه. فإنه من أعظم الشعوب وطنية. وعند ما يكتب تاريخ هذه الحرب، سيرف الناس كيف كانت صدور أولئك الشبان تلقى ببسالة أعداء لا أعداد لهم، تحصنوا من دونهم في قلاع من الفولاذ، تنفث اللهب، وتطحن عظام البشر.

وعند ما كتبت كلمتي التي تذكرت فيها صيحة « أمين الريحاني » : « أنا الشرق .. عندي فلسفات .. فمن يبين بها طائرات ؟! » .. وما تبع تلك الكلمة من ردود ومساجلات، أقول : لم أكن أنتظر أن يحمل إلى البريد الفرنسي، الذي وصل منذ يومين، تأييداً لفكرتي وشعوري، وتدعياً لندائي إلى شباب بلادي بالاتجاه بقوة نحو حياة قومية قوية مجيدة، قائمة على أساس من الحقائق المادية، غير مسترسلة في الرخاوة الشعرية، والنعومة القصصية، والاستهتار بالفضائل، حياة غير لاهية بعبث اللفظ، ومجون الأقاصيص، والحوار التافه: عن مصير الوطن كله، الذي ينبغي تسخير ألوان جديدة نبيلة من الشعر والفن والأدب لحماية مصيره، ورفعته إلى ذروة منيعة لا تطاول ولا تهون ..

فقد جاء في آخر عدد وصل من جريدة « الفيجارو » بحث للناقد الفرنسي الكبير « أندري بيلي » بعنوان : « هل أحبنا الأدب أكثر مما ينبغي ؟! » ..

هو في الواقع امتحان أديب لضميره في تلك الايام السوداء التي تحتازها بلاده — قبيل الكارثة الكبرى بسقوط باريس — فقد استيقظ هذا الضمير الحساس الذي كتب صاحبه كتاباً عن «كليبواترة» نفسها... ووقف، برغم الشواغل العائلية والشخصية، يتأمل المأزق الحرج الذي وقعت فيه أمته. وطفق هذا الضمير الإنساني يتعذب ويندم، ويشعر بالتأنيب للتفريط في الماضي، وأثره في الحاضر. وقد فسر هو هذا التفريط بأنه الإسراف في التعلق بالآداب، وأى أدب؟

فقد ظل أدباء فرنسا وقادة الفكر فيها في صميم تفكيرهم واتجاههم من أبناء الجيل الماضي، كانوا يعيشون في القرن العشرين بروح القرن التاسع عشر، مثل «فلوبيير»، و«جوتييه»، و«جونكور»، يتعلقون بالجمال ويمجدون الخيال. وكانوا يشغلون السنين الطوال بأشياء كعلاقات «موباسان»، الغرامية، أو ديون «بلزاك»، المرهقة، أو فوضى «فرلين»، وهل كان حبه طاهراً أم دنساً، وحكاية عشاق البندقية «جورج صاند»، وصاحبها «ألفريد دي موسيه»، وما كان بينهما تفصيلاً وتمثيلاً...!

أما السياسة، فكانوا يحتقرونها، ويتركونها «للعقول الغليظة والنفوس الوصولية»... فإذا قيل لهم: إن الواجب الأول المقروض على المفكرين والكتاب في زمننا هذا هو إنقاذ الحريات مما يهددها أولاً، لأنها هي التي تحمي الآداب نفسه، ومن دون ذلك لا معنى لوجود الأدباء... وافقوا!.. بيد أنهم يعضون في هوائهم الناعمة الرقيقة، ناظرين بإشفاق إلى أولئك «الأكاديميين» — المحافظين — الذين ينادون بإنقاذ الحضارة، وحماية الوطن، وتقوية الفكرة القومية، والروح المعنوية...! وكانوا لا يمدون إليهم يداً، بل يهزون أكتافهم قائلين: إن لكل فرد استعدادة.

فليسمع اليوم قول أدباء فرنسا وتقادها كل من في أذنه وقر.. ولنستيقظ

لتعيش في زمننا .. ولنقرأ صفحة الندم والتوبة لمن أسرفوا وغالوا في حب
ذلك الأدب .. ولتكن لنا عظة ماثلة من هذا الإسراف ، ومن هذا الندم* ..

[الأهرام : ٢٦ يونيه ١٩٤٠]

... وغزا الحلفاء النورماندى ، وحطموا حائط الإطلاق ، وطردها
الغزاة العتاة المغيرين ، وحرروا فرنسا .. وعاد إلى مدينة النور نورها ...

[أكتوبر ١٩٤٤]



* راجع تأييداً عظيماً لهذا الرأي في كتابنا « مأساة فرنسا » ، هو مانع به المستر
تشرشل للكاتب المشهور أندري موروا منذ عام ١٩٣٥ ! ...

الحياة العملية

أريد أن أضرب مثلاً عملياً لشبيبة هذا البلد اللامى عن حقائق الحياة . فلم تكن مساجلاتى للمفاضلة بين العلم والأدب كما فهم كثيرون . وقد أعود إلى هذا الموضوع لأرد فيه على الأساتذة الأجلاء : عباس العقاد ، وأحمد أمين ، وزكى مبارك ، وغيرهم ممن علقوا على كتاباتى ، فى مقالات ضافية ، فى « البلاغ » و « الدستور » ومجلة « الرسالة » و « الأهرام » . وقد لخصت زميلتنا « البورص » أجيبسان ، هذه الأحاديث بدقة تحمد عليها الصحف الأفرنجية .

إن تطورات الحرب الهائلة التى تطحن العالم الآن كفيلة بلفت نظر الكاتب إلى عوامل جديدة لا عهد له ولا لبلاده بها . ومع ذلك لن أذهب اليوم إلى الكلام عن الفلسفات والطائرات . لن أخرج إلى ميادين القتال لاستخلص بعض ما نحن فى حاجة إليه . وما نحن فى حاجة إليه فعلاً هو ما سبق أن ناديت به منذ عشر سنوات إلى اليوم : هو تغيير عقلية الشاب الجديد بحيث لا يحتقر « الحياة العملية » وينقطع « لخدمة الحكومة » لجميع الذين يحتكرون المقاهى هم من اليونانيين ، وجميع الذين يحتكرون محال بيع « الفول المدمس » هم من البلغار خاصة والبلغانيين عامة . . . وهذه هى أحقر « الصناعات » التى نترفع عنها ، ونأبى أن نمد إليها يداً .

فالشباب الذى يتخرج من مدرسة صناعية يقبل أقدام الدنيا كلها ليحظى بعد عشر سنوات بالدرجة السادسة . اذهب إلى جميع ورش إصلاح السيارات من أكبر الماركات ، مثل : « كريسلى » و « فورد » و « بويك » و « باكارد » ، وقل لى أين هو المصرى الذى يدير ورشة من هذه الورش ! . . إنك ستجد كل الأجناس ، إلا المصرى ! . . مع أن « المهندس » الذى يتولى هذا العمل لا يقل

مرتبه عن ثلاثين جنباً شهرياً ، ولا يقل ما يربحه من الزبائن عن هذا المبلغ .
وانظر كيف يتوسل إليه الباشوات والبكوات ...!

ثم إليكم صناعة أخرى ، هي صناعة ماكينات الطباعة ، تركيباً وإصلاحاً .
فهذه الصناعة يحتكرها في مصر المانيان اثنان ، لاثالث لهما ... أحدهما عجوز
كان يدعى « كين » في السبعين من عمره ، يعمل على هواه ، ويشغل شهراً ،
ويضرب دهرأ . والثاني « شميدت » ، وهو شاب ، معتقل الآن بالطبع ، ولكني
رأيتُه مع ذلك ، منذ أيام ، في دار الهلال ، بقامته المديدة ، رافع الرأس ، غخوراً
بعله وفنه ، لأنه لا يوجد في مصر من يعرف هذه الصناعة سواه . وأرباب
المطابع ، وأصحاب الصحف ، كانوا أول من سعى عند أولياء الأمور لإطلاق
سراحه ، وإلا تعطلت مطابعهم ، وتوقفت صحفهم عن الظهور ...!

وأنا نفسي قد احتجت يوماً إلى « كين » وإلى « شميدت » . فقد ركب
كل منهما ماكينة طباعة في دار النشر التي أنشأتها . . . وعرفت كيف يكون ذلك
صاحب العمل إلى العامل الأجنبي ، الذي لا يجد له بين الوطنيين قريباً . . .
فيا للعار ...!



طابور الصمت ..!

كان ذلك في باريس ، يوم ١٤ يولييه ١٩٣٩ ، قبل أن تنشب الحرب
بشهر ونصف شهر

كان شعب باريس الذي قام بتلك الثورات الجسام يحتفل بعيد الحرية ،
ويكرم الدم المسفوك .. كان الأحفاد يمجدون جهاد الأجداد !

ولم تشهد باريس قط مثل هذا الاحتفال . كان مظاهرة مروعة للقوة
الفرنسية في أنحاء دولتها المترامية الأطراف ...

رأينا جنود السنغال بعيونهم النارية وخدودهم المشروطة ، وجنود المغرب
بملاحفهم العاجية وعمائمهم الزاهية ، وبحارة الهند الصينية القصار القامة الثابتى
القدم ، وفرسان الجزائر بطرايشهم المطبقة وخيولهم المظهمة ... ورأينا ، بين
تصفيق وهتاف يشق عنان السماء ، جنود الإمبراطورية البريطانية من حراس
قصر بكنجهام العالقة ، يختالون بسترهم الجميلة الحمراء ، ويعلنون ، لأول مرة ،
على الملأ ، في موكب ١٤ يولييه ، تضامن الديمقراطيتين العظيمتين ! ..

ظلت تلك المظاهرة الرائعة تسير الساعات الطوال ، من الجنود والفرسان
والطائرات والدبابات ومدافع الميدان والمدافع المضادة للغارات . فكانت إنذاراً
صريحاً من الديمقراطيات للديكتاتوريات . كانت تهديداً ووعيداً لاشك فيهما ...
فبهر العالم ، واضطرب ، لأنه شم رائحة احتراق البارود ، وأدرك أن الواقعة غير
بعيدة ... ومع ذلك لم يكن العالم قد شهد إلا جانباً واحداً من أبطال المأساة ،
كان العدو المتربص يرى هذه المظاهرة ويتسمم ابتساماً الشيطان . لأن ما كان
يخفيه من آلات الدمار والخراب أفضع وأشنع ، وكان سلاحه الأول وسلاحه
الأكبر هو السكتان . وقد ساعده هذا السكتان على إخفاء أسرار تسليحه

واستعداده . وكان ممثلوه السياسيون يحتجون إذا رأوا صورة ، في جريدة بالقاهرة
أو كوبنهاجن أو إستانبول ، تمثل « روح ألمانيا العسكرية » ، مدعين أنهم رسل
السلام ! .. وساعده هذا الكتمان على غزو ثمانى دول ، وفتح فرنسا ، الغريمة
الكبرى ، لأن سلاح الكتمان هو سلاح المفاجأة ، فليس ينفع المحارب أن
يذيع أسرارده يوماً فيوماً ، ويبوح بما يصنعه من الدبابات ، ويفخر بعدد
ما يشتريه من الطائرات ...

وهنا ، أيضاً ، نذكر صحيفة « كارليل » الخالدة بالدعوة إلى السر والسكوت .
أليست الأمم أحوج من الأفراد إلى الاستعانة على قضاء حوائجها بالكتمان ؟
أجل ! .. ولعل هذا هو ما فطن إليه الإنجليز أيضاً ، لحسن الحظ ، فدعوا
إلى ما أطلقوا عليه : « طابور الصمت » ! ..



الشرقي والغربي

دخلت أمس محل بقاله ، يملكه أجنبي ، بشارع قصر النيل ، لا يقل ما يربحه في اليوم الواحد عن عشرين جنياً ، لأنه يبيع جميع أنواع اللحم والطيور والسماك والخضر والفاكهة . وأفة الخوخ التي يبيعها المعلم « جعلص » بخمسة قروش يبيعها « جنابه » بعشرة قروش ، وقد وضع على الخوخ ورقة بهذا السعر ، ليدخل السرور على قلب زبائنه . غير أن بضاعته مختارة فعلاً . والفرق بينه وبين ابن البلد أنه « يفرز » الفاكهة ، فيأخذ الجيد ويعرضه بأكثر من ضعف سعره ، ويترك النيء و « المعطب » لسواه . وما يقال عن طريقة عرضه وبيعه الفاكهة ، يقال في اللحم والطيور والسماك والخضر .

ولقد استلقت نظري في قسم الجبن والزبد من بين الأنواع العديدة « الجبنة البيضاء » ، إذ وضع صنفاً مصرياً ثمن أفته ١٤ قرشاً ، ووضع صنفاً آخر كتب عليه « الإسلامبولي » ، وثمن أفته ٢٨ قرشاً !!

وهنا ذكرت كلمة من كلمات « ماقول ودل » عن الجبنة البيضاء ، في « الأهرام » منذ بضع سنوات ، أشرت فيها إلى العيب الذي يلحق ببلاداً زراعية كبلادنا ، وهي لا تعرف إلى اليوم كيف تصنع جبناً أبيض !!

في حين أن الإنجليز لديهم الشستر ، والفرنسيين الروكفور ، والسويسريين الجروير ، والهولنديين الفلمنك ، واليونانيين الرومي ، والصربيين البلقاني ، والأتراك الإسلامبولي ... إلخ . إلخ .

لا تزال مصر عالة على سواها ، حتى في الجبنة البيضاء ، تستوردها من الخارج !! . ولقد عجزت وزارة الزراعة ، بجلال قدرها . وعجزت كلية الزراعة ، بكل أسانذتها ومعاملها . وعجزت وزارة الأوقاف ، بكل تفتيشها ،

عن إخراج «جبنه بيضاء» ذات مستوى واحد (ستاندرد) ، ذات طعم واحد
و «حدوقة» واحدة !!! .

أما إذا اشتريت من دمياط صفيحة فيجب أن تكون عالماً كيميائياً
للمحافظة على هذه الصفيحة . لا تفتحها في الهواء ، أو تعرضها للشمس ... إذا
أخذت منها فافتح وأقل في الحال ، وإذا نقص ماؤها زدها ماء .. وإذا قل
ملحها فضع ملحاً .. وأنت بعد ذلك ستجد حتماً لكل قطعة من الصفيحة طعماً
مختلفاً عن طعم سائر القطع !!! بل إن بائعاً آخر يشير عليك بفتح الصفيحة حتى
تذهب «كمتها» .. ويقول لك : يجب أن تأكل الصفيحة كلها في أسبوع .
الحق أنه من العيب أن تكون مصر بلداً زراعياً ، ولا تعرف كيف
تصنع جبنه بيضاء ، فإكل أنواعاً دنيئة رديئة ، أو تضطر إلى شراء جبنه بيضاء
إسلامبولية من يقال أجنبي ، وندفع في الألفه ثمانية وعشرين قرشاً* !!! .



* بيعت الجبنه القبرصية البيضاء خلال الحرب ، في محل «لاباس» ، بثانين قرشاً صاعاً

للألفه الواحدة !!! .

الصبر الجميل

استيقظت أمس متوعكا شيئاً ما، مزاجاً وجسماً .. فرأيت ملازمة الفراش يوماً أو بعض يوم ، وهذا من حقوق البدن ، من حين إلى حين .
ومع ذلك تمللت وتمررت . عزّ على الانفراد في البيت ، والعالم خارجاً
يعج ويضج . وتذكرت أن هذا الانفراد هو ضرب من الصبر ، والصبر هو من
لوازم المرضى اضطراراً ، ولكنه في الأصحاء من صفات النبغاء . فليس النبوغ
إلا الصبر الطويل .

وما يذكر عن المغفور له الملك فؤاد : أنه كان واضعاً إزاء مكتبه لوحة خطت
عليها كلمة : « الصبر » . ولم تكن مجرد كلمة على ورقة . إنه طبعها فعلاً على فؤاده ،
وحكم بها مصر عشرين عاماً .. صبر وظفر .. وتحققت جل أمانيه في النهوض
بيلاده . وكانت له ، في هذا النهوض ، كل يوم ، غزوات .. كان يحارب كل يوم
وينتصر ، بالصبر والذكاء والدهاء ..

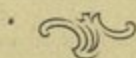
والصبر فضيلة لم تعد في خلق أبناء هذا الجيل من الشبان . الصبر عندهم
« موضة قديمة » . في حين أنه طراز كلاسيكي لا تبلى جدته . إن الإنجليز انتصروا
في الحرب الماضية ، سينتصرون في الحرب الحاضرة ، بالصبر الجميل . فهو من
أجل صفاتهم . إنهم يعرفون الانتظار بغير قلق . ويمتازون في هذا عن الفرنسيين
الذين هم مثلنا ذوو قلوب حامية ، يفرغ صبرهم من انتظار البريد الذي يحمل
كلمات الحب ، وفي انتظار القتال الذي يحمل الموت ، ولكنه يحمل أيضاً
حياة الأوطان .

ويعد « مازاران » من أعظم رجال الحكم في التاريخ ، لأنه كان صبوراً أشد
الصبر . كان شعاره : « الزمن ... وأنا » . وكانت الدسائس تحاك من حوله

حياة مدهشة ، فيصبر عليها .. وكانت النساء ، والنساء أعداء الزمن ، يهاجمنه بالجمال والدلال ، فيصمد لهن ، ويعرض عنهن . ولكن امرأة واحدة ، هي : « آنا دوتريش » ، رضيت بالصبر إلى جانبه ، صبرت معه ، وحكمت معه . فازدهر حكمها في فرنسا ، مدى عشرين عاماً * ...

أجل ، إن الصبر ليس من صفات الشباب . إنه يكاد يكون وقفاً على الذين أنفضت لهم التجارب ، وصهرتهم حكمة الأيام . الشباب يندفع بسرعة ، يريد أعز شيء في أقرب وقت ، يريد المال والمجد ، في طريقة عين . أو لم أقل إن الزمن هو الصبر ؟ فأتعجب للشباب ، الزمن أمامه ، فيلوى عنه كتفه ، وينصرف نافذ الصبر من أماله وأهواله ! ... أما الشيخوخة ، التي لم يعد لديها وقت ، فهي تنسج ، صابرة ، على منواله ! ...

هو ذا الصبر قد تجددت « موضته » .. هي ذى الحرب قد جعلت منه للحياة عماداً . الجنود يصبرون ، أمام الموت ، في الوحل ، والمطر ، والبرد . وأهل المدن يصبرون على غارات الجو ، وأخطار المجهول . وكثيرون أيضاً ، في الحرب والسلم ، يصبرون على الجوع والحرمان .. هذا هو الصبر ، وهو من أعظم الفضائل ، يسترد سلطانه .. وهذا عدل .. إن الصبر - كما لاحظ كاتب فرنسي - هو أناقة الأقوياء ...



• راجع روائع هذا كله في كتاب جديد للتأليف : « عرسه وقلب » . الناشر : مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر .

الإنجليزى والفرنسى

من الذى يشك فى أن الدنيا اليوم على كف عفريت ؟ فمضير العالم سيتقرر قبل أن يولد العام القادم . لم يعد بيننا وبين حكم القدر إلا بضعة أشهر ! ...
رد الإنجليز على هتلر بقولهم : « لا » .
قالوا قبل أن ينتصر ، وبعد أن انتصر .
قالوا قبل أن يعرفوا قوة خصمهم ، وقالوا بعد أن عرفوا هذه القوة .
وهم اليوم يدركون إلى أى حد تكلفهم هذه الكلمة ، وإن توجت بالنصر أعلامهم . فهذا نزاع ، الظافر فيه كالحارس ، يدفع ثمناً يقشعر من هوله البدن .
وكلمة « لا » ، هذه تمثل كل الخلق الإنجليزى الذى تميز بالبرود : أى الصمود والكبرياء .. فهو على نقىض الخلق الفرنسى الذى تميز بالتحمس : أى التهور والاندفاع .

الإنجليزى لا يعرف المنطق ، ولكنه يؤمن بالتقاليد ، ويتبع العواطف والاحكام المبتسرة والقرارات المؤقتة ، تبعاً لكل حالة . فهو يلبس لكل حالة لبوسها . ولا يصغى إلى فيلسوف أو مؤرخ يعمل فى برج من العاج بعيداً عن ضجيج الحياة ، كما قال « أوستن تشمبرلين » ، فى اجتماع لعصبة الأمم ، يوماً ما ، منذ خمسة عشر عاماً ، عند ما رفض أن يضع توقيعاً على بروتوكول جنيف ، معلناً أن مثل هذا التعهد لمبدأ يعد مخالفاً للتقاليد السياسية لأمته !

الإنجليزى رجل عمل ، يؤمن بالتعاون أمام الخطر . فى الوقت الذى يضطرب فيه الفرنسى ويثور ويسخط ويغضب ويطيش ، نرى الإنجليزى يواجه الموت ، كما يذهب إلى مباراة فى كرة القدم . وبلاده اليوم ملكية ، بيد أن ملكها هو فى الواقع « رئيس لمدى الحياة » . وبلاده أيضاً أرستقراطية ، لأن

أكبر قاداتها السياسيين هم من طبقة اللوردات . وهى مع ذلك ديمقراطية ، لأن البرلمان يقوم بالتصويت العام .

والإنجليزى فى السياسة رياضى ، لا يحب فى الملعب أكثر من فرقتين كأ كسفورد وكبرديج ، ولا فى السياسة أكثر من حزبين كالمحافظين والعمال . . . ولذلك صنى حزب الأحرار ، ولم يكند يسمع بحزب الفاشست . وكان يقال : إن الإنجليزى بمفرده رجل غريب الأطوار ، وإذا اجتمع إنجليزيان لعبا كرة القدم ، فإذا صاروا ثلاثة كونوا أمبراطورية ! . . حتى جاء باحث نفسانى كبير ، هو « س . دى ماداريجا » ، فوضع رسالة مقارنة عن بسيكولوجية الإنجليز والفرنسيين . قال فيها : « إن هذا الوصف يعد ظالماً ، لأن رجلاً إنجليزياً واحداً يكفى لتمثيل الامبراطورية البريطانية » !!

وإذا عدنا إلى الفرنسيين ، فماذا نجد فى تحليل الخلق الفرنسى السياسى ، كما وصفه الداهية المجرى « كورنيس » ؟

نجد فرقاً شاسعاً بين الخلقين الفرنسى والإنجليزى . فهما على طرفى تقيض . ليس الفرنسيون شعب التطور التاريخى البطيء ، ولكن شعب التغيرات الثورية الفجائية . شعب شديد التأثر ، قوى الاندفاع ، بلا « فرامل » ، ولا « صواميل » . شعب « المأساة » ، لا « الرواية » . وخطط تطوره ليس مستقيماً ، ولكنه كثير التعاريج والمنعطقات ، فى آخر القرن الثامن عشر قلبت الأمة الفرنسية الحكومة الملكية باسم الديمقراطية والحرية . ومع ذلك لم تمض عشر سنوات حتى عادت فرنسا أمبراطورية مطلقة ! . . ثم ارتدت فصارت ملكية محافظة ! . . ثم تحولت إلى ملكية بورجوازية حرة ! . . ثم كانت ثورة أخرى ، ردت الجمهورية الثانية ! . . ثم انقلاب حكوى أعاد للسلطة أمبراطوراً ! . . ثم سقط هذا الأمبراطور فى ١٨٧٠ ، وعادت فرنسا إلى ماكانت عليه فى ١٧٩٣ ، إلى الجمهورية ! . .

فلا توجد على هذا أمة كفرنسا في اندفاعها وتحولها وانقلابها .
 هل ترانا نفهم الآن ، بعض الفهم ، السر في أن الفرنسيين قالوا لهتلر :
 « نعم » ، وأن الإنجليز قالوا له : « لا » ؟
 لعل الإنجليز أنفسهم كانوا يشعرون - دون أن يذكروا - في رفضهم هذا ،
 بكلمة شاعرهم العظيم « ملتون » :
 « إننا الشعب المختار لتعليم الشعوب كيف تعيش » . . . ! !

[الأهرام : ٢٦ يولييه ١٩٤٠]



النسيان

أحقاً أن البعيد عن العين بعيد عن القلب ؟ ما أصعب ذلك وأشدّه على النفس إن كان حقاً ! بل ما أصعب أن ينسى المرء يوماً من كانوا ملء العين وملء الفؤاد ! ...

البرد هنا شديد جداً ، سبع درجات تحت الصفر ! ولكنك تشعر فيه أنك تزداد قوة وصحة ونشاطاً . لا بد من برد شديد ليزيل الخمول الطويل ، ويمحو آثار الدنج الرذيل ! ... الجليد يتساقط فوق كل شيء ، فكأنه شمس ناصعة مشرقة ، من نوع آخر . هذا الثلج البهيج يتوج الكائنات ، ويكسبها جلالاً .. الروس من حولنا يحتفلون بعيد ميلادهم ، ويحاولون أن ينسوا هول ما بهم . هؤلاء الذين كانوا بالأمس يملكون الضياع والقصور ، لا يكادون يجدون قوت يومهم ... وهم الليلة يحطمون الكؤوس ، لكي يحطموا « سوء الحظ » ، ويخففوا من ويل المصير !

كل يحىء باريس حاملًا ذكرياته ، سائلاً النسيان . ولكن أليس في النسيان بعض الجلود ؟ بأي حق ينسى المسافر ، ويتذكر المقيم ؟ في السفر إذن بعض الخيانة ، وبعض الجبن . السفر أحياناً ضرب من الحرب من الألم ، أو ضرب من المخدرات الروحية التي يحتاج إليها كثيرون من الخياليين ، ليستأنفوا السير في مواكب الأحياء ، في مواكب الجاحدين ، في مواكب الماديين .

وطلعت الشمس ، فأهرعت باريس إلى غاب بولونيا ، تسير على الثلج ، وتتطلع إلى الشمس . فتذكرت المثل الاوربي القائل : « إن صاحب اليدين الساخنتين يكون بارد القلب » ! .. وقلت في نفسي : إن شمسنا ساطعة في كل آن .. إن شمسنا حارة ساخنة .. ولكن عواطفنا فاترة متغيرة ..

لا خوف إذن من السلوى والنسيان !

[باريس : ١٩٣٩]

عند ما ساد الظلام

ساد الظلام مدينة القاهرة . وأنذرت صفارات الخطر الناس بوجوب
الالتجاء إلى المخابى والكهوف . وأغلقت المقاهى أبوابها فى وجوه روادها ،
ولم ترحم عشاق الطاولة ، ولا الذين لا تحلو لهم الحياة إلا بنهش أعراض
الناس فى المقاهى ، لأنها هى أيضاً زهدت فيهم ليلة ..

عرف كثيرون ، كثيرون جداً ، أمس ، أن لهم بيوتاً . عرفوا ذلك عندما
طردهم الشوارع بظلماتها ، وطردهم الملاهى ، واعتذر أصحابهم لهم ، واسودّت
الدنيا فى وجوههم . عادوا إلى البيت ، فاستقبلهم بالحرارة والضياء ..

عاشوا أمس بين زوجاتهم وأولادهم . فنذ شهور طويلة لم يقضوا ليلة كاملة
فى هذه البيوت ، اللهم إلا بسبب المرض .. كانوا أمس أصحاب معافين ،
ومع ذلك لم يمتوا بيوتهم ، وعاشروا أهلهم !

كثيرات هن اللواتى تمنين أمس أن يظل شبح الخطر باقياً ، والظلام
سائداً . فقد تذوقن شيئاً من السعادة والسلام .. ما أشد قناعتن ، وما أجملها !
وفى الجانب الآخر من الأرض أخوات هن يعشن عيشاً متواصلاً فى
الخطر الحقيقى والظلام الشامل ، لا يرين موضع أقدامهن من الطريق ، ولا من
المستقبل الغامض الكئيب . لقد بعثن إلى خطوط القتال بالأزواج والإخوة
والأولاد . وبقين بغير عائل ، لا يطمعن فى مجد ولا فى مال . أدين الواجب
لبلادهن ، وانتظرن صابرات ، كريمات على الدهر ، عزيزات على الوطن ..
لم يعدن يخشين أزيز الطائرة المعادية ، ولا صفير الإنذار الخيف المروع ،
ولا الظلمات الحالكة الرهيبة . إنهن فى عزلة روحية عن هذا كله .. إنهن يعشن
بأرواحهن وقلوبهن مع أولئك الأجنة الذين يواجهون الموت فى المغاور

والكهوف والنفادق ، تحت سيوف البرد والتلج والصقيع ، تحت وإبل من
الرصاص والقنابل ، تحت سحب من الغاز الذى يخنق الصدور ويطمس الأبصار !
فليحمد نساؤنا مصيرهن . وليذكرن الويل الذى فيه أخوات هن . وليعلن
أن أسباب الضجر التى هن فيها ، لحرمانهن بعض الحرمان من أزواجهن ،
لا تكاد تذكر إلى جانب آلام الاخريات .

أما الأزواج ، فماذا أقول لهم ؟ ! لمنهم رأوا ، ليلة أمس ، بهجة البيت وجماله .
لمنهم ذاقوا بين أولادهم هناء لا يستحقونه ، جاء اضطراباً لا اختياراً ، لافضل
لهم فيه . فلماذا لا يكون أيضاً عن طيبة خاطر ؟ لماذا لا يتعظون بما يصيب
الآن الرجال الذين فى الشاطئ الآخر ؟ !

أى تضحية منهم ، تضحية الشارع والمقهى بعض الليالى فى الأسبوع ، من
أجل الزوجة ، ومن أجل الولد ، ومن أجل الضمير ؟ ... أعنى من أجل
النور ، والمحبة ، والواجب ! ..



المهنة قبل الزواج

وقف ماريشال الطيران البريطاني السير نيووال خطيباً في طلبة مدرسة الطيران بكرونوال ، خدشهم لا عن قوة الهواء في التعليم حتى أصبحت المتحركة في مصير الشعوب ، بل خدشهم عن « الزواج » . . . فقال : « فكروا في مهنتكم أولاً . ثم فكروا في الزواج بعد ذلك . إنكم لا تحسّنون مراكزكم بالزواج المبكر وأنتم شباب . ولكنكم تضاعفون مسؤولياتكم ! »

وهذا القائد الكبير ، أراد في خطبته أن يطبّق نظام حياته ، فهو قد تزوج في سن الأربعين ، ووفق في زواجه . بل إن شخصاً عظيماً جداً ، أعظم من هذا القائد — وهو إنجليزى أيضاً — قد تزوج أخيراً في سن متأخرة ، ولكنه ، لكي يتزوج ، تخلّى عن مسؤولياته ، ونزل عن تاجه !

وقديماً قال العرب : « الولد بحبة مبخلة » . ففعل هذا هو الذي يريده القائد الهام ، لأن الطيران يتطلب الشجاعة والكرم المطلق . . . وكثيراً ما يطلب من الطيار أن يجود بالنفس في سبيل الأوطان .

وليس الزواج ، ولا سيما عند الغربيين ، بالعملية التجارية التي تقتضى التنفيذ في وقت معين . وليس هو قطاراً يقوم من محطة معينة في ساعة محددة ، ولا شقة في منزل يبحث عنها الإنسان ليستأجرها بعقد . . . إنما الزواج عندهم — كما قال ستندال — هو غرض الوجود الأساسى ، وهو أيضاً الحق في الحب . وإذا أردنا أن « نداعب » ، قلنا : لماذا يخشى القائد المحنك على شبابه من الزواج إلى هذا الحد ؟ ومن هم الشبان الذين يتزوجون ويعرفون المسؤولية ؟

إن أغلبهم يتزوجون ليركوا آباءهم لإعالة زوجاتهم وأولادهم ! ولا يلبثون بعد الزواج طويلاً ، حتى ينطفىء البريق ، وتتجلى المتاعب والشواغل . وعندئذ — إذا كانوا طيارين — تزيد رغبتهم في الخطر والمجازفة ، لعل في الخطر الخلاص . . .

المدينة المحاربة

الإسكندرية : المدينة المحاربة الأولى في المملكة المصرية ! .. كان الناس ينتظرون لها موسماً بديعاً في هذا الصيف الذي حرم فيه المصيفون الرحيل الى أوربا ، فبنوا العلالى والقصور . جاء دخول إيطاليا الحرب فتركها مقفرة من المصطافين . فمن كان يزعم أن أغسطس سيجدها مقفرة ؟ أين سيدات سيدى بشر ، وغانيات جليم ؟ لم تبق منهن غير أسر معدودة ، وتركن البلاج للخادومات ! لكل شئ . عزه وذله ، حتى شواطئ البحر ! ..

كانت الرمال من حولي تتكلم همساً .. كأن حياتها ما زالت تذكر .. ها هنا ضجعة اللطف ، وها هنا لمحة العطف ! .. ها هنا تبودلت نظرات ، وتبودلت خفقات ! .. ها هنا اشتعلت نار ، ثم خمدت في دقائق وثوان ! .. وها هنا ، تحت الرمال ، آثار نار لا تكاد تبدو ، منذ سنين ، وإن كانت لا تزال تتلظى ، لأنها كانت ناراً روحية طاهرة ، لا تخبو أبداً ! ..

خففت الوطء على أديم هذه الرمال . فما أظنّها إلا بقية قلوب محرومة ، كان شفيعها في اللقاء البحر ، وكان عذرها في الفراق القدر !

وفي الليل طغت الظلمات على عروس البحر الأبيض ، فلبست ثوب الحداد . صارت حزينة حزناً لا يوصف ، فلا نظرة ، ولا ابتسامة ! كنت ترى الكورنيش الذى لا آخر له وقد أتشح بالسواد . وتأمل آلاف النوافذ التى كانت بالأمس تتجاوب بأنوار الصفاء ، وتفيض الحجرات من ورائها بكؤوس الهناء ، فإذا بها كلها مغلقة ، معتمة ، خرساء ! ..

وفي مساء يوم السبت دخلنا المطعم الأنيق الوحيد بشارع فؤاد الأول ، فإذا به قد اختفى وراء ستائر غليظة كثيفة ، أزحناها ، فرأينا المطعم من ورائها يتلأأ

نوراً ، والنساء فيه قد أحطن بالرجال كما يحيط النحل بخلاياه . فلم نجد خلية .
فتعشنا على الرصيف الخارجي ، في الظلام الحالك ، لا نكاد نرى لطعام أو
شراب لونا . . . وكان من حولنا بعض ضباط الاسطول البريطاني ، بصحبة سيدات
إنجليزيات في ثياب السهرة . وكان مرهمهم خالصاً ، يضحكون من صميم القلب ،
كان المصير ناعم أمين ، وكان الدار عقباها لهم عن يقين !

ما أعجب هذه الظلمات ! . إن لها سرّاً . إن لها لغة . إن لها حديثاً ! . .
كانت النظرات فيها — على ظلال القمر الشاحب — غريبة ، حارة ،
شائقة . . كان كل ما حولنا يبدو جميلاً ، وكأن هذه الظلمات موجات حنان ،
تجمع هذه القلوب ، التي جاءت من الهند ، وجاءت من السند . قلوب جاءت من
ضفاف التاميز ، والسين ، والتيل . . . وكان بينها حتماً قلوب من « التير » ، وقلوب
من « القولجا » ، وقلوب من « الدانوب » .

كانت في هذا الجو الحالك شرارة المحبة الإنسانية ، الشرارة الكهربائية
التي تظهر الاختلافات ، وتجمع المعادن البشرية ، من كل الأرض ، وتسبكها
سبيكة واحدة . . .

كان هذا الظلام بشير النور في الغد . . كان كالجو الغائم ، تعقبه ، حتماً
شمس مشرقة ! . . .



الترفع بالإسلام

هناك مسألة من أخطر المسائل ، وأشدّها دقة ، وأدعاها إلى عناية ولاة الأمور ، واهتمام المشرّعين والنقّات في علوم القوانين المدنية والمذاهب الإسلامية . وأعني بها : خروج غير المسلم من دينه ، ودخوله في دين الإسلام . فالمحاكم الشرعية حافلة بهذه الطلبات من رجال ونساء . ونكاد نجزم بأن الكثير من هذه الطلبات لم يقدم عن يقين ثابت راسخ بأن صاحبه قد قارن بين دينه وديننا ، وآثر أن يموت على مذهب رسولنا .

كثير من هذه الطلبات احتيال غير مشروع ، للخلاص من حياة زوجية ، أو الكيد والتشفي ، أو لما شابه ذلك .. ولإني أضرب مثلاً واحداً هنا :

سيدة من أسرة معروفة ، مسيحية ، أرادت الخلاص من زوجها المسيحي ، ولا سبيل لها إلى الطلاق . فأسلمت . وبذلك طلقت من زوجها . ولكنها لم تلبث أن تنصّرت مرة أخرى ، لتتزوج من مسيحي آخر ! .

قد يقولون : إن الدين مباح ، يدخله من يشاء ، ويخرج منه من يشاء ، متى شاء . ولا إكراه لأحد ، ولا ضغط على أحد ، فيما يرغب ، وفيما يترك . ولكنني ، كسلم ، أحب ديني ، وأتمسك به ، وأريده دائماً موفور الكرامة ، ملحوظ المكانة في جميع النفوس ، من جميع المذاهب .. أقول : إنه لا بد من حماية الدين نفسه ، من الذين يطعمعون في حمايته ، لمأرب في نفوسهم ليست شريفة دائماً .

ذلك أن هذه الصور المتوالية من الاستغلال للسباحة الإسلامية السامية ستطبع بعض الأذهان بأن الدخول في دين محمد صلى الله عليه وسلم ، في كثير

من الظروف ، هو دخول مصلحة ، وليس دخولا نزيهاً خالصاً لوجه الله .
 فما هي حالة أولئك الذين يكونون فعلاً قد اقتنعوا بهذه العقيدة ، وأرادوا
 اتخاذ الإسلام ديناً ؟ كيف تكون تبرئهم من شبهات ظالمة لا أساس لها ؟
 أليست القاعدة المعروفة : أن القرش الزائف يطرد القرش الصحيح ؟ !
 إن التدقيق في قبول الراغبين في الإسلام ، ينبغي أن يكون معادلاً التدقيق
 في قبول الراغبين في الجنسية المصرية ، ليلوذوا بها في مزاحمة المصريين في طرق
 العيش والمنافسة على الرزق .

وليس يجوز أن يكون الإسلام تكأة يعتمد عليها المتخاضعون من أرباب
 الديانات الأخرى ، حلاً لمشاكلهم أحياناً ، وتعقيداً لمشاكلهم أحياناً ...



ذكريات

آخر أغسطس ١٩٣٩.. في باريس.. الحرب على الأبواب.. أوروبا كلها دخلت في أتون من نار.. تريد أن تصهر مرة أخرى. وتكفر عن ألوف السيئات!

كل أصدقائه ومواطنيه قد رحلوا عنه إلى الأوطان. وكان لم يقرر خطة بعد. كان يريد أن يعيش دهرأ في ذلك الجو الملهب، جو الموت، ليخرج لبلاده عظة من عظات الحياة.

بدأوا يلصقون على جدران داره الجميلة دعوة الدفاع الوطني، طبقة بعد طبقة، إلى الصفوف.. كل ورقة نداء من هذه بمثابة إنذار جديد بالخطر المدلهم. وكانت الصحف تفيض بدعوة أهالي باريس لهجرها إلى الريف.. فكان يرى نوافذ جيرانه تفتح على مصاريعها، وهم يغطون الأثاث ويحفظون التحف الثمينة ويحملون ما خف حمله. ثم تقفل النوافذ، ويسود المساكن ظلام دامس، وصمت موحش. وتختف أصوات الخادومات اللواتي كن يترنمن بأناشيد الحب، وأغاني الهوى، بينما ينظفن المطبخ، ويرتبن البيت...

كان عشه الصغير، عش البلبل، غاية في الأناقة، أمام تمثال «بلزك» في حي الشانزليزيه، أجمل أحياء العالم، يسوده السلام والصفاء، لولا كآبة الليل في المدينة، التي كانت مدينة النور، فغدت مدينة الظلمات.

والستائر الكثيفة لا تزال مسدلة، كما لو كانت تريد أن تحجب عش البلبل عن وحشة الطريق ومخاوفه وأخطاره.

استيقظت «س» مبكرة كعادتها.. لا بد لها من أن تذهب إلى فرقها النسوية للصليب الأحمر، وتؤدي مهمتها في مساعدة المهاجرين على الرحيل،

وفي انتظار الجنود وتوديعهم في محطة مونبارناس .

والساعة الثامنة صباحاً .. وكان لا يزال ، بالطبع ، نائماً ، فلماذا يستيقظ في ساعة العمال ؟ ! إن باريس العالمية تستيقظ في السابعة ، وباريس التاجرة تستيقظ في الثامنة ، وباريس الارستقراطية تستيقظ في العاشرة ، وباريس البوهيمية تستيقظ عند الظهر .. وهو فنان .. يعيش أحياناً الحياة العالمية ، ثم البوهيمية البرجوازية ! .. ويعيش غالباً بين بين .. بين أحباب القصور والمتشردين في الطرقات حتى الفجر .. بين أغني الناس وأفقر الناس .. فنان يعيش اليوم وفي يده مئة ألف فرنك ينفقها بغير حساب ، ولا يجد عدا قوت يومه ! ...

قالت له ، بعد أن حسرت الستائر ، تحاول بالنور أن توقظه ، وهو نصف نائم ، يتسهم ، وهي تصيح : يا للرجل السعيد !.. أيها الرجل السعيد ! .. تمام ؟ !
بيننا أنا أموت لغاساً ، ولا أستطيع أن أغمض بعد جفناً ؟ ! أى مسئولية تحمل أنت ؟ ! بلادك جميلة لا يهددها شيء ، وقلبك خلى لا يخشى فراقاً ! .. إنك تحمل أوهامك وأحلامك ، وتنزه بها ، وتعيش من ورائها ؟ ! .. إن حلى بك ، وحبي لك ، ستأخذ عليه أجراً يوماً ما ، يوم تكتبه وتصوره لقرائك ! ..
أيها الرجل العجيب السعيد ! .. تستيقظ متى تشاء ، وتنام ما طاب لك ، وتحلم بالجنة والسعادة ، وتتقاضى أنعابك عن اليقظة ، وعن المنام ، وعن الأحلام ! ..
أتعرف ماذا حدث لى أمس ، في محطة مونبارناس ، وكنت مع زميلة لى فى ثياب ممرضات الصليب الأحمر الناصعة ؟ رأتنا عجوز شمطاء دميمة ، من المشرفات على حركة التطوع للدفاع ، فهرتنا ، وعنفتنا ، وشممتنا ، وزجرتنا ، لأننا كننا نظيفتين متأنفتين ، قائلة : و أما تخجلان من هذا الأحمر والأبيض فى الوجنتين ؟ .. ونحن على شفا جرف هار من الخراب والدمار ؟ .. وهل تعرف يا صديق كيف جاء الرد عليها ؟ إن جنوداً من شباننا الشجعان رأونا فى طريقهم

إلى الميدان فأعجبناهم ، فقالوا ضاحكين معنا : « ما دامت لنا ممرضات جميلات
كهؤلاء ، فلنبادر إلى الحرب والطعان ، لنجرح ، ونعود سريعاً ، نلقى على أيديهن
البرء والشفاء !... »

وأتمت « س » ارتداء ثيابها . وأمسكت بيدها قبعتها . . وجاءت تضع قبلة
أخيرة على جبين صاحبها المسترسل ، ظاهراً ، في النوم ، ليكأيدها ويداعبها . .
عيناه مغمضتان . . وقلبه معذب يقظان . .
آخر أغسطس ! . .

ما أكثر ما حملت ، أي هذا التاريخ المنحوس ، إلى قلوب الناس ، من شجن ،
ومن يأس ، ومن أحزان ! . .



دروس للشرق

عود إلى الإسكندرية .. لا أرضى عنها بديلاً .. هيهات أن تزاحم رأس
البر رأس البحر !

الطريق الصحراوي يشرح الصدر . ما أحوج الذين يعيشون في ضوضاء
المدينة إلى هذا الهدوء ، إلى هذا الهواء ، إلى هذا السراب نفسه ، الذي يحسبه
الظمآن ماء ! .. ما أحوج عيونهم إلى رؤية شيء ضئيل تافه ، كذلك العشب
الجاف ، بدل تلك العمارات الشائخة والمباني المتراحة !!

شمس الظهيرة لا تزال حارة لافحة . والهواء شديد يكاد يكون عاصفاً .
فأغلقتنا نوافذ السيارة . وأدركنا رجولة هؤلاء الجنود الذين جاءوا من كندا
وأسكتلندا ، ليعيشوا في خيم مضروبة في صحراء شمسها بالنهار محرقة وبردها
بالليل قارس ، ليستهدفوا لأخطار مجهولة تهددهم في كل لحظة من الليل والنهار .
انقطعت عنهم أو كادت أبناء أهلهم وأولادهم ، هؤلاء الأهل الذين يعيشون
مثلهم في خطر دائم ، فلا يعلمون هل يجمع الله الشتيين ، أم يضرب بينهما بسهم
فراق لا لقاء بعده .

إن مثلهم عظيم في التجلد والتضحية ، يصبرون على المكاره ، كأنها برناج
سعيد ، ويستوى عندهم الموت مطمورين في جليد أوربا ، أو مدفونين في
رمال أفريقيا .

يستوى عندهم الموت ساقطين محترقين من علو شاهق فوق السحب ،
أو ذاهبين طعاماً للسماك ، في قلب البحر ، من غواصة خائنة .. يلقون هذا كله
كل يوم ، كل ساعة ، والابتسامة على شفاههم ، لأن رسالتهم العليا هي حياة
وطنهم ، لا يسألون : هل هذا الوطن مخطيء أم مصيب ، على حق أم على باطل ؟

وهل هذا الوطن قوى أم ضعيف ، مستعد أم على غير استعداد ؟ . وهل حظه
من النصر كبير أم صغير ؟ .. لا يسألون عن المذنب إذا ادلهم الخطب ، ولا يهتمهم
أى رجالهم عقد لسياسته النصر .. لا تهمهم الحوادث ، ولا الأفراد ، ولا
السياسة .. وإنما يهتمهم شيء واحد ، هو : أن يكونوا جميعاً ، على اختلاف
ألسنتهم ، وأسلحتهم ، ومذاهبهم ، وأحزابهم ، ونزعاتهم ، : كتلة واحدة
متعاونة تقف صفاً واحداً ، فى الوطن وخارجه ، للدفاع المسلح ، والدفاع
السلبى ، للثبوت إذا دعاهم الموت ، فى أدغال آسيا ، أو كئيبان أفريقيا ، أو ثلوج
النرويج ، أو شوارع لندن .

ما أحوج الشرق إلى هذا الدرس ! ... وهو ليس عليه بعزيز ، وليس عنه
يبعيد ... إنه ها هنا فى صحرائه ! ...



من أثر الحرب

مساء الخنيس .. عادت القطع التي كانت قد سافرت من الاسطول البريطاني ،
في مناورات رودس .. عادت إلى الميناء .. فانتعشت الإسكندرية ، وزادت
الاشباح البيضاء - ثياب البعارة - في أمواج الليل السوداء . فسرنا في «كباريه» ..
قلنا : ننظر ماذا صنعت الحرب بأهل الملاهي . فوجدنا النتيجة مؤلمة ،
والمشهد كئيبا .

كانت أوروبا الوسطى هي المتعمدة بتصدير تلك البضاعة الجميلة من العيون
الزرق والشعر الذهبي . حتى جاءت الحرب فردت بضاعتها إليها . وبقيت دور
اللهو فقيرة إلا من أنقاض الجمال ..

كان في ذلك الملهى السكندري نحو عشرين فتاة ، لا تكاد تجد بينهن
أكثر من واحدة «مقبولة» .. ثيابهن زرية لا ذوق فيها .. جالسات مخزونات
في انتظار من يزداد به السكر وتوثر فيه الخمر ، فتصبح البديعة لديه جميلة !
لم نجد براعة في الغناء ، ولا في الرقص .. كان الملهى كأنه ملتقى أناس
طردهم ظلمات الطريق ، فلبجأوا إلى مكان منير .. لا شيء فيه غير النور ، وقد
أغلقت منافذه وأبوابه ، فأصبح حره لا يطاق .

وأفسح الرقص للحاضرين .. فقام بعض الضباط يجرّون أقدامهم جرّاً ،
ويخاصرون من شاءوا من بنات الهوى .. فكانت المجموعة عجيبية شاذة ،
لا انسجام فيها ، ولا روح لها .. وهى أدعى إلى الرثاء لابن آدم ... فكدنا
نخفق .. ولم نتصور كيف أن كثيرين لا تطيب لهم ، كل ليلة ، إلا حياة
الكباريات !.. ماذا يجدون في هؤلاء الفتيات المسكينات الذليلات ؟! .. ماذا
يجدون لديهن من مريح يسعدون به ؟! إنهن لسن إلا أجساماً ذابلة ، وقلوباً بآدامية !

ثم قامت فتاة من « بنات الناس » المتفرجات مثلنا ترقص مع رجل معها .
 بدت حسناء بحسبها الغض ووجهها النضر ، بين تلك الوجوه الكاسفة ،
 والأجسام المترهلة . إنها بالطبع لا تسهر سهرهن ، ولا تعيش عيشهن ... ومع
 ذلك كان رقصها مدهشاً . كان شيئاً لا نعهده إلا من محترفة أصيلة . كانت خيرة
 بكل أنواع الإغراء في الحركة والإشارة . كانت بمجوعاً مثيراً لمن يراقصها ، ولمن
 يشاهدها . كانت تلاعبه في الرقص وتداعبه ، كأنها ليست على مرأى ومشهد
 من عشرين امرأة وخمسين رجلاً . كانت تروح وتجيء ، وتقبل وتدبر ، وتلوى
 كتفها وتنصرف ، ثم تحنو فجأة وتنعطف ! ... وكانت تضرب كفها بكفها ،
 ثم تضرب ركبتيها بكفها ، ثم تضرب رفيفها بجنبها مرة ، وتهرب منه مرة ! ...
 وكانت الموسيقى تحنو ، فتبعد عنه ، وتفارق ما بينها وبينه . ثم كانت الموسيقى
 تعصف فتلتصق به ، كما لو كانت خائفة ولهى ... وتلتصق خدها بخده ، وتغمض
 عينيها ، ناظرة إليه من وراء الجفون ، وكأنها في حلم لا تريد أن تستيقظ منه .
 مسكينات هؤلاء المحترفات الرقص من حولها ! لقد انصرفت عنهن
 الأنظار ، لأن « بنت الناس » قد بدت « بنات الهوى » ! ...

الويل لنا من هذا الجيل الذي نعيش فيه ! كيف يمكن فتاة كهذه أن
 تزوج ، وأن تقدر حرمة الزوجية ، وأن يكفى خيرها شرها ، وتنام من المغرب ،
 وتصبح أما فاضلة !؟ ...

كيف لنا أن نعيد عقلها إلى رأسها ، بعد ما أضاعت العقل !؟ ...

الحرب والأمومة

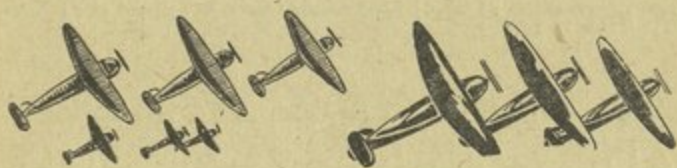
« ستانلى باى » ، وقت الظهيرة .. هذا البلاج صديق قديم .. حديثه لا يمل ، وشبابه لا يحول .. كنت برفقة الدكتور « محمد عوض محمد » .. وهو رفيق للسفر عظيم ، وصديق لكل الأيام ، جمع بين العلم والأدب ، فأناه الله اتزاناً فى الأفكار والآراء والأحكام ..

أراد الاستحمام ، فترك لى ساعته ، ومفتاح الكابين ، ونظارته . ما أطف الرجل الذى يلبس النظارة حين يبدو من غير نظارته ! إنه يبدو ضعيفاً وديعاً .. وقف الدكتور لحظات ليتعود فيها رؤية الأشياء التى حوله ، بغير عويناته . وصار يخطو يبط ، حتى لا يلحظ أحد ترده فى وضع قدمه ، فصار كالطفل فى أول عهده بالمشى .. فلاحظته مشفقاً مبتسماً ، لأننى رأيت فى ذلك الموقف نفسى .. ولم يلبث أن تقدم بخطى ثابتة إلى البحر .. ولم يلبث أيضاً أن استسلم إلى حضن الأمواج ببراعة فائقة ، فحمله بعيداً إلى ما وراء الصخور ، حتى غاب عن البصر ..

وسمعنا صفارة .. كانت بسيطة ضئيلة ، حتى إنى زعمتها « كلاكسون » صغيراً قد ركبته صبي فى قارب يلعب به ويمزح بين المستحمين .. ولكننى رأيت الانظار تتطلع إلى السماء .. ورأيت المستحمين يبادرون إلى الشاطئ والكابينات . إنذار غارة جوية !! ...

لم يجرع أحد ولم يملح .. كانت شيئاً أقرب إلى الدعاية منه إلى الجد . كانت كأنها جزء آخر من برنامج الموسم الصيفى ، واللعب على البلاج ، والتسلية . كانت إلى مقربة من فتاة طويلة سمراء ، موسيقية بارعة ، فى عينيها من سحر هاروت وماروت . فصليت فى قلبى ، فى تلك الساعة التى لا يعرف أحد قدره

فيها ومصريه ، لكي يحفظ الله عليها شبابها وجمالها ...
 وكانت أُمّى سيدة شابة ، جميلة أيضاً ، تحمل بين ذراعيها طفلها الرضيع ،
 ترضعه بحنان فائق .. وتسير به راحة وجيئة في حركة عصبية ، لتخفي اضطرابها ..
 تخيل إلى أنها تتمنى ، في تلك اللحظة ، لو شق صدرها وأودع فيه طفلها ، حتى
 تنجلي تلك الغمة ، وتنتهي تلك الغارة ..
 وسمعنا صفارة أخرى ، فهتف الأطفال ، وتراحم النساء والرجال على
 صدر الأمواج ، وتبادلوا نظرات العطف ، وزادوا حناناً ! ...



سيف نابليون ! ..

بعض الناس ، في هذه المحنة التي تعانيها الحضارة ، وتتصور منها الإنسانية ، يظن أن العالم سيخضع لرجل ظل سنوات طوالاً يحمّل شعبه أنواع الحرمان ، ليعد الحديد والنار . ولن يكون هذا الرجل بعض ما كان نابليون بونابرت ، الذي شيد إمبراطورية هائلة من فرنسا ، والبلاد الواطئة ، وبولونيا ، وأسبانيا ، وإيطاليا ، وألمانيا . فانتصاراته الهائلة ، التي لم يعرف مثلها في التاريخ ، قد انتهت بهزيمته ، وقضى بقية حياته على صخرة قاحلة في جزيرة نائية . ومع أن اسم نابليون قد اقترن بأعظم الإصلاحات التي عرفها الجيل ، فالدماء التي أراقها قد غطت على بعض هذه الإصلاحات بحيث أصبح اسمه مرادفاً للغزو والبطش . ومع أنه رفع يوماً اسم بلاده فوق جميع الأسماء ، فقد جعل منها بحجة الحرب غريمة أوروبا وعدوة السلام . لقد قتل مليونين من رجاله الفرنسيين وحدهم . فإذا قدرنا قيمة الرجال يومئذ وضعف استعدادات الحرب بالنسبة ليوما الحاضر ، لم نجد أنه سفك دماء أقل من عشرين مليوناً ، من الانتصار والاعداء جميعاً . ثم أضاع على فرنسا الحدود التي اكتسبتها الثورة ، بل إنه جعل انجلترا تنظر ، بعد مئة سنة ، بعين الحذر ، إلى الدولة التي أخرجت نابليون .

لا شك في أن فرنسا نفسها هي التي خلقتة وكونته ، وأزهرت فيها عبقريته . ولو أننا أردنا أن نجرده من طبيعة الزمان والمكان ، وفصلنا بينه وبين الظروف التي من حوله ، ونقلناه إلى إيطاليا أو النمسا ، لوجدناه ضابطاً تافهاً ! .. فلا يمكن إذن فصله عن بيئته ، أي عن فرنسا ، التي كانت تستطيع أن تستغنى عنه ، ولكنه ما كان يستطيع أن يستغنى عنها .

إنه أنخمها بالفتوحات والابحار ، حتى ضاق بالمجد صدرها ، وطلبت

الرحمة ، وسألت الخلاص .. كانت فرنسا ، رغم انتصاراتها العظيمة في كل ميدان ، بحاجة إلى الراحة .. كانت بحاجة إلى أن تضمد جروحها ، وتخفف دموعها ، وتقف سفك دماء أبنائها . لأن نابليون كان قد قطع أنفاسها ، وسخر في خدمة الحرب كل شيء : سخر الفكر ، والدين ، والأسرة ، والتجارة ، والمال .. كان نابليون في كل مكان ، يوماً في القاهرة ، ويوماً في موسكو ، ويوماً في شونبرون ، ويوماً في البندقية ! .. وجعل علم بلاده المثلث الألوان يخفق على كل الربوع ، وتهايه الآساد في الآجام ...

على أنه ترك وراءه ركماً هائلاً من الأشلاء ، وترك الدم يسيل أنهاراً ، وترك جرائم الحرب والدمار ترتفع في أوروبا ، وترك أكبر رجال الحرب بعده من الفرنسيين أنفسهم ينكرون كبريائه وغرامه بالسيطرة على العالم ، حتى إن « فوش » قال لتلاميذ المدرسة الحربية ، وهو يدرس لهم عام ١٩١٢ : « إن الحق هو الذي كسر حملة نابليون » ! ..

* * *

وها نحن أولاء نرى رجلاً آخر قد جاء إلى هذا العالم . وأراد أن يلبس قباء نابليون ويتقلد سيفه ! .. غير أنه لن يكون أشد من نابليون بأساً ، ولا أعظم منه تأثيراً وسحراً . وسينكسر حتماً رغم فتوحاته وانتصاراته . والذي سيكسره هو الحق .. لأنه ليس من حق أى رجل واحد أن يسود العالم .

[الأهرام : ٨ يونيو ١٩٤٠]



هؤلاء الإنجليز

سقطت أمس على مدينة لندن قنبلة وزنها طن ، وطولها نحو عشرة أقدام . وكانت من القنابل البطيئة الانفجار . فتلقوها بأشد الاحتراس ، وأخلوا الشوارع من طريقها ، وأسرعوا بها إلى المستنقعات ، حيث انفجرت ، فاهتزت من هولها الجدران ، وتمزقت الحيطان . .

كانت كاتدرائية سانت پول الجميلة ستذهب ضحيتها . . وكل الذين زاروا لندن ، وشاهدوا تلك الكاتدرائية ، أدركوا الخسارة الفادحة التي كان يمكن أن تمنى بها عاصمة بريطانيا ، لو أنها نسفت بتلك القنبلة الوحشية الطائشة . ولعلم شعروا بعرفان الجليل نحو أولئك الأبطال الشجعان الذين نقلوا تلك القنبلة المخيفة ببسالة نادرة . فما أشبههم يقوم يحملون الموت نفسه على أكتافهم ، ويتزهون به في عرض الطريق . . !

ومع ذلك من ذا الذي يزعم أن لندن ما زالت ، رغم هذه المحن الهائلة التي تجتازها ، هي لندن الباسمة الهادئة ، التي عرفناها في أوقات السلم ؟ ! من ذا الذي يتصور أنه يقرأ الإعلان الصغير الآتي ، الذي نشرته جريدة « التيمس » في صفحتها الأولى في المكان المخصص عادة للإعلانات « الشخصية » ، وهو من سيادة تحاطب سيداً ، وتذكره عهداً بينهما :

[توم . . . لقد انقضى ستة عشر عاماً ذهبياً . . . أسرع . . . اليوم عيد ميلادى . الشاى الساعة

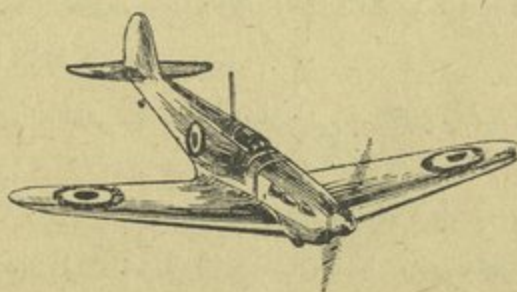
ج . . . ف . . .]

الرابعة والنصف

إذن فما زال في لندن معين لا ينضب من الذكريات ، ولا تزال فيها احتفالات بأعياد الميلاد ، وما زال فيها شاى يقدم ، وعهود تجدد . . ! أجل . . ! إن أشد أعداء الإنجليز لا يسعهم إلا الإعجاب بهم في ثباتهم

العجيب أمام هذه الفوهة التي فتحت عليهم من جهنم ، وحو لهم أشلاء انتزعت من قواهم الشيء الكثير : أشلاء بولونيا ، والتروبيج ، وهولندا ، والبلجيكا ، وفرنسا ، فرنسا الواقعة الآن مكتوفة اليدين ، حزينة في خجل ومذلة ، لأنها تخلت عن الجهاد ، وتركت حليفها وحدها في الميدان ...

وفي الساعة الرابعة والنصف من يوم عيد ميلاد السيدة « ج . و . ف » سيذهب « توم » ليتناول كأساً من الشاي ، في ركن من لندن ، ليحتفل مع التي قد تكون زوجته .. وقد يكون في الميدان ، فيذكر ، ويأخذ إجازة ساعة ، أو ساعتين ، بينما قنابل الألمان تتساقط كالطر ، لا تترك ركناً هادئاً . ولا كأساً صافية ، ولا قلباً خالياً .. إنها تتساقط لتقلب الركن الهادي . حمياً ملتها ، وتذيب في الكأس الصافية اللب المحموم ، وتترك القلب الخلى في حداد وشجن ! سننظر العام القادم ، في مثل هذا اليوم ، موعداً ، في إعلانات جريدة « التيمس » الشخصية ، لنقرأ دعوة « ج . و . ف » إلى « توم » ، لنرى هل زادت الأعوام الذهبية الستة عشر ، عاماً آخر .. أم أن رسل الموت قد صهروا بنارهم ذهب الذكرى حتى ذاب ، وأحل أيضاً محله الشقاء والعذاب .



سقوط باريس

كانت المذبةعة من راديو باريس ، يوم أمس ، كأنما قد سال صوتها المهتدج
الحنون دمعاً هتوئاً ، وهى تعلن : « إن الألمان على أبواب باريس !... »
ليست هى محنة باريس وحدها . فإن الإنسانية بأسرها قد انحنت أمس
على باريس ، بعطف شديد ، تشاركها أحزانها .

ليست باريس عاصمة فرنسا وحدها ، بل هى عاصمة العالم المتحضّر ، فليس
فى الدنيا ، من أقصاها إلى أقصاها ، بلد إلا وشهد بعض أهله باريس ، واستفادوا
من باريس بعض علمها وأدبها ، أو بعض ذكائها وفنها ، أو بعض ذوقها
وسحرها ... لأن باريس هى أزهى خلاصة لأرستقراطية الفكر والروح .

ولم يكن أولئك الجنود الفرنسيون الابطال الذين دافعوا بالأمس عن
باريس شبراً شبراً ، وبذلوا فى هذا السيل المهيج والأرواح ، لم يكونوا يدافعون
عن بيوت وأحجار ومساحة من الأرض . إنهم كانوا يذودون عن صميم الحرية ،
عن البلد الذى علم شعوب الأرض كلها معنى الحرية ، عن البلد الذى وضع
دستور « حقوق الإنسان » ، لجعل للإنسان حقاً ، وجعل للإنسانية حرية ،
وجعل للإنسان كرامة ووجوداً ...

لم تكن باريس مشغولة بإعداد الطائرات والدبابات لتعندى على سواها ،
وتدوس حريات العالم . كانت تعد سوراً هائلاً لحمايتها ، بذلت فيه مئات الملايين
من الجنهيات باسم « خط ماجينو » . كانت تبحث عن الوقاية ، ولا تعد
لجيرانها آلات الدمار والخراب والفناء . كانت تفكر وتبدع فى آيات جديدة
تحمل الحياة وتجعل لها طعماً . كانت تسير مع تاريخها القديم ، ومع تقاليدها
العريقة فى الخلق والابتكار لكل ما هو جميل ونيل . كانت تنظر من حولها ،
فترى عبقرية الإنسان قد تركت فى حجارتها طابعها الأبدى ، فعملت على

الاحتفاظ بآثار هذه العبقريّة ، وعملت على أن يظل شيوخها وشبابها خداماً للإنسانية ، يجمعون الكلمة ، كلمة العلم والحق ، ويبدّرونها في الأرض ، ويذكّون الشعلة المقدّسة الخالدة .

إن باريس هي معلبة البشريّة ، المعلبة الأولى ، يقصدها الناس ، من كل فج عميق ، للدرس والاقْتباس ، أو للتجارة والربح ، أو للعبث واللّهو ، أو ليعيشوا ويتمتعوا ملء حياتهم عيشاً سريعاً كاملاً ، في مفترق طرق العالم ، في مدينة النور ، فريسة النزوات والأهواء ، والشهوات العقلية والروحية والمادية ، فتمنح قصادها أقصى ما يريدون من صعود أو هبوط ، وتعلمهم كيف يكون صعود الدرجات ، وهبوط الدركات ...

باريس إذن هي عاصمة السياسة ، وعاصمة العلم ، وعاصمة الأدب ، وعاصمة الفن ، وعاصمة التجارة والمسال ، وعاصمة الذوق والجمال .. ولا يستطيع امرؤ ، مهما يبلغ من الشأن ، أن يثبت اسمه في لوح القدر ، إلا إذا شهدت له باريس ، وتبّنته باريس ، وفرضته على أبنائها الروحيين ، المختارين ، الممتازين ، الأوفياء ، المنتشرين في مشارق الأرض ومغاربها .

ستسترد باريس حريتها ، لأن العالم لا يستطيع أن يعيش بغير حرية . وباريس فؤاد العالم .. وقد ينتقد الأجنبي الذي يجهل الفرنسيين أهل باريس ، فيقول إنهم يسرفون في جهودهم الفنية ، ويبدّرون في قواهم الروحية ، بدل أن يكرسوا ذلك كله للمادية . ولكنه يجهل أنه لا بدّ للدنيا من شعب عظيم كهذا الشعب ، ومن مدينة عظيمة ، كمدينة النور ، تعبر عن حاجة البشر ، وتخلق ، وتبدع ، وتحرر ... ولعل الإنسانية مدركة عما قريب ماذا أدت باريس ، وأدى جيشها ، وأدى أهلها ، لتمجيد الحرية ، وجعلها أساس الأمة ، وجعلها قانون العقل ، وشرعية الفكر ... ولن تقوم للإنسانية قائمة ، والفكر عبد ذليل ، وسيظل عبداً ذليلاً ما دامت باريس ، أم الحريات كلها ، ترسف في الأغلال ...

[الأهرام : ١٥ يونيه ١٩٤٠]

إلى فتاة فى الريف

أيتها الأنسة....

إنك قد رحلت إلى الريف ، أو على وشك الرحيل ، اضطراراً ،
لا اختياراً... هجرت المدن المهددة ، إلى الأقاليم الآمنة . ولعل عزاءك الوحيد
عن هذا الحرمان أنك تأمين الليل ملء جفنيك ، وتستيقظين فطالعين فى
الصحف أنباء غارة على القاهرة وغارة على الإسكندرية !

إنك لست سعيدة بعد ، أو كما يقول المثل الفرنسى « لست فى صحنك » .
فما زلت على ما أنت فيه من أمان ، ساخطة متذمرة ...

أول ما ينغص عليك ، ما كنت قد ادخرته لأيام الصيف وليالى « البلاج » :
« جليم » ، « سيدى بشر » ، « ستانلى » ! . فقد أعددت أزياء بديعة من
المايوهات الضيقة ، والبيجامات الواسعة ، وما يلبسها من قبعة الشمس
العريضة ، والنظارات البيضاء الإطار ، الزرقاء الزجاج ، والحذاء الصيقى يكشف
عن قدمك الصغيرة ، ويربطها بخيوط رفيعة ، والمظلة الضخمة التى تنتقل ،
فتنتقل معها أفدة . وأعددت يا صديقتى المجهولة ، قبل هذا كله ، بشرتك لتمر
الشمس ، وعينيك للأمل المرجو ، وأعددت قلبك للخفقان ! ..

أنت ترين نفسك اليوم محرومة مغبونة . وأنت مخطئة ، إنك تحسدين على
ما أنت فيه من سلام مقيم وخير عظيم . وربما كان خيرك حقاً ، وخير بلادك ،
قد بدأ يوم سفرك إلى الريف ، الذى لا يعجبك لأول وهلة . إن فيه البعوض
الذى يلدع ليلاً ، والذباب الذى يضايق نهاراً ! .. وليست طرقاته ممهدة
بالأسفلت . وليست أنواره ثريات نعمة ، وليس فيه سينا .. وأسفاه ، ليس فيه
سينا ! .. وويلاه أيضاً ، ليس فيه تليفون أو توماتيكى للتسلية أحياناً .
والمعاكسة أحياناً ! ..

سينقصك هذا . وقد يضايقك أن الحياطة الأجنبية بعيدة عنك ، وأن
المزين الأجنبي غير قريب ، ومحالّ البيع والشراء ليست مكيفة الهواء ، أو حافلة
بآخر الأزياء . . .

ستجدين كل ماحولك بسيطاً متواضعاً . وهذا هو الدرس الأول . فإن
أحوج ما تحتاجين إليه ، أيتها الأنسة ، هو البساطة والتواضع . ستدركين أن
في الحياة أشياء أجمل وأروع من العجرفة والكبرياء ، ومن الغرور والظهور . .
سترين الفلاحة التي كنت تحتقرينها عن بعد ، ستريها عن كسب ، فتدركين أنك
كنت ظالمة في احتقارك ، وأنها هي الأولى بالتقدير والتبجيل . . إنها تحمل
الندى على رأسها من الصباح المبكر ، تملأ الجرار ماء من النهر ، وتقطع الماشية ،
وتتعهد الدجاج ، وتحضر لرجلها فطوره ، وتطحن وتعجن وتخبز في وقت
واحد . . ثم تحمل لزوجها طعام الغداء إلى الغيط ، وتركه ينام القيلولة ،
وترعى هي الغنم ، وتحرس الحقل أثناء ذلك . . ثم تعود فتحضر طعام العشاء ،
وتطبخ بامية أو ملوخية ، وقلبا تعرف غيرهما ، وما أكثر ما يكون ذلك من
دون لحم ، أو بلحم رخيص تافه . . وتظل طوال أسبوعها تضع البيض على
البيضة ، وتحلب الجاموسة أو البقرة جراً ، وتخض لبنها ، وتحفظ زبدها ،
وتربى دجاجها ، لتحمل ما استطاعت من هذا لبيعه في سوق البلدة . وتضع
القرش على القرش ، لتشتري لزوجها وولدها آخر الموسم قطعة قماش ، إذا
رأيتها أنت عليها ، أيتها الأنسة ، ضحكت ، وسخرت . .

تعلمين إذن كيف تحترمين هؤلاء الفلاحين ، الفقراء ، المتواضعين ، الذين هم
كنز هذا البلد وسر رخائه ، الذين ظلوا مخلصين للأرض الطيبة ، متفانين في
حبها ، أجديت أم أخصبت ، سواء أزادت ثمارها ، أم طال بوارها . .
تعلمين أيتها الخالية ، الفاضية ، الحائرة ، أن في الحياة المصرية الصميمة ، في
الريف ، ما هو أجمل وأنبل من لعب الأمواج ، وغزل البلاج . .

وهؤلاء الإنجليز

احتفلت الكلية الحربية بتخريج مئة ضابط .

وكان أمامى كتاب شائق لآندرى موروا عن : « محاضرات فى القيادة » ،
هو مناقشات متمعة بين فيلسوف وضابط . ولانى أحب أن ألقى بلمحة من هذا
الكتاب على هامش ذلك الاحتفال . فهناك رجال قد يمثلون إيماناً من كلبة
يقرأونها ، أحوار يشتركون فيه . ولما يقال فى هذا الصدد أن « سسيل رودس »
قد كون مشروع إمبراطوريته الأفريقية بينما كان يستمع إلى حديث « رسكن »
عن العظمة البريطانية فى جامعة أكسفورد .

إن حوادث الحياة والاستعداد الفطرى ، كليهما ، يساعد فى تكوين رجل
الجليش . مثال ذلك قيصر وبونابرت ، فقد كانت عبقريتهما الحربية ذات سبب
خفى بسيط ، هو أنهما يعرفان القيادة ، فللعبقريّة حرارة ، وللحالة التى قد يكون
عليها الوطن من خطر أو ظفر حرارة أخرى تشجّد الخيال وتخلق الاحتيال .
وكان نابليون يقول : « إن الخلق بغير ذكاء خير من الذكاء بغير خلق » . ولعله
يعنى أن الذكاء القليل إذا شغل قلباً حاراً ، يؤدى أضعاف ما يؤديه النبوغ إذا
شغل نفساً فاترة .

ولقد حدث فى إحدى حروب نابليون أن رأى نفسه أمام عدوين : أحدهما
جيشه ضعيف ، والآخر جيشه قوى . وكانت القواعد الحربية تقضى بأن يبدأ
بمهاجمة القوى . ولكنه لم يفعل . وبدأ بالضعيف فحققه . ثم عاد إلى القوى
فهزّمه . فلما سئل فى هذا قال : إنه بدأ بالضعيف ليوحد أعداءه ويضعفهم ، ويلهم
جنوده العزم ، ويلهمهم بخمر النصر ، وفى الوقت نفسه يطعم عدوه الآخر به ،
إذ يزعم أنه بدأ بالضعيف لضعفه ، فيستهتر به ، فيتغلب نابليون عليه .

والعلوم التي تلقن في الكليات الحربية تتطلب معيناً عظيماً من الخلق
والإرادة والصبر ، مع حسن التصرف عند تطبيقها في الميدان . لا بد قبل الذكاء
الخاطف كوميض البرق من جلد لا ينفد مهما ادلم الجو . لا بد من عناد
لا يعرف الفشل ولا اليأس ولا التسليم .

خذ اللورد كتشنر مثلاً . فهو من أروع النماذج لرجل الحرب . لم يكن
ذكاؤه مشتتاً ، ولكنه كان ، إذا ما أعد عدته ورسم خطته ، يسخر في خدمة قراره
إرادة كالصخر ، وبعد نظر كامل لأدق التفاصيل ، بحيث كان يندر أن يخفق .
لقد عرف كيف يعد ، في أناة وصبر ، عدة الانتقام لمقتل غوردون بيد
الدرراويز . فعمل على تكوين الجيش مع كبار ضباطه المصريين ، وتزويده
بخطام الجيوش الأوربية ونفايتها من الذخائر . ثم سار به في طريق ضيق صخري
كأنه قائم من أسنة الخناجر ، مع حفظ مواصلات المؤن والذخائر عبر الصحراء .
وكانت هذه هي بالذات الأعمال التي توافق طبيعة كتشنر وترضى مزاجه .
وأخرج القضبان التي دفنت في الأوحال والرمال . وعمل بيده على مد الخط
الحديدي ، راسماً المنحنيات ! . فلما تم ، أو كاد ، فاض النيل عليه ، وجرف منه
نحو سبعة كيلو مترات . فصرَّ على أسنانه ، وبدأ من جديد . وأخيراً تمكنت
القاطرة الأولى من المرور . وفي الوقت نفسه وصلت من إنجلترا سفينة مدفعية ،
اشتراها بما وفره من اعتماد الجيش المصري ، لتمكنه من إطلاق النار القوية
على أعدائه . فأبحر عليها مع أركان حربه ، وأمر بالسير بمحاذاة الشاطئ . . .
وهنا سمع صوت انفجار هائل . فإن خزان السفينة المدفعية ، قد انفجر . وقال
الضابط الميكانيكي إنه لا سبيل إلى إصلاح العطب ! . وعندئذ حكم الضباط
بأن كتشنر سوف يخرج عن حله ، وينفذ صبره ، ولو لأول مرة ! . وشاهدوا
عينيه كادنا تخضلان بالدمع . وشفته تدلت أسى ، وقد بادر بالزول إلى
« الكابين » . ثم خرج بعد خمس دقائق فقط هادئاً . وأمر بالرحيل ، والاستغناء

عن السفينة المدفعية ! .. وظلت هذه الحملة أكثر من عام . ثم قتل المهدي ومعه
عشرة آلاف درويش .. ودخل كتشنر الخرطوم . وكأنه ، في موكبه ، قد
قدّ من صخر كتمثاله الذي يشاهد الآن هناك ...

وفي بداية الحرب الماضية كان وحده ، من دون قواد الحلفاء جميعاً ، يعد
العدة لحرب خمس سنوات ، وعندما نادى بضرورة تجنيد ثلاثة ملايين جندي
إنجليزي ، سخر منه رجال السياسة .

ومع ذلك تحقق كل ما رسمه كتشنر . فلا شيء يقف أمام رجل يركّز كل
قواه لغرض واحد ، لأنه ينال نتائج عجيبة ، تبدو بعد ذلك كالمعجزات .
وكان كتشنر رجلاً ، وكان قائداً ...



شرقية غربية تتكلم

إلى عزيزى الدكتور ج . ف ، وحرمة السيدة د ب ،

كانت زيارة وفاء لدين قديم وود مقيم . . إنه بيت من البيوت القليلة التى أحبها . ربته : أعطاها الله كل ما تمناه المرأة لنفسها ، وكل ما تمناه الرجل للمرأة . لا يعادل كمالها إلا جمالها . لم تستطع شرور الدنيا أن تنال من قوة الخير فيها . بل كان انتصارها ساحقاً .

ما أسعد الساعة التى تقضى مع هذين الزوجين الصديقين وصغيرتهما ، تلك الصغيرة التى أصبحت فتنة بحسبها الآسوى العجيب ، وأصبحت فى سنتها السادسة « غندورة » ، أبت أن تدخل للسلام على قبلما تبدل ثوب لعبها ، فتلبس فستاناً بهيجاً من الحرير بلون الذهب . فكأنها أمبراطورة طفلة ، ينتظرها عرش من عروش الصين .

تحدثنا عن لندن وشجاعتها واستبسالها فى الدفاع عن حوضها . . وقد عرفنا لندن ، لأنها لها مدينة شهور العسل . وقد شهدت أجل سنى حبهما . وقارنا بين مقاومة لندن واستسلام باريس . فقد عاشا فى المدينتين زمناً . وكلاهما - الزوج والزوجة - من أم أجنبية وأب مصرى . فكيف إذن تطور الحديث الذى أدى إلى هذا المقال ؟

قالت السيدة : إن ما أصاب أوروبا هو مقياس خلقها . فهى اليوم تحصد ما زرعت . وسيكون الثمن فادحاً كلما كان الإسراف فى الترف والرفاهية عالياً . إن الحياة ليست الاستهتار والاستمتاع ، ولكنها الجهاد والاعتدال . وخير ما فى الحرب الحاضرة بالنسبة إلينا أنها ستعلمنا ضروباً من الحرمان ، ترتفع بها كرامتنا ، وتزدهر حيوبتنا ، وتقوى قوميتنا . . فإننا ضعاف الوطنية . ولسنا

شديدي التعصب لبلادنا بالقدر الذى ينبغي أن يكون .

لقد علمتني أسفارى العديدة ، ومقامى الطويل بأوربا ، أن أزداد لمصر حبا ، وبكل ما فيها تعلقاً . . حتى العيوب أشعر أنها ضرورية ، إذ تحملنا على النضال لملاقاتها والتغلب عليها ، وفي هذا مران لإرادتنا وخلقنا ، وامتحان لوطنيتنا واستعدادنا .

ولقد سمعت ، منذ أيام ، صديقة لى تفخر بأن لديها مربية أجنبية لأولادها . فعارضتها ، وأنكرت عليها زهوها . وقلت لها : إننى لا أسمح لنفسى كمصرية أن أرى أية مربية أوربية أصلح لولدى منى . كيف أكون أما ؟ كيف أرضى بأن أكون أما وأنا أعترف بأننى دون مربية أجنبية ؟ ! إن هذا الشعور الخاطيء الدليل هو ميراث عتيق ، وراثته قبل نهضتنا ، بوهم أن كل ما هو أجنبي أصلح من كل ما هو مصرى . وإذا كان أبى قد تزوج من أوربية ، فإن زوجى لم يفعل ، ولن يفعل ولدى ! فمن كان له عذر بالأمس فقد تلاشى اليوم عذره . وإن حياة الغد عقب الحرب الحاضرة تكون حياة مصرية خالصة ، كلها كرامة ، أعنى : كلها اعتزاز بالقومية .

فنقلت بعض حديثها الشائق ، حتى لا أكون أنانياً . . أما نعمة حديثها ، وحرارة صوتها ، وروعة يقينها ، فقد حظيت بها وحدى .



عاد إلى الشرق ...

أذنت ساعة الإفطار بتناول فنجان من الشاي . فقد كان الحر لا يطاق . وكنا قد جئنا لالنا كل ونشرب ، بل لتحدث . إنها صداقة قديمة طاهرة بين رجل وامرأة ، جمعتهما يوماً ما مدينة جميلة ، يقال إنها كانت أجمل مدن الدنيا . ولما تصالحا لاحت لهما ، في وقت واحد ، أنوارها التي تبهر العيون ، وفنونها التي تسحر العقول ، فبدت لهما حياتهما فيها كما لو كانت حلماً جميلاً . وهما الآن يرزحان تحت كابوس ثقيل . إن القطة مزججة .

هاتما ذان قد اجتمعا اليوم ، ليتعزيا بالذكرى ، ويشغلا عن الحقائق بالأحلام ...

ما أجمل هذا البيت الصغير ! وما أشد أناقته ! كل ما فيه ذوق وروح . هنا تمثال صغير ، على المصطلى ، من صنع الفنان النابغ « عبد القادر رزق » ، يمثل « بنت بلد » منطوية على نفسها في ملامتها اللف . وهنا وهناك لوحات بلدية أخرى لبنات ورجال : هذا بشال أحمر ، وهذا بكوفية بيضاء . وفي ركن آخر « أناطول فرانس » ينظر بعينه الساهية ، التي كانت ترى كل شيء ، وتنفذ إلى أعماق القلوب ! ..

هنا اجتمع شرق وغرب . بيت آنسة شرقية تربت في أوروبا ، واقتطفت زهور الثقافة اللاتينية ، واحتفظت بكبريائها الإسلامية التقليدية ، وراعت حرمة وطنها ، فلم تتزوج بأجنبي ، ومع ذلك ما كان أكبر الفرص أمامها ! .. وهي لذلك تستنكر زواج المصري بأجنبية ، ولا تغتفره . وترى أن العزوبة خير منه . أما الذين سبقوا إلى ذلك ، من عشرة أو عشرين عاماً ، فلا ذنب لهم .

كانت تتكلم ، وأنا أفكر في أن حرية فكرها ، وانطلاق روحها
عن قيود ارتضيها جميعاً لأمهاتنا ، قد لا يستسيغها كثير من الناس . بل
إن السطحيين والبعيدون عن الاختلاط بها قد يسيئون تأويلها . ولكنها
رمز هذا الجيل المعذب ، الحائر ، من الجنسين ، الذي تربى في الغرب ، وعاد
إلى الشرق ، يريد أن ينهض به ، ويسعده ، فيشقى فيه ...



ثم هؤلاء الإنجليز

توقظنا صفارات الإنذار أحياناً في الليل ، فسمع صوتاً محزناً خفيفاً ، أشد
إيلاماً وإزعاجاً للنفس من عواء الضبع الجائعة في الصحراء ، وهو الصوت الذي
اصطلحت عليه الإنسانية للنواح على أبنائها ، وراثتهم ، وتحذير بعضهم من
البعض الآخر ، وإنذارهم .

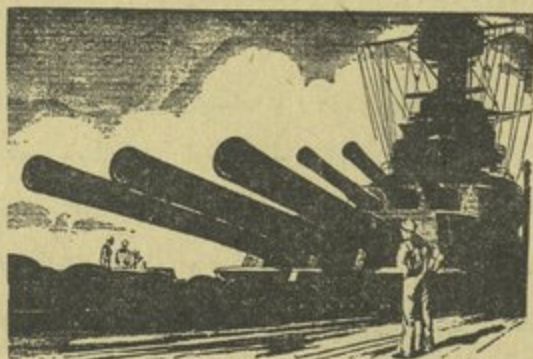
استيقظت في إحدى الليالي ، فسمعت الأبواب والنوافذ بعضها يفتح وبعضها
يغلق ، وسمعت حركة وهمساً ، وسمعت الأيدي والأرجل تتخبط في الظلام ،
وتتعثر في الأثاث . ورأيت كيف تكون لطفة الأم على أولادها ، وقد أيقظتهم
وهي حائرة ، لا تدري هل تبقى في دهليز البيت المظلم المعرض للأخطار ، أم تخرج
بهم في عرض الطريق إلى أقرب مخبأ ، وتعرضهم للفتح الهوائي ! ما أصعب وظيفة
الأم ، وما أجملها ، وما أطولها ! ... إن كل دقيقة منها تساوي كل ما يبذله
الرجل من عناء طول عمره ! ..

لا أدري كيف انتقل فكري في الحال إلى لندن ، عبر الصحارى والبحار
والجبال ، بأسرع من وميض البرق ، فوصل إلى الجزيرة الباسلة التي لي فيها
أصدقاء قداماء ، لا يذكروني الآن بالطبع ، أما أنا فأذكرهم ، وما زلت أحبهم .
كيف هم الآن ؟ إن قلبي يطفر جزعاً عليهم . هؤلاء الذين اختاروا اسماً هندياً :
« راحة جاي » ، للقبلا الجميلة البسيطة التي يسكنونها في ضواحي لندن . أما الأب
فيعمل منذ ثلاثين عاماً في محلات « سلفردج » الهائلة ، التي أصابها بالأمس قنابل
الألمان . وأما الأم فهي متعلقة بكل ما هو شرقي ، تهيم به حباً . وأما البنت
الكبرى فقد عرفت في باريس نموذجاً للخلق الإنجليزي المتين . وأما الصغرى

فهي آية الفتنة والمرح ، أو على رأى أختها ، لو أمسك محبوبها حبلا ، لما كان
للحبل أول ولا آخر ! ..

تذكرت الشاي الذي أعدوه لي ، ثم النزهة الطويلة في الحقول والمروج ،
ثم العشاء الفاخر ، والموسيقى الشجية ..

أين هم ؟ وكيف هم الآن ؟ إن من لم يزر لندن ، ويعش فيها شتاء ، يستحيل
عليه أن يتصور شجاعة هؤلاء الإنجليز ! إننا كنا في غرف النوم ، والنار تتأجج
في المصطلى ، وعلينا بطاطين وبطاطين ، والبرد مع هذا كله يلتهمنا التهاماً ! ..
كيف يعيشون الآن تحت الأرض في سرايب ، وخنادق ، ومخاني ، لاذفء
فيها ، ولا طعام ، ولا راحة ، ولا ذرة من الهدوء والاطمئنان ؟ !
أجل ! .. كان لا بد من رسل الموت ، لنعرف رسل الحياة ! ..



شيخ يتكلم

وقف أمس شيخ في السابعة والستين يتكلم باسم الإمبراطورية البريطانية ، يتكلم ، ويتحدى ، ويهدد أعداءها بحرب تهول وتطول حتى تشهد ١٩٤٣ و ١٩٤٤ .. وإذا قال ذلك « ونستون تشرشل » ، فيجب أن يصدقه العالم ، فإنه أبعد ساسة الإنجليز نظراً ، وأصفاهم بصيرة ، وأشداهم إحاطة بالمعلوم والمجهول من السياسة . إنه يمثل أعظم فضائل جنسه . وقد ظل سنوات عديدة ينذر بلاده ، يوماً فيوماً ، بكل ما وقع الآن . ف منذ ١٩٣٠ حتى إعلان الحرب الحاضرة ، وهو يكتب ويخطب في الشؤون الخارجية . وعندما تولى النازي الحكم في ألمانيا عام ١٩٣٣ ، كان تشرشل أسبق ساسة أوروبا تنبؤاً بالأخطار التي ستجهم عن ذلك . فراح يحذر بلاده ، ويحفزها على زيادة التسليح . لا سيما في الجو والبحر ، وتوقع ضرب المدن الآمنة بالطائرات ، واندفاع الرجال عندئذ للنضال ، دفاعاً عن يرونها صرعى حولهم من النساء والأطفال . ويرى كذلك أن سلاح الغواصات لن يكون قاطعاً أو حاسماً ، رغم ما قد يكبده من خسائر ، فأوصى بتجديد الأسطول البريطاني وتسليحه ، وتجهيزه بأحدث المعدات ، وآخر المخترعات ، للهجوم والدفاع ، مع إنشاء قوى بحرية أخرى تكفل للأسطول حصر أعداء بريطانيا ، وضمان حرية تجارتها وانتقال جيوشها في عرض البحار . فأخذت الحكومة البريطانية ، آخر الأمر ، برأيه ، وقررت ذلك عام ١٩٣٧ . وابتهجت الدول المحايدة بذلك ، حتى التي كان مفروضاً ميلها للألمان كالسويد ، فصرح وزير خارجيتها ، المستر ساندلر ، بأنه يرى في ذلك البرنامج البحري الجديد للتسليح ، عدة جديدة ، للسلام .

أجل ، لو استمع الإنجليز للمستر تشرشل ، ما وقعت هذه الحرب . كانوا

يزعمونه مسرفاً في التشاؤم . واتهمه الدكتور جوبلز بالوقية بين بريطانيا وألمانيا . فرد عليه تشرشل بالأرقام ، وفضح الميزانية السرية للتسليح الألماني ، وكانت مليار جنيه في السنة (ألف مليون جنيه) !! . كذلك نبّه حكومته إلى قوة ألمانيا الجوية الهائلة ، ونهبها إلى الطابور الخامس في لندن ، المكون من عشرين ألف ألماني .

وها هو ذا اليوم في محيطه الذي يحبه ، محيط المخاطرة والمغامرة . فهو طول حياته رجل كفاح ، يبحث عن معارك طريفة . كان في شبابه جندياً وصحفيّاً . اشترك في حروب قارات أربع ، من جنوب أفريقيا ، إلى أمريكا ، إلى الهند ، إلى أوربا . وطبعه « الدبناميتي » يتفجر في السياسة بقوة وبأس يروع خصومه . وقد اتخذ الآن عدته ، وعرف أين يضع عداوته . . .

فلنتنظر منه المعجزة ، معجزة كسب الحرب .. أي نخر أعظم من أن مصير الامبراطورية كلها ، ومصير دول عديدة معها ، قد أصبح في يده ؟! . . .



يعيش في الماضي !..

رجل يعيش بغير قلبه ، دفنه واستراح ، دفنه في ذكريات الماضي . لم يعد يعنيه من حياته « اليوم » ، بل « الأمس » . أمس عاش وهو أمين لهذا العيش ، فاخفى حاضره ، وانطوى بانطواء شمس الأمس الغاربة . وهو لو أراد اليوم أن يتجدد ، وأن يعيش من جديد ، لما استطاع . لأن الحياة ليست من طبعه وخلقه . وهو قد يكون وفيّاً لغير وفي . هو لا يسأل الطرف الآخر وفاء ، لأنه يعلم أن من طبيعة الزمن التحول ، ومن طبيعة المرأة التغير . فهو وفي الآن لا لشخص ، بل للوفاء نفسه ، ولذا كرى . فقد اختفت المرأة التي كانت جميلة ، ساحرة ، خلابة . وحلت محلها آية فاتنة ، وبمجموعة نادرة من الذكريات . فكأنه اليوم يعيش في متحف . قد ينكر الناس جموده ، ويعيون عليه انفراده ووحشته ، ويعزون ذلك إلى كبرياء فيه ، أو انكسار منه . وهو مع ذلك يعتقد أنه الآن الظافر ، المنتصر ، السعيد حقاً ، لأنه يعيش مع ملاك الذكريات عيشاً نقياً ، خالصاً ، متجرداً عن المادة ، متحرراً من العبودية أحياناً ، ومن السيادة أحياناً .

هل يستطيع رجل ، فعلاً ، أن يعيش في الماضي ملء حياته الحاضرة ؟ هل يستطيع أن يبلغ من السعادة وهو منفرد بمقدار ما بلغ يوماً وللروح شقيق ؟ هل يستطيع أن يرى من كان يوماً كل حياته ، يروح ويحيى أمامه ، ويبسم لغيره ، ويضحك لسواه ، ويتحدث ، ويلعب ، ويرقص ، ويأكل ، ويشرب ، ويطالع ؟ .. أشياء كلها كانت له وحده ، من دون الناس جميعاً . ثم ينظر إليه كما لو كان شبحاً ، أو خيالاً لذلك الملاك الذي يعيش في قلبه ، ملاك الذكري ؟ كيف أفسر ما أريد أن أقول ؟ هناك أشياء تصغرّها الكلمات وهي علوية ،

توجد أشياء لا يجوز أن نرسمها بالكلمات ، لأننا إذا حاولنا ذلك ، كنا كمن
يقرب الصلاة وهو سكران . توجد أشياء يجب أن نشعر بها شعوراً صادقاً
أميناً ، ولا ندنسها بالحبر على الورق ، أو باللسان .

رأيت هذا الماضي الجميل في عيني صديق ، فقلت :
— سأستمد من بريق عينيه اليوم مقالاً . . .



الرجل الجديد

دار ، قبيل الحرب بيضعة أشهر ، البحث عن الرجل الجديد ، لأن الرجل القديم قد بطلت « موضته » ، وفسدت عقليته . رجل جديد مشبع بالوطنية التي لا تتعارض مع الإنسانية ، وبالسلام الذي لا يتغذى من الحروب ، وبحب الرخاء الذي لا ينجي عن طريق الاعتداء ، وبالخلق قبل العلم والمعرفة .

اجتمع ، في ظل جبال السويد الجميلة ، نحو مئتي أستاذ وطالب ، ينتسبون إلى خمس وعشرين جامعة من أعظم جامعات العالم . فماذا كان يشغل تلك العقول المفكرة ، التي جاءت من أقصى أنحاء الأرض ، لتجتمع في البلاد التي تشرق فيها الشمس في منتصف الليل ؟ لم يكن ذلك ليعجبوا بحال الطبيعة الساحرة ، وإنما ليحرروا القوى البشرية من ضروب الحقد التي تدفع بها إلى الدمار . فإن العالم مشغول منذ أمد طويل بتحسين وترقية كل ما هو مادي وعلمي ، ومهمل كل ما هو إنساني . . العالم مشغول باستمرار في إخراج آلات جديدة للعمار أو الخراب . في حين أن إخراج رجل جديد ، إبداع نوع جديد من الرجال ، هو الذي تحتاج إليه البشرية الآن ، أكثر من أي شيء آخر .

ولعلك تزعم أن هؤلاء الجامعيين قد تمنوا مخلوقاً حاد الذكاء ، متوقد الذهن ، ثاقب الفكر ، على أساس من التعليم مكين .

والواقع غير ذلك . فقد لاحظوا ، على الضد من ذلك ، أن الجامعة لم تمنح إلا بالذكاء ، وأنها كانت جد مخطئة ، حتى اليوم ، في أن تعمل على تكوين الذكاء وتدعيمه وتوفيره ، في حين أنها تهمل العواطف ، وتجاهل البدن .

وهم لا يبحثون عن طراز متعلم جديد ، وإنما عن طراز جديد لرجل متزن ، تتوافر له الإرادة والعاطفة والخلق ، تتوافر الذكاء . . طراز رجل قوى ، حر ،

لا يخاف ، ولا يحجم عن حمل المسؤوليات ، ولا يتأخر عن العمل بالتعاون مع غيره من الرجال .. رجل يحب بلاده ، ويطيع الله ...

للجامعة ، وللجامعيين ، إذن ، رسالة غير الاندفاع في المادية .. وللجامعة أن تعلم ، ولكن ليس لها أن تهمل الخلق .. فإن هذا الإهمال يؤدي إلى عدم التوازن في حياة رجل المستقبل ، فيصبح في الحياة بغير هدف ولا رسالة . وإنه لا يكفي لإخراج « متخصصين » ، أو « إخصائيين » ، أو تكوين ذوى الذكاء المرفه . وإنما ينبغي ، قبل هذا كله ، تكوين مواطنين شجعان ، وزعماء مخلصين ، لهم كل صفات الرجولة .

وهكذا اجتمع الجامعيون عند هذه الرغبة الإنسانية والقومية معاً ، ووقع منشورهم خمسة من بينهم ، يمثلون جامعات : أوسلو ، وكوبنهاجن ، وسانت أندروز ، وأكسفورد . وكانت خاتمة منشورهم تناشد الأساتذة ، وتذكرهم بواجبهم : من ضرورة معاونة الطلبة على الوصول إلى المراكز التي يستخدمون فيها كل قواهم ، لتأدية أكبر خدمة يستطيعونها لبلادهم وللعالم . وبذلك أيضاً يصبح للجامعة نصيب عظيم في إعادة تكوين خلق الأمة ، والنهوض بروحها المعنوية ، وتدعيم مكائنها ورسالتها بين الأمم .



عروس النيل ! .

نظرة إلى يوم أمس ، منذ بضعة آلاف عام ...
النهر المقدس ، حارس الوادى ، قد آن له الوفاء ...
الشعب ، والزرع ، والضرع ، ينتظر منه الثمن والرخاء ...
النيل نائر ، تحولت مياهه السمراء إلى حمراء . حملت من جنبات الوادى ،
من أقصى المنبع ، فى قلب أفريقيا ، الطمى كالتبر ..
أمواه تقور ، وتغلى ، وتضرب الشاطئين .. كأن النيل قد طال انتظاره ،
ونفذ صبره ، وتطلع طويلاً إلى وفاء بنى آدم ، مرة واحدة فى العام ، لينفى هو ،
ويجود ، طول العام ...

البلد كله حائر .. من هى العذراء الموعودة هذا الموسم ؟ .. من هى التى
ستفتدى بنفسها بلادها ؟ .. من هى تلك الموعودة بأن يضمها النهر المقدس
إلى أحضانه ؟ ..
من هى الاصيله ، الكريمة ، التى ستكون عروس النيل ، الاصيل ،
الكريم ؟ ..

وجدوها ! .. هذه الكاعب الحسناء ، العذراء ، البتول ...
كان خدرها يطل ، من كوة صغيرة ، على خليج طويل ، ضيق ، متعرج ،
يستقى منه الناس ، ويسبح فيه الأولاد ، ويفرق فيه الأطفال أحياناً ..
كانت تملأ جرتها عند الفجر ، كأنها فجر آخر ، يكسف بزوغ الشمس ! ..
قالوا : هذه هى العروس المنشودة ..

فراحت تجرى ، وقد كسرت جرتها ، من لطفها ، وارتمت ، وهى تلهث ،
فى حجر أمها العجوز العمياء ، التى كانت لها كل العزاء .. فمسحت الأم دموع

بنتها بشفتيها وهي تقبلها . وانضمنا بقوة ، حتى صارنا جسداً واحداً ، كأنه
يتحدى فرح الشعب ، الذي هو فرح الموت ! .. وأخذوها قسراً ، فاستسلمت
للمصير .. هذا هو القضاء المحتوم .. فأين المفر ؟

قالت لها أترابها ، وهن يُتَفَنَّ في تزيينها ، ويبالغن في تجميلها ، وتزويدها
بالأساور والقلائد : « أنت تحسدين ! .. أنت عروس النيل ، مصدر الخير
والبركات للبلاد .. أنت القربان المختار .. أنت حبيبة الإلهة إيزيس ، ! ..

كان قدّها المياس ، كالغصن ، ينكسر ، وهو بحاجة إلى يد تسنده .. كان
شعرها كالليل الخالك ، ووجهها كالنور الساطع .. كان في قسبات وجهها من
سحر هاروت وماروت .. وكان في بريق عينيها سيف يصيب القلوب
بالحزن والحب ! ..

وفي موكب عظيم زفت العروس إلى عروسها .. ثارت أمواجه ، وفارت ،
كأنها أذرع هائلة قد انضمت على هذا الخصر ، النحيل ، الواهن ، فهصرته بقوة ،
فارتمت الغدراء في أحضان الماء ، في إغماء ..

وفارت المياه مرة أخرى ، وثارت ، وهاجت ، كأنها تعلن عن سرور
النهر ورضائه ...

وفي الغداة طلعت الشمس ، ورد النيل الجميل وفاء بوفاء ...



الشرق في الغرب

كانت الدعوة إلى العشاء في شارع الشانزليزيه — أجمل شوارع الدنيا غير منازع — على بعد دقيقة واحدة من مكتب «الاهرام» الباريسي، وعلى دقيقة واحدة أيضاً من قوس النصر وساحة الايتوال .

فاجتمعنا في الصالون المشرف على منظر منقطع النظير ، والساعة الثامنة مساءً ، والشمس قد بدأت تغرب وتصبغ الدنيا بأعز ماتجه الدنيا .
«الذهب ، والدم»

كنا نحو عشرة أو أكثر من عشرة ، جثنا من كل أنحاء الارض : من الحجاز ، ومن الهند ، ومن العراق ، ومن سوريا ، ومن لبنان ، ومن إيران ، ومن المغرب ، ومن مصر ..

جثنا لأغراض عجيبه متنوعة متباينة .. تركنا بسببها بلادنا البعيدة .. لا أظن أن اثنين منا جاء لغرض واحد !

ولكننا في ذلك المساء اجتمعنا لما لا يختلف فيه اثنان .. وهو تناول الطعام . كانت الدعوة قد وجهت إلينا من رجل فاضل ، فذ في فضله ، لا أكرمه بهذا المقال ، وإنما أكرم مقال .

هو الحاج محمد زينل على رضا . تاجر لؤلؤ ، وخادم علم !

وكانت لوحات الصالون مقصورة على « من صبر ظفر » و « عز من قنع » ، ذل من طمع » و « كشف الدرهمي يعماله » .. ثم اسم الله .. ثم اسم الرسول .. ودخل علينا الحاج زينل ، فبادلناه السلام . ثم سألنا : « تجمعوا وتقصروا ؟ » . أما أنا ، وبعض من كان معنا ، فقد تبادلنا النظرات متسائلين عن هذا الجمع والقصر ؟ ! وهل هو « فاتح شهية » يسألوننا هل يقدم مع

الطعام أو قبل الطعام ؟ ولكن الحاج زاد بعد ذلك تفسيراً ، فقال : من لا يجمع ويقصر فليفضل إلى صلاة العشاء ، . . . فذهب من ذهب معه ، وبقينا نحن — وكنا على غير وضوء — فيمن يجمع ويقصر ويصلي ما يفوته سحابة النهار في أول الليل . . .

إنه تاجر لؤلؤ من أشهر تجار العالم ، وتجارته تمتد من البحرين ومياه الهند والخليج الفارسي إلى باريس ولندن . وله مكتب ومسكن في بومباي ، ومسكن في جدة ، وأسرة كبيرة مشهورة ، عريقة في تجارتها ومكاتها ، وله مكتب ومسكن في باريس ، وله مكتب في لندن ، وهو لا يستخدم في السفر إلا الطائرة ، ويقطع العالم شرقاً وغرباً على أجنحة الهواء .

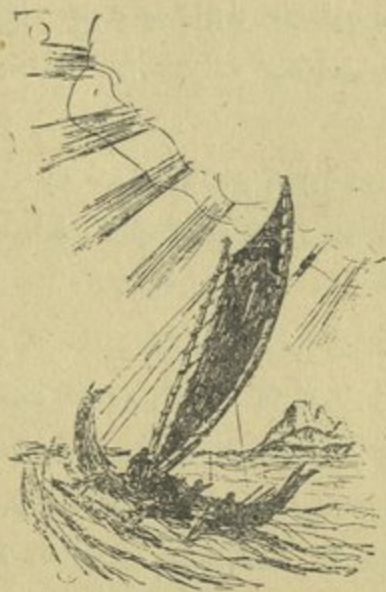
وهو فنان بارع . فليست تجارة اللؤلؤ عملاً مادياً بحتاً . إنها فن رفيع . فاللؤلؤ تجارة عزيزة المنال . إنها دراسة عميقة للحجم ، واللون ، والوزن ، والضوء .

وإذا قلت اللون فإنه عشرات الألوان ، وإذا قلت الضوء غنيت مئات الأضواء التي تشع من تلك الآلة العجيبة ، التي تستخرج من قاع البحر لتحلي تجوّر الحسان !

في مياه الهند ، وفي الخليج الفارسي ، يغوص الغواصون المخنكون لصيد اللؤلؤ ، معرضين أنفسهم للموت من أخطار سكان البحر ، ذات المخالب ، وذات السموم ، وذات السهام ، ومن أخطار الموت اختناقاً . . . فيخرج اللؤلؤ بعد جهاد ، ويصقل ، ويفرز ، وينظم ، ويوزع على الجهات الراغبة فيه ، بعد درس طويل ، مع ملاحظة حالة السوق ، ودرجة الطلب . .

منذ عشرين أو ثلاثين عاماً يعمل الحاج زينل في هذه التجارة البديعة ، المرهقة ، التي لا تدع له أحياناً وقتاً للطعام ، وإن تحتم أن تدع له وقتاً للصلاة .

فهو رجل يعيش بالله ، والله ، كل ما يأخذه من تجارته ينفقه على خدمة العلم
والدين . فهو أول رجل أسس في الحجاز شيئاً اسمه « مدرسة » . واليوم يستحيل
أن يذكر العلم أو الدين ، في تلك البقاع المقدسة ، إلا مصحوبين باسم هذا
الحاج الفاضل الكريم ، الذي لا ينسى صلاته في باريس ، ولا يخلف ثيابه
الحجازية في لندن ، ولا يريد من البحر أو البر إلا كلمة المعروف ، وصنع
الخير ، ونشر العلم ، وأدب الدين ، وأداء فرض الله ! ..



في وطنه الروحي

دعوه يحلم !

لا تقطعوا عليه أحلامه ! ..

إنه يحلم بألوان جديدة من العلم والفن والجمال . إنه الآن في جوه ، في جنة العقل ، في وطنه الفكري ، في أرض روحه ... طال حنينه إليها ، إذ طال بعده عنها . . إنه الآن فيها منفرد وحيد ، ومع ذلك كل من حوله أحبابه . أليس هذا بلد الحرية ، وهو في بلده مقيد أسير ؟ ! أليس بلد النور ، وقد كان يعيش في شبه ظلمات حالكة من ذكرياته وآلامه وأحزانه ؟ ! أليس البلد الذي يحنو على الغريب ، وقد كان في بلده غريباً ؟ !

دعوه يحلم ! .. إنه في حاجة إلى حلم طويل جميل ، ينسبه الجهاد المادى المضنى في سبيل مواطنيه ، في سبيل تحقيق مثل أعلى ، في سبيل السمو بالذوق والفكر . فهو يريد الخروج من الدنيا لاله ولا عليه . . يريد أن يعيش للخير المحض ، يعطى ، ولا يأخذ ، ويمنح ، ولا يسأل .

إنه أعطى ، ويعطى ، حبات قلبه ، كل يوم حبة ، حتى شعر بالقرع الهائل في قلبه ، فأراد أن يعمر قلبه ، ويغنم له حبات جديدة ، ليسعد بها بعض النفوس المحزونة ، ويعمل بها بعض النفوس الشقية المحرومة في بلاده ! .. وهو يحب تلك النفوس المجهولة المنزوية في عقر دارها ، تقرأ له أحياناً ، دون أن يعرفها ، وإن كان دائماً يشعر بها من حوله . وهو كثيراً ما يكتب لأجلها وحدها . وهو الآن في وطنه الروحي يذكرها ، بل إنه ليس في هذا الوطن إلا لخدمتها . هذه النفوس العزيزة التي إذا لم تمل الهناء المطلق في هذه

الدنيا ، فقد يكفيها عزاء ، بعض العزاء ، أن نفوساً بعيدة عنها تذكّرها ، وتمنى
لو أتاح لها الدهر أن تسعدها .

دعوه يحلم لكم ولنفسه ، لا تقطعوا عليه أحلامه ! .. إنه الآن في وطنه
الروحي ، ولكنه أشدّ قرباً إلى وطنه الأصليّ ، وأكثر حباً لمواطنيه . . لأنه
لم يذهب إلى أغوار هذا الكنز العميق ، البعيد ، النائي ، إلا ليغنم بعض العزاء
للفؤوس الحزينة ، وبعض الحرية للفؤوس السجينة ، وبعض النور للفؤوس
السكرينة الآلية ، التي تعيش ، على رغبتها ، في وطنه ، في الظلام ! ..



للتاريخ...

نشرت صحيفة « بلجيكا الحرة » دراسة تحليلية عن قصب السبق في الحرب ، ودور الذهب الفاصل في ذلك . . ونوهت بما قالته جريدة ألمانية مشهورة هي « دتشر فولكسفرت » من « أن أهم عامل في أداة الحرب هو الذهب » . . وراحت تحلل مدى ما تستطيعه حكومة الرايخ وحليفتها إيطاليا في هذا السبيل ، ومقدار حاجتهما إلى المال ، في حين أنهما تهددان العالم بالحرب منذ عام ، حتى أحرقتا أعصاب الناس في أنحاء المعمور . فإن ألمانيا في حالة الحرب لاغنى لها عن الذهب ، إذا أرادت أن تشتري من الخارج ، لا المعادن للذخائر فقط ، بل كمية كبيرة أيضاً من المؤن والزاد للبطون . فإنها ، برغم جهادها الرائع ، وعملها المتواصل ليل نهار ، لاتزال مضطرة إلى استيراد نحو عشرين في المئة من المواد .

وفي الكتاب الذي وضعه الكاتب الألماني « فريتز ستيرنبرج » ، بعنوان : « كفاية ألمانيا الحربية » ، إحصاءات طريقة تدل على تنظيم حملة « عدم مل البطون » ، حتى أصبحت قلة التغذية جزءاً من برنامج الحياة الألمانية . وعملت في هذا السبيل دعاية واسعة النطاق ، تفضيلاً للقنبلة على الزبدة ، وللمدفع على اللحم ، حتى لقد صرح الدكتور « ورتنر » ، الخبير الطبي لحزب النازي ، بأن كل من يملأ معدته باللحم والشحم يضاعف احتمال الفسبة بين المحصول والاستهلاك ، ويعد خطراً على الاستقلال الغذائي ، وعلى سلامة البلاد .

ولا نزاع في أن قلة النقد ، وعدم المقدرة على الدفع فوراً ، مما يخرج الدول غير المستعدة . ولسنا ندرى مدى ما يقال في هذا الصدد من الصحة عن ألمانيا ، من أنها تستبدل بترول رومانيا بمستحضراتها الطبية ، وترسل إلى شركة بترول

في أمريكا خمسة ألف آلة موسيقية ، هارمونيك ، بدل صفائح الغاز ، بل
إنها أرسلت — وهو ما لا يكاد يصدق — أفراس البحر (سيد قشطه) إلى
شركة فيلادلفيا ! . . .

ولكن مهما قيل في هذا ، وبولغ فيه ، فمن المحقق أنه عند إطلاق الرصاصة
الأولى ، لا يمكن أن يشتري الحديد ، أو النحاس ، أو القمح ، أو البترول ،
بالمستحضرات الطبية ، ولا بالآلات الموسيقية ، ولا بالحيوانات الاعجمية ! .
فإذا كانت ألمانيا ترجو الفوز الحاسم في خلال الأسابيع أو الأشهر القليلة
الأولى من الحرب ، فهل لديها فعلا من الآلات والمخترعات الجهنمية ما يكفي
للقضاء على أعدائها ، بين غمضة عين وانتباهتها ؟

إن رجال الفنون الحربية يستبعدون هذا الغرض لوفرة استعداد خصوم
محور « برلين . روما » ، ولا سيما بعد ميونخ . ولكن لامتدوحة عن الاعتراف
بأن ألمانيا تستطيع باستعدادها الحالي أن تصمد للحلفاء ، لا أربع سنوات ،
بل عشر سنين . فانظر مدى ما في هذا كله من التضحيات الشنيعة من الجانبين .
ولا سيما أنها تقضى على كل تلك النهضة العظيمة ، التي نهضتها ألمانيا على يد الهر
هتلر ، غير أن نهضته لا تحول دون تذكرة كثة شكسبير الخالدة :
« إن في السماء والأرض ، باهوراسيو ، أشياء أعظم كثيراً مما أحاطت به
فلسفتك » .

[الأهرام : ٣١ يوليو ١٩٣٩]



الشرق أولى ! ..

« رون بوان شانزليزيه » .. الماء يتفجر نوراً و عيوناً .. وكل ما حول الماء والنور والعيون يتحدث عن عالم قائم بنفسه ، منقطع النظير عن كل عالم آخر ، كما لو كان هذا العالم امرأة أنانية ، شديدة الأثرة ، لأنها جميلة ، رائعة الجمال . فتانة ، شديدة الفتنة . ساحرة ، موفورة السحر . وهي لهذا كله تريد أن يحبها كل من نظرت إليه ، أو عنيت بإلقاء التفاتة عليه ، ولا تمنح قلبها أحداً ! ...

كل من حوله يبسم له ، كأن كل من حوله نسيب للغريب ! ... هذه الابتسامة ردت إليه عشرة أعوام من شبابه ، فكأنه لم يرحل عن هنا ، ولم يناضل ، ولم يتألم ويسهر الليالي .. لأنه ولد من جديد ، كتب له عمر آخر ..

كل من حوله يبسم له .. فلا عجب إذا بسم ثغره ، وتحرك بعد شجن وحزن قلبه .. كل ما حوله يبسم له : الشمس والقمر ، الليل والنهار ، السلام والخطر ، الجرأة والخفر ، الحديث والنظر . الصمت ... والقدر ! ...

كل ما حوله يبسم له ، ويدعوه إلى الابتسام ، ليس في جنة الدنيا عبوس وقطوب ، لأنه ليس فيها أحزان وخطوب ، ولا يسمح فيها بيأس القلوب ! ..

هذه الابتسامة هي خبز الفقير ، الذي لا يجد غذاءه ، وهي عزاء الشقي ، الذي عز عزائه ، وهي بلسم الفؤاد الكليم ، الذي حار فيه أطباؤه !

هذه الابتسامة تهدى الحائر المتخبط في البیداء ، كالنجم الذي يقود الساري في الصحراء .. يتعلق بها الغريق ، ويتعلل بها الشيخ ، ويصبو إليها كل من تقطعت به أوصال الحياة ، ولم يعد في قوس صبره مزع للسهم .

كثيرون يعيشون بهذه الابتسامة ، يتغذون بها ، ويسكرون من رحيقها ، ويتعطرون بأريجها ، ويستضيئون بنورها ، ويسكنون في حماها وظلها .. لأنها ابتسامة الوجاء ، والحي ، والرعاية ، والحب ...

ما أولى الشرق بهذه الابتسامة ! .. ما أولاده بها وهو أرض القناعة والكرم ، وموطن التسامح والإيمان ! ...

عندما احتضر السلام...

السلام يحتضر منذ عام . من سبتمبر ١٩٣٨ إلى أغسطس ١٩٣٩ ، وسيف الحرب وصلت على الرؤوس ، والناس ينسون يوماً ويتذكرون يوماً مصيرهم الحزين ، حتى كاد الناس يزهدون في السلم ، ويتمنون الحرب ، خلاصاً من حالة مضنية للنفس ، مرهقة للعقل ، متلفة للعصب . ولم يعد بإمكان عالم بأسره أن يعيش في حالة حذر دائم ، وتأهب ، واستعداد ، ونفقات طائلة ، وتجارة كاسدة ، وأن يعيش هكذا أكثر مما كان طوال ذلك العام . مطلب يحجب ، تبعه مطالب أخرى . ولم يعد بالإمكان تمزيق أوروبا قطعة قطعة ، وضئها واحدة بعد واحدة ، إلى وطن تضخم بسكانه ، ويريد أن يتسع ويتفصح على حساب جيرانه . ولم يعد بالإمكان أن تعلن في البلدان التعبئة الجزئية ، التي تكلفها ما لا طاقة لها به من نفقات ، وانفعالات .

والذين يعيشون في قلب أوروبا ، في باريس ، كما نعيش اليوم ، قد أدركوا الويل في هذا كله . فقد أطفئت أكثر أنوار الشوارع والميادين أمس ، حتى كادت مدينة النور تصبح مدينة الظلام ، واختفت تلك التيجان من الأضواء الساطعة ، وحلت محلها أنوار بنفسجية زرقاء قائمة ، تقبض القلوب .

وفي جميع المحطات ألوف الجنود يرحلون ، وفي خارج هذه المحطات أهلهم في توديعهم ، وداعاً فيه من البسالة ومن التأثر ، وفيه من الوطنية ومن الألم ما لا يوصف .

وغصت شوارع باريس بالضباط . . وتجدهم في المطاعم والمقاهي مع أهلهم يشربون الكأس الأخيرة ، أو يتناولون آخر وجبة تجمعهم جميعاً . تصور طابع الحزن النبيل على وجه الأم ، التي ترى زوجها راحلاً ، ومن حولها خمسة أولاد ،

بعضهم يشعر ويفهم ، وبعضهم لم يدرك بعد معنى الحرب أو السلام . . فهو سعيد بوجوده في باريس يلعب ويمرح ، ويأكل ويمزح .
 إن التسامح والتسليم بعد اليوم في شبر أرض من أوروبا ، لدولة من الدول ،
 معناه الضعف والاستسلام . لقد امتد اللغم ، وبدأ الجنود يعبثون بالبارود ،
 وتجاوبت الطلقات على الحدود . . فإذا لم تتدارك هذا العالم معجزة سماوية ، فإن
 حضارة عظيمة تتقوض ، ويذهب ربحها ، وتصبح أثراً بعد عين . . ستلبس
 يومئذ ملايين البيوت والمدن ثياب الحداد . . ماذا يعوض هذه الملايين بعض
 أشبار من الأرض ، بعد ما فقدت أشبالها ، وأنجالها ، وأحبها ، ورجالها ،
 وثروتها ، ومالها . . وتيتمت أطفالها ؟ !

[الأهرام : أول أغسطس ١٩٣٨]



تضامن الديمقراطيات

ما أعظم الدروس التي نتلقاها ، في هذه الأيام العصيبة ، على هذه المدينة ، قلب أوروبا الخافق ، التي كانت مدينة النور ، فأصبحت مدينة الظلام ! لكن شيئاً آخر ينيرها الآن ، هو الشعلة المتقدة في قلوب بنينا ، هو تلك الشجاعة الهائلة التي تلقوا بها الضربة العنيفة التي أدمت فؤاد الإنسانية بإشعال نار الحرب ، وهي النار التي إذا كانت ما زالت محصورة ، حتى كتابة هذه السطور ، بين دولتين ، فإن ألسنتها ستندلع قتلهم أوروبا ، وتخرج من الغرب إلى الشرق .

لقد أعلنت هنا التعبئة العامة ، ومعنى هذه التعبئة أن ملايين سيحملون اليوم السلاح ، ويقفون صفاً واحداً ، وقلباً واحداً ، للدفاع عن الأوطان ، وعن الحرية ، وعن الإنسانية جميعاً .

وهكذا نرى مرة أخرى شبح الحرب المخيف يحلق فوق أوروبا ، حاملاً الخراب والموت ، رمزاً متجدداً على بشاعة المطامع وشناعة الكبرياء . وأوروبا ما زالت في دور النقاهاة من الحرب الماضية ، فهي في أشد الحاجة إلى السلام . وقد جاهدت ، ولا سيما منذ عام ، في سبيل هذا السلم ، جهاداً عنيفاً . . جاهدت بالمفاوضات الدبلوماسية ، وجاهدت بالاستعدادات الحربية ، حتى علت اليوم أن رضوخها المتوالى لإرادة فرد واحد ، معناه التسليم في حقوق جميع الأفراد ، وجميع الشعوب ، واحداً بعد واحد . .

لقد ضاقت أوروبا ذرعاً ، وأنهكت قواها حرب الأعصاب ، ولم تعد تقبل الاستسلام للتهديد ، والوعيد ، والشدة ، والحق ، والافتراء . لقد شمت هذه الحالة التي تعطل القوى الروحية ، والمؤسسات المالية ، والاقتصادية ، وتشل

التجارة ، وتؤدي إلى الخضوع والمذلة .

إن أوربا حريصة على الحياة طبعاً ، حريصة على حياة مجيدة ، بمؤسساتها الباهرة للحضارة . ولكن ليس هذا الحرص معناه الرضاء بمذلة الخضوع لفرد واحد جبار ، يعيث بكل ما حوله ، ما طاب له ، فتطيح لعبته برؤوس الشعوب . لا يستطيع الرجال الأحرار ، في الدنيا كلها ، من أقصاها إلى أقصاها ، إلا أن يتضامنوا مع الديمقراطيات في جهادها النبل لتحرير الحرية .

[بارس : ٢٨ أغسطس ١٩٣٩]

[الأهرام : ٢٠ سبتمبر ١٩٣٩]



الوزير الجندى

المسيو چان زاي ، وزير المعارف الفرنسية ، رفع كتاب استقالته إلى المسيو دلاديه ، سائلاً إياه أن يعفيه من عمله في الوزارة ، لأنه يريد الانضمام إلى صفوف القتال ، بين الذين بلغوا مثله ٣٥ عاماً . . .

وقد أراد ذلك رغم أن القانون يعفيه منه ، لأنه يؤدي خدمة حيوية لبلاده ، لا تقل شأنًا عن الجهاد بحد السلاح .

فهو الوزير الذي قد آثر أن يلبس السترة الكاكي ، أو الزرقاء ، ويقف ، في صف واحد ، مع الفلاح ، والتجار ، والحداد ، والزبال . . لا يعرف في فرقته بأنه صاحب المعالي ، أو صاحب السعادة ، أو صاحب العزة ، ولا حتى باسمه المجرّد « چان زاي » .

إنه سيأخذ رفقاً ، ويصبح : « نفر نمرة ٨٧ ، ٢١٠ حرف د أورطة س ٣١٣ » — مثلاً . . .

هل أنا في حاجة إلى بسط كل ما في هذا المثل النبيل من جمال ؟! إنه لا يعد كثيراً في بلاد حرة ديمقراطية . ولا يعد كثيراً في بلاد تذود عن حريتها ، وعن شرفها ، بالاحتفاظ بعهدتها ، والتمسك بكلمتها .

وعند كتابة هذه السطور يكون المسيو چان زاي قد ارتدى سترته العسكرية ، بغير تيجان ولا نجوم ، بلا قصب ولا ذهب ، ووضع رفقاً على صدره وعلى رأسه ، وحمل بظانيته وزمزميته وسلاحه . .

بهذه الرجولة يتعلم الأطفال ويتكون الرجال . من هذه القوة الروحية الباهرة تستمد الشعوب معين نضالها وجهادها . من هذا التواضع على خدمة مبدأ واحد ، ومذهب واحد ، تأخذ الذريات بعضها عن بعض محبة الواجب ، وتقديس الواجب ، والاستهانة بالموت ، في سبيل الواجب ، فداء للأوطان . .

سماحة الشرق

كان في البيت الذي أسكنه ، في حي ، الايتوال ، ، حتى أمس ، نحو ١٥٠ ساكناً . فهل تعرف ماذا أدت إليه التعبئة العامة ، وإخلاء باريس إلى الريف ؟! أصبح فيه أربعة أشخاص ، أحد السكان ، والبواب ، وزوجته ، وشخصي الضعيف !!

هاهي ذى شوارع مدينة التور قد تحولت إلى مواكب خيالات وأشباح . الشانزليزيه التي كانت تبهر العيون بأضوائها الماسية ، من قوس النصر إلى المسلة المصرية ، قد أصبحت من الظلمات بحيث لا ترى فيها كفك ولا موضع قدمك .

وفي كل خطوة تجد رجل البوليس حاملاً قنّاعه الواق من الغازات ، وحرملته الواقية من السموم ، وخوذته الواقية من الشظايا . فهو يذكرك بالعسكري المصرى عندما يحمل كيمساً في رمضان فيه فطوره .. ما أعظم الفرق يا إلهي !! .. وما أروع الفرق بين روح الشرق وروح الغرب .

العسكري عندنا ، في شهر الصوم ، يظل طوال يومه ، في الحر والنكد ، صابراً ، مجاهداً ، حاملاً ، تحت إبطه ، زاده : كسرة خبز ، وقطعة جبن ، يأكلهما إذا أذن أذان المغرب بنهم شديد ، ويحمد الله ألف مرة على هذا الرزق والخير ، ويحمده على الزاد الأعظم ، وهو التقوى .

وهنا جندي أوربي يحمل مخلاته أيضاً ، ولكنها للوقاية من الموت . إن أخاه الذي بجواره يعدّ له شر أنواع السموم ، يطمع في قتله ، وإحراق وطنه ، يطمع في الانتصار عليه ، ومحوه .. يحلم بضم بلاده إليه ، كأن أرض الله الواسعة لم يعد فيها متسع للجميع ! ..

إن نقشفنا أنبل ألف مرة من طمعهم . إن تقوانا أشرف من جحودهم .
إن خبزنا أكرم من زادهم .

ها هو ذا الشرق الكريم ، الذى نصفه بالتأخر ، يضرب بترفعه عما فى يد
جاره أنبل الأمثال .. ها هو ذا يرضى بالكفاف من العيش ، وبقليل من الخبز ،
ولا يكاد يعرف الترف ، ولا ينظر إلى ما فى يد جاره ، ويستعيز بالله ، إذا فعل ،
من وسوسة الشيطان .

الشرق يشقى ، ولا يعتدى . فليت الغرب يعرف فضله ، ويقتبس من
روحه ونبله ! ..



العشاء الأخير

« إلى م . . . »

كنا ، عصر يوم حار ، في القاهرة ، نتناول الشاي في دار أنيقة لأسرة مصرية راقية . وكانت ربة الدار نموذجاً رائعاً لما كان يتمناه قاسم أمين : جمال المرأة ، وعقل الرجل . . . وكان أنجالها حولها نماذج عالية أيضاً للتربية القويمية . وكان ذكر الحرب عرضاً . فرأينا محيّاها الوضاء قد احتقن ، وصار بلون الدم ، ثم جالت العبرات في عينيها . إنها لم تتمالك خيالها من أن يذهب بعيداً . فإن نجّلها خريج كلية الهندسة قد التحق بالجيش ، وصار ضابطاً . فتصورت كل الأخطار التي قد يتعرض لها ، وتصورت ما قد يهدد حياته الغالية العزيزة عليها .

أما هو فقد ابتسم ، كما ابتسمت أخواته ، ابتسامة الشبيبة التي ولدت خلال الحرب الماضية ، والتي لا تعرف الإسراف في الحنان وفي الخيال ، والتي لا ترى محلاً لكل هذه المخاوف ، والتي غالباً ما تستهين بحياتها في سبيل بلادها . ذكرتني تلك الأسرة الكريمة الصديقة ، بما أراه حولي الآن في كل مكان . . . أسرة الضباط أو الجنود الشبان المسافرين اليوم أو غداً إلى ميدان القتال ، تلبية للدعوة إلى التعبئة العامة . الأسرة الآن تتناول « العشاء الأخير » ، تتناول الطعام ، ربما لآخر مرة ، هكذا مجتمعة . . . وقد شوّعت أمامها ألوان « الطعام » ، وتعددت ألوان الشراب ، وتنوعت الفواكه والأقذاح .

لا يمكن أن تزعم ، إذا لم تكن تعرف أن الحرب غداً ، أن هذه الأسرة ستُرسل إلى النار ولدها وفلذة كبدها . إنهم يضحكون ويمزحون ، كما لو كانوا عائدين من « فرح » أو ذاهبين إلى ملهى . . . وإذا نظرت وتأملت وجدت ،

بالطبع ، بعض الإسراف في العطف والحنان . فهم يتسلفون العواطف التي
 سيحرمون منها زمناً ، وربما حرموا منها أبداً الدهر ..
 فاعجب لشجاعة هؤلاء النساء التي لا تدانها شجاعة الرجال . إنها الحوادث
 والأيام ، وطوارئ الحداث ، التي كونت هذه الحالة النفسية القوية ، من الصبر
 والتجلد ، ومواجهة الخطر ، والموت ، والابتسام :
 سيكون لنا هذا كله يوماً ما .. فقد قطعنا مسافة لا بأس بها من الطريق ..
 ولعل الله يرحم أولادنا ، فيقضى بأن يكون طريقهم مفروشاً بالورد
 لا البارود ! ..



ثم هؤلاء الإنجليز ! ..

هناك أشياء ميز الله بها الإنجليز .

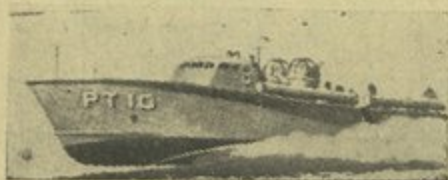
كنا على الباخرة « النيل » ، في عودتنا إلى الوطن ، مشغولين قبل كل شيء بأنفسنا . كنا أنانيين . كنا لانفكر في غير نجاتنا ، وخلاصنا ، ووصولنا . كنا لانفكر في غير أهلنا وصحبنا . كنا نتكلم عن الغواصات وأخطارها في الليلة الأولى ، ونحن في عرض البحر ، عندما ساد الباخرة ظلام داس ، وأطفئت أنوارها كلها ، ولم يبق إلا بصيص أزرق ضئيل ، لا يبدو فيه الشيخ من الشاب . كان بعضنا مهتما بالنوم أو اليقظة ، والبعض الآخر بالطعام أو الشراب . كان بعضنا مشغولا بسرعة الباخرة ويوم الوصول . وكان البعض الآخر يتتبع أخبار الراديو ، ويرهف السمع ، ويناقش الأنباء ، ويستنتج ، ويتفلسف . وكان هناك من يحكمون على الحرب بأنها بنت يوم وليلة . وكان الآخرون يزعمون أنها حرب حصار — حصار حصون ، وحصار مؤن — قد تمتد إلى سنوات .

وكانت بيننا سيدة إنجليزية كريمة ، تدعى « مسز سندبر » ، لم تفكر في نفسها وزوجها ورياضتها — وهي رياضية مشهورة بلعب الجولف — وإنما فكرت في البحارة المصريين ، في « الطعشجية » الواقفين ليل نهار أمام أتون النار ، الذي تبلغ حرارته درجة هائلة لا تطاق في الشتاء القارس ، فكيف بها في الحر اللافتح ؟ .

قالت مسز سندبر : « إن هؤلاء الرجال هم حزب من الأبطال . وهم أبطال فقراء ، وهم مبعدون عن أوطانهم في هذه المرة لمدة تضاعفت وطالت ، ولهم زوجات وأولاد ، يشعرون بما فيه رجالهم هؤلاء من خطر ووحشة وحرمان ، فلماذا لانقدم مكافأة صغيرة لهم ، دليلا على عطفنا عليهم ، وشكرنا إياهم ؟ » .

وقرنت القول بالفعل ، بل لعلها لم تتكلم بقدر ما عملت ، وهذه من أجل صفات الإنجليز : القول القليل ، والعمل الكثير . . فقد قصدت كل من توسمت فيه حب الخير ، وسألته أن يجود بما يشاء . . فالبعض دفع القروش ، والبعض دفع الجنيهات . فكان الشكر للجميع واحداً . . لأن القصد الأول هو التعاون الإنساني ، وليس المفاضلة بالمال .

ومن ألطف ما حدث : أن التبرعات وقفت عند مبلغ ٤٥ جنيهاً . وعدد الرجال ٥٠ . فأصرت مسز كلارنس سندر على أن تحصل على خمسة جنيهات أخرى . وعندئذ تبرع الوجيه المحترم باسيلي كسبر بنصفها - مع أنه سبق أن تبرع بثلاثة جنيهات ، وأن تبرعت السيدة الفاضلة حرمة بمثلها - وتبرع الأستاذ عباس راشد ، صاحب الدار المصرية للآلات الزراعية والميكانيكية ، بالباقي . فشكرنا لهم هذه الأريحية ، والشعور النبيل . وفرحت مسز سندر ببلوغ أمنيتها ، بعد مجهود دام نحو ٢٤ ساعة . . فاستحقت أيضاً تقدير الباهرة . . وإني اليوم ، إذ أذيع فضلها ، أثق أن كثيرين من بني الإنجليز سيحيّون معي هذه السيدة الإنجليزية ، التي هي من الطراز العالي الذي يمثل قومها . . وتتمنى لو كثرت نماذجه بيننا .



الشاعر

كانت الباخرة تسير ، كأنها سر في ضمير الليل ، لا يخفق فيها نور مصباح ،
ولا يلمع فيها زجاج نافذة ..

كان الليل حول « النيل » جميلاً جداً ، استمد جماله من ضوء القمر ،
فكأنما هو زنجية حسناء تحتال في ثوب لؤلؤي .. حتى لقد ذكرنا قول
شاعر المعرة :

ليلتي هذه عروس من الزند يج عليها فلاتد من جان
كانت « النيل » عالمنا الفريد المحدود ، ومع ذلك فقد كان يغمرنا في هذا
العالم جو من البهجة لا يحده . كنا — شرقيين وغربيين — كأنما نحن أسرة
واحدة ، اجتمعنا على حب وطن واحد ، زادتنا الأخطار تعلقاً به ، وحينئذ إليه .
وكان البدر حارسنا الوفي الأمين .. ظل خمس ليال يشيع فينا من صفائه
صفاء ، ومن سناه طمأنينة ورجاء . وكان عشاق البحر مستندين إلى حواجز
السفينة ، قد نال منهم جلال الليل ، وجمال البدر . فافتقدنا « الملاح التائه »
صديقنا الشاعر المبدع على محمود طه — إذ قدرنا أنه ، حتماً ، في عالم وحده ،
يستوحى ، مما حوله : معاني فريدة ، وأغاني جديدة . فهو صديق قديم للقمر ،
يراحمه أحياناً ، ويفار منه على عرائس أحلامه ..

وعثرنا به في أعلى السفينة ، وكأنه في برج يشرف منه على عجائب السماء .
ويغازل عرائس الماء ، وينسج لنفسه عالماً بهيجاً من الحياة والحب . فقلنا :
— أيها الشاعر ، أما زلت تغار من القمر ؟

قال :

— بلى ..

وسمعه يهمس :

أغار عليك إن قتل هذا الثغر أو ثني
جرىء اللحظ عرييد بكل مليحة يُعني
فإن لضوته قلباً وإن لسحره جفنا
يصيد الموجة العذرا . من أغوارها وهنا

ومرت الليالي الخمس كأحلام شاعر . بل من يدرى !؟ لعل الله كتب لنا
السلامة ، لأن في الباخرة شاعراً ، يلقى أشعاره على البحر فيهدأ ، وعلى الليل
فيصفو ، وعلى البدر فيهدى .. ويلقى أشعاره على من حوله فينصتون ، وينسون
وحشة السفر في تلك الساعات الرهيبة ، وتبدو لهم أرض الوطن البعيدة
دانية قريبة ..



نور الشرق

وطنى ! . . .

وطنى لو شغلت بالخلد عنه

نازعتنى إليه فى الخلد نفسى !

أرخبى الظلام فى باريس سدوله على البيوت ، على الشوارع ، على المدن ، على البلدان جميعاً ، وأطفئت المصابيح الساطعة التى كانت رمز التحضر والرخاء . عادت الدنيا أدراجها إلى الهمجية الأولى ، لتعيش على ضوء سراج . وتهاجم القبائل بعضها بعضاً ، لتفوز بما تقتات به .

شهدت باريس ، فى خلال إعلان الحرب . فتعلمت علماً جديداً عالياً فى حب الأوطان . فقد كان الناس يسرون إلى ساحة الوغى ، بقلوب مرتاحة ، وثغور باسمة . كانوا قد نفذ صبرهم ، وتمردوا على تلك الحالة من القلق والإرهاب ، التى ظل زعيم الجرماني يلقى فيها العالم يوماً بعد يوم ، ويفتال من أوروبا بلداً بعد بلد . كانوا قد اعتزموا الحياة أو الموت . كانوا قد صمموا على الموت جميعاً ، إذا اقتضى الأمر ، ليحيا من بعدهم أولادهم فى سلام وصفاء .

حقاً ، إن قضية الحلفاء هى قضية الإنسانية . إنهم يدافعون عن مستقبل الحضارة . إنهم يذودون عن التخوم والحدود غير المنظورة الآن على خريطة أوروبا ، لأن رجلاً قد أحرق أوروبا ، وأشعل النار فى خريطةها ، وضرب مئات المدائن ، وألبس السواد ملايين البشر ، وحرّم الشيع والنوم ، بل حرم الحزن والبشرى ، على اللواتى هن من لحمه ودمه ، وقضى عليهن بالشقاء . .

حملتنا « النيل » ، إلى أرض الوطن . تركت وراءها ظلمات أوروبا ، لتقلأ عيوننا مرة أخرى بنور الشرق . فخرجنا من ميناء الإسكندرية فى المساء . سمعنا

في الشوارع الضيقة أنغام الراديو الراقصة ، ورأينا وجوه المصريين الباسمة ،
رمز الإيمان بالخير وبرحمة الله . فنظرنا في حبة وعطف إلى هؤلاء الفقراء ، الذين
هم أغنى أهل الأرض بالقناعة والإيمان . وتمنينا لو قبلناهم جميعاً ، فرحاً بهم ،
بعد ما كنا نشعر به في الغربة من ألم ، فلطف الله بنا من مذلة الغربة ، وظللنا
بعزة الوطن .

ويا وطني لقيتك بعد يأس
كأنى قد لقيت بك الشبابا !



ولايات

وضع المستر بتلر ، العالم المشهور ، تقريراً متمعاً عن التعليم ، وما كان يمكن أن يصيبه من خير وبر ، لو أن ما أنفق في الحرب الكبرى الماضية صرف عليه ، فقد خسر العالم في تلك الحرب المنحوسة ٤٠٠ مليار دولار . وبهذا المبلغ كان يمكن بناء بيت بـ ٢٥٠٠ دولار ، وفرشه بـ ١٠٠٠ دولار ، وإحاطته بحديقة من خمس قصبات ، ثمن كل قصبة ١٠٠ دولار ، وذلك لكل عائلة من أهالي الولايات المتحدة ، وكندا ، وأستراليا ، وانجلترا ، وبلاد الغال ، وإرلندا ، وأسكتلندا ، وفرنسا ، وبلجيكا ، وألمانيا ، وروسيا . . . وبعد هذا كله يبقى من المال ما يكفي لمنح كل بلدة سكانها ٢٠,٠٠٠ نسمة فأكثر ، في جميع البلدان المذكورة : جامعة ، ومكتبة ، ينفق عليهما ، في كل بلد ، خمسة عشر مليون دولار . وهذا التقرير القائم على إحصاءات دقيقة ، يدل الآن ، ونحن بإزاء نسكبة الحرب الحاضرة ، على لحظة مما يخسره العالم المتحضر ، بسبب الخماقة التي ارتكبها بعض المنتسبين إليه .

وخسارة المال هي ، في الواقع ، أتعف الخسارة . لأن المال هولي ، وهو لك ، وكان ، قبلي وقبلك ، وسيكون ، بعدى وبعدك ، لألوف الناس . أما النفوس والأرواح فهي التي ستذهب بالملايين ، ولا سبيل إلى تعويضها . كيف يمكن تقدير الشلل ، الهائل ، الخيف ، الذي سيصيب البشرية من الحرب الحاضرة ، إن لم تقف رجاها بمعجزة سماوية ؟ !

لقد زار مرة دوق وندسور - عندما كان ولي عهد إنجلترا - ملجأ خاصاً بمشوّهي الحرب ، فرأى ما تشعّر منه الأبدان . فكان يواسي هؤلاء الأبطال الذين فدوا بالنفس أوطانهم ، حتى وصل إلى غرفة قالوا إن فيها سبعة رجال .

فلم يجد إلا سلة . فسأل عن السابغ ، فاضطربت رئيسة الملجأ والمرضات
جميعاً ، وتمتمن معتذرات ، والتمسن من الأمير أن يتسامح ولا يرى الرجل
السابغ ، فأصرّ ، ففتحوا له الباب . فإذا به يرى كتلة من اللحم ، ليست لها
عيون ، ولا فم ، ولا أنف ، ذراعها مندمج في كتفها ، وصدرها مختلط ببطنها ،
كتلة حرام كالدم ، فيها ثقب : كانت : عيوناً ، وأنفاً ، وفماً .. فلم يتالك الأمير
نفسه ، فاغرورقت عيناه بالدمع ، وتقدم من هذه الكتلة البشرية البشعة ،
فقبلها ، رمزاً لاعتراف الوطن بجميل مئات الألوف من المشوهين ، الذين
منحوا الوطن حياتهم ، ولم يحظوا حتى براحة الموت وصفاته .

فانظروا ، وتأملوا أى جرم هو هذه الحرب ، التى تترك فى كل بيت ولداً
يتيماً ، وأرملة حزينة ، وأماً ثكلى .. وتترك فى كل ركن كتلا بشرية ، مشوهة ،
لم يعد لها اسم ، ولا رسم !



وحدة العالم

يدخل علينا رمضان هذا العام ، فيدركنا في حالة احتياج شديد إليه ، حتى الذين لم يتعودوا الصيام أظنهم سيصومون هذا الشهر حتماً . لأن العالم ، المنخفض الآن بالدماء ، بحاجة إلى أن تنجيه جميع قواه الروحية إلى الله ، في ورع وابتهاال ، حتى يرحم الله العالم .

يجي رمضان ، فلا يجد الكثيرين محتشدين حول الكاس والطاس . فالناس — حتى أرباب اللهو والبطالة — قد شعروا بأن النكبة التي أصابت بولونيا ، وتصيب الآن أوربا ، تلحق ، ولو رذاذاً ، كل فرد منهم ، مهما يكن نائياً بعيداً . فالدنيا — مع تقسيم حدودها وانفصال تخومها — هي في الواقع وحدة مشتركة كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحي . . . فالبولوني الذي مات في حصار دانتزج ، أو فارسوفيا ، يهمني ، ويهمك ، ويهم ساكن لبنان ، وساكن عمان ، وساكن إيران ، وساكن اليابان . إنه كان يدافع عن حرية بلاده فعلاً . ولكنه في الوقت نفسه — من حيث يدري ولا يدري — كان يدافع عن حرية كل الأوطان . كان يدافع عن هذه الإنسانية المضطهدة ، التي لا تكاد تم بالوقوف على قدميها حتى تنشب فيها بعض الوحوش أظفارها ، وتعمل فيها أنيابها .

يهل إذن شهر رمضان على العالم الإسلامي ، وقد انطفأ في بلدانه الكثير من النور ، وحرّم عديدون الطعام الموفور ، واستعد الألاف من أهله للويل والثبور ، وعظائم الأمور . . .

وعلى ذلك فنحن نلقاه أشد ما نكون خشوعاً ، وتهيباً من هذا الزمن القلب العجيب ، الذي لا أمان له ، ولا إيمان فيه .

نلقى رمضان أشد ما نكون إيماناً برسالاته ، رسالة الزهد والتقشف
والورع . . رسالة البطون التي تأكل قليلاً . والنفوس التي تشعر كثيراً . . رسالة
الأسن الجافة من الظمأ ، والقلوب العطاش إلى الخير والبر والإيثار . . رسالة
التضحية بالقوت رحمة بالفقير ، وإنصافاً لليتيم وابن السبيل . . رسالة الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر . . رسالة الصوم والصلاة والزكاة . . رسالة المحبة
الخالصة للناس ، من جميع الألوان ، وجميع الأديان .

فلنكن إذن في هذا الشهر المبارك مسلمين ، بكل ما تحمله كلمة الإسلام من
جلال وجمال . . إذا عشنا في مصايح ساطعة ، فلنذكر الذين معدهم خاوية . .
وإذا استعددنا للعيد ، فلنذكر الذين كل أيامهم صيام بغير عيد ! . .
ولنتجه إلى الله خاشعين ، ونحن في حالة الصوم والحرمات ، ليشفي العالم من
شهوات النهم ، والطمع ، والدم ، والطفیان ! . .



عادت من الغرب

ساعة مع آنسة مصرية ، خريجة السوربون ، آتاه الله العنصر الطيب والعقل المستنير ، سافرت ، وشاهدت ، وتأملت ، ودرست .. وهى الآن ، منذ بضع سنوات ، قد وقفت وقتها وعقلها وقلبها على تعليم بنات جنسها . ونسيت فى هذه المهمة السامية ذات نفسها ، وكرست لهذه الرسالة فؤادها . فلما سألتها أمس عن خلاصة رأيها فى التجربة التعليمية التى قامت بها ، أبدت لى آراء جديدة ، لم أكن أنتظرها منها ، مع أنها عودتنى دائماً طرافة آرائها . فأثرت أن أقفل بعض رأيها لقرائى .

قالت لى : إنها تعتقد أن تعليم البنات المصرية فرض واجب ، على شريطة أن يكون الغرض منه هو : بناء بيت جميل ، ومشاركة زوج كريم ، وتربية أولاد نجباء ... أما غير ذلك فلا ..

فهى لا تريد أن تتعلم البنات لتصبح معلمة مثلاً . ولا لتحترف أية حرفة من الحرف التى يطمع فيها عدد كبير من الجنس اللطيف . إنها ضد الاحتراف . وهى لا ترى له عندنا ضرورة إطلاقاً . فبلادنا ، لحسن الحظ ، لم تصب بحرب تحرمتنا الرجال ، بحيث نرى أنفسنا مضطرين إلى الاستعانة بالنساء . فلا محل للبنات فى عمل خارج عن دائرة بيتها . وهى نفسها — صاحبة هذا الحديث — قد أضاعت شبابها ، أو كادت . فهى لم تستطع أن تؤدى بحسب ضميرها ما كانت تطمح فى أدائه ، من تسكييف عقليات على غرار عقلها . حال بينها وبين ذلك ، الوسط المطبوع من قبل بطابعه الخاص ، الذى يصعب تحويله ، أوحى تعديله . إنها كانت تريد عمل شئ عظيم ، فلم تستطع . ورأت اندفاعاً نحو الخروج عن البيت إلى المكاتب .. وهى تستنكر هذا الاندفاع ، وتراه فى غير مصلحة

بلادها . تريد للبنت أن تتعلم فعلا ، على أن يكون قصدها الاول والاخير
من التعليم : أن تكون فتاة راقية ، وزوجة فاضلة ، وأماً صالحة .. وكل من تخرج
عن هذا تفضل سبيلها ، وتخطى طريقها ، وتجننى على نفسها .
هذا هو الرأى الذى اجتهدت أن أنقله بإخلاص إلى القراء ، وبخاصة إلى
القارئات .. أنقله وأنحني له ، لانه خلاصة تجربة المرأة ، وظل فكرها المعذب ،
وقلبها الحزين .



كتائب شرقية

اجتمعنا بكتائب لبنان وطلائع الأرز الجميل ، وسمعنا أناشيده العذبة ،
التي تسكر الجوارح بحب الأوطان .

شكراً للصديق الأستاذ أسعد داغر . إننا كنا بحاجة إلى هذه الألحان . إنها
انزعجتنا من ضجيج المدينة ، وحملتنا إلى ربوع زهتها الطبيعة ، وآثرتها برزق عظيم .
جلست العروبة إلى مائدة واحدة . كانت العروبة تكرم لبنان في أرض
مصر . وليس لبنان بالبعيد عن العين ولا البعيد عن القلب . إنه أصبح دانياً
قريباً . إن أبناءه الأجداد قد امتزجوا بنا ، وتقدموا إلينا بفضائل نادرة من الهمة
والذكاء ، والفطنة ، والأمانة .

إنهم خدموا قضيتنا الفكرية والوطنية خدمة جلي . وكانوا في كل ما تولوه
من وظائف وأعمال نماذج تحتذى ، في نشاطها ، ورجولتها ، وصدقها ، وأخوتها .
لقد لقحوا نهضتنا بعناصر الجيل الفريدة . واندمجوا في أهل الوادي السعيد ،
فأصبح واديهم . وشربوا من ماء النيل ، فأشربوا حب النهر المقدس ، الذي عبده
يوماً ما آباؤنا . فأصبحنا بنعمة هذا الحب إخواناً .

ما أكثر ما نأخذه كل يوم عنهم !.. وإن مزاياهم لكثيرة . وليس أقل هذه
المزايا استقامتهم المشهورة ، ومثابرتهم ، وجلدهم لكل ما يقومون به ، ويقظتهم
للخدمة الجليلة التي يؤدونها لهذه البلاد ، وسهرهم بكل إخلاص على أداء الواجب ،
فالواجب عندهم هو الاسمى ، وهو الاسنى . وهم يعرفونه حق المعرفة ، ويسعدون
بمحالفته سعادة خالصة ، ويستعذبون كل عناء في سبيله .

إن السفر إلى لبنان هو نزهة محلية ، كالسفر إلى أسوان .

مرحباً بكتائب لبنان ! ...

موكب الذكرى

كانت الساعة السابعة صباحاً . وفي الجو غيمة ، وفي القلب غيوم .. البرد كاذ يشتد . والنيل ، من بعيد ، كأنه يغلي . والأهرام مثلثات سوداء في الأفق النائي ، تنحسر عنها ستائر السحب الثلجية اللون ، شيئاً فشيئاً ، مقدمة لسطوع شمس القاهرة الصباحية الحنون ..

استيقظت العاصمة .. وبدأ السير أولئك الذين يجالدون العيش ، وتجلدهم الحياة من الصبح حتى المساء . أول المبكرين الذين يحملون الندى على رؤوسهم ، هم أقل الناس حظاً ...

بدأت تسير على كوبرى الحديو لإسماعيل ، منذ الفجر ، عربات النقل الواصلة من الدقي ، محملة بقافلة القبور .. مركبات خشبية امتلأت عوارضها بنساتنا البلديات ، يحملن إلى الموتى رحمة ، العيد .. احتشدين ، وازدحمن على عربات الكارو ، وكان الخوذى ، والحمار نفسه ، جزء من هذا الموكب البلدى الإنسانى . الذى تتمثل فيه ، على مظاهر فقره ، أنبل المشاعر البشرية .. هذه مواكب الذكرى .. هذه مواكب الأحياء تذكر الذين غابوا عنا ، وتخلوا عن بقية الجهاد .. أى جهاد أروع من أن يعيش الناس محرومين من أحبابهم ! هؤلاء الفقراء الذين يقصدون محلة الموت ، فى صباح يوم الوقفة ، قد استعدوا لهذا اليوم منذ أيام .. حرموا أنفسهم أشياء ضرورية ، ليصنعوا الفطير والخبز ، ويشترى البلح والليمون والخوص والزهور التافهة .. ويعطوا التبرى بضعة قروش ، وينفقوا على ذهابهم وإيابهم وميتهم من قوت أفواههم ، ليهبوا فقراء آخرين ، أشد منهم فقراً ، وأولى بالرحمة ...

تأملت هذا الموكب متأثراً خاشعاً .. وقلت : أرسل إليه هذه التحية . موكب الفقراء ذوى الإحساس الفنى ، وذكرى الراحلين الذين سوى بينهم الموت ، فلم يعد بينهم غنى ولا فقر .

لوحات

عندما يكفهر وجه السماء ، قبيل المطر ، تستبشر وجوه أناس كثيرين ..
وعند ما تبكي عيون السماء ، تضحك عيون بعض الناس ، لأنها تعود فتري ، بعد
السنين الطوال ، لمحات سعيدة من العهود والذكريات ..

لذلك يحب بعض الشعراء والفنانين ، وبعض ذوى القلوب الحساسة ،
جو المطر .. ولقد كانت سماء القاهرة أمس كريمة رحيمة ، لأنها عطفت على
الذين حرمهم الدهر ، وتركهم يعيشون بغير ذكرى ، كالسمك على الأرض بغير
ماء .. فهذا الجو الرمادى الجميل يخلق للروح جوها القديم . فى ذلك الجو كانت
نفوسهم حرة طليقة فى ساحات السعادة . كانت نفوسهم قد وجدت شبيهاتها
من النفوس الحائرة ، فتمت لها هناءة النجوى .

كانت تلك النفوس آتية من كل قطر ومصر . كانت قد تناست ، فى أرض
الموعود الروحى ، أجناسها وأديانها ، وأصبحت كتلة واحدة ، تؤمن برسالة
واحدة ، هى رسالة الإنسان على هذه الأرض ، رسالة الفكر ، ورسالة القلب .
فى هذه السماء الرمادية ، قامت أمس لوحات رائعة فى عيني رجل أصبحت
عيناه لاتريان مما حوله شيئاً ، أصبح وحيداً ، وعاش بين الجماهير المزدهمة
لا يسمع صخبهم وصراخهم ، ولا يسمعون ضجيج روحه ..

كانت هذه اللوحات كلها جميلة ، ولو كان بعضها حزيناً ، لأن الزمن
صقل الحزن ، وجعله يبدو على حقيقته ، وحقيقة الحزن أجمل وأنبى من
زيف الفرح .

بعض هذه اللوحات يمثل فتي وفتاة : هو من الشرق ، وهى من الغرب .
وقد سارا ، فى يوم رمادى ، فى غاب بولونيا ، قرب المساء ، يصغيان بشغف إلى

صوت أقدامهما على حصباء الطريق ، لأنهما كانا يصغيان بشغف إلى حديث صامت ، ليس من هذا العالم .

ثم لوحة أخرى ، وأستاذ التاريخ في السوربون يسجل عهد الإقطاعات ، أيام ملوك فرنسا وأمرائها ، وقد انكسر قلبها الرصاص ، وهي تكتب المذكرات ، أو أن مداد قلبها الحبر قد فرغ . . فقدم لها قلبه ، فكتبت به ، ثم حملت إليه مذكراتها الأنيقة ، الصحيحة ، البليغة ، تفسر له ما فاتته . وقد كان كل شيء فاتته ، ولا سيما علم الحياة . .
ثم .. لوحة أخرى . . .



الجو الداكن .

[عزيزى الأستاذ الصاوى

قرأت بسرور كلتك الأخيرة التى ضمنتها ابتهاجك برؤية الجو الداكن والسماء التى جادت برذاذ من النيت قبل الأوان . وشاركتك الشعور اللذيذ باستئذان موسم الشتاء ، ذلك الشعور الذى اهتزت له طرباً ، لأنه ذكرك بأيام صفاء النفس فى أجواء تخالف بشكوئها وألوانها الجو المصرى .

وفى الحق ، إن بعض النفوس الحساسة تحتاج إلى تلك الأجواء والألوان لتشعر بصحوها الداخلى ، وإنها لتخشى أشعة الشمس وتحاول الفرار من ضوئها وتفر بطبيعتها من وضوح التور واشتداد القيقظ . وهذا الجو الداكن نفسه هو الذى مثله ليوناردو دافنشى أجمل تمثيل فى لوحته الخالدة ، فإن الشمس المشرقة لا تصلح إلا لإنماء النبات وفرح الحيوان . أما الغيوم المتركة والسحب المتلبدة التى ترسم بمساعدة الخيال أشكالاً وصوراً شتى كالتى كان يراها هملت فى عالم أحلامه لجذيرة بأن توقف شهوة الخلق والتفكير ، وتنبه العواطف الكامنة فى حنايا النفس ، وهى نفس الحالة التى تغنى بها طرفة بن العبد فى معلقته الشهيرة ، واستطاب فى ظلها الخطوة الصحيحة والنشوة الشامة والألهام الإلهى لتنظم الشعر ورشف كؤوس الغرام . فتمهل يا حبيبى قليلاً ، ولا تبادر بالسفر إلى تلك الأجواء ، فإنها عما قليل تسافر إليك ، وتواصلك على ضفاف النيل ، وتعيد إلى نفسك قوتها ، وتغسل القلب من أدران الهم المتراكم من سخافات الخلق ، وتظهر النفس من أرجاس الاحتكاك بالنوكى والحقاء . والسلام عليك ورحمة الله ؟

محمد لطفى محمد

إن تلك الأجواء يا صديق لن تسافر إلينا ، ولن تصل يوماً ما إلى ضفاف النيل ، ولن تعيد إلى النفس قوتها . . . فالجو الداكن فى مصر لا يبق طوال الشتاء إلا لحظات معدودة . وهو عندئذ يكون شبه زائف ، وإنما نحن نحبه لأنه خديعة لأنفسنا من أنفسنا . ونتعلل به للذكرى . هذه الذكرى هى التى نعيش بها ، ونتجلد بخيالها ، على كل ما حولنا ، مما يشقى بلادنا ، ولا نستطيع له دفعاً ، لأن دفعه يتطلب مئات السنين ، وجيلاً غير هذا الجيل .

شاب شرقى

منذ بضع سنوات ، وصلت ، عند الفجر ، إلى ميناء بورسعيد ، الباخرة اليابانية « هارونا مارو » ، وعلى ظهرها شاب شرقى ، فى الثلاثين من عمره ، كان عائداً من أوربا ، متشعباً بحب بلاده ، متوسساً بالخدمة العامة ، راغباً من صميم فؤاده أن يفدى بالنفس أوطانه .

قضى سبع سنين فى جهد متواصل ، رأى فى أول عهده عادات وتقاليد وأعمالاً مفرجة ، فانتقدها بجرارة ومرارة . وهو اليوم إذا أسف على شئ ، فإنما يأسف لأن قلبه قد تشبع بهذه المرارة ، بحيث فقد حرارته ، ووقف فيه نبض النقد والتفريع .

عاد ، فكان إذا رأى غلاماً متشرداً يأخذ من القمامة قشرة بطيخ ملوثة ، ليلعقها بترابها وجراثيمها ، كاد يهم بالبكاء . . . وهو اليوم إذا مرّ عليه ألف غلام يسأله الصدقة ، نهرم ، وسبهم ، بأقذع الالفاظ !

عاد مؤمناً بالمثل الأعلى ، وبالخلق الرفيع ، وبالنزاهة المطلقة ، فوجد كل ماحوله يزعم اعتقاده ، ويژهده فى الخلق ، وفى النزاهة ، ويجعل المثل الأعلى فى عينه رمزاً للضعف والعجز !

عاد مشتعلًا حماساً لخدمة بلده ، ودأب على هذه الخدمة ، ليل نهار ، سبع سنوات . .

وفى هذا الجهاد النبيل ، كانت ستائر الزيف ، والغش ، والتفاق ، والكذب ، والرياء ، تنحسر عن عينيه ، كل يوم ، شيئاً فشيئاً ، حتى بدا له أن الذى يمد يده للسلام عليه ، إنما يريد أن يقطع يده . والذى يعانقه ليقبله ، إنما يريد أن يسرق نقوده . والذى يضرب له موعداً للقاء ، إنما ليدير له كميناً غادراً . . وأنه أولى

للرجل أن يعيش مع النور والفهود في الغابات ، من أن يعيش مع بنى الإنسان .
عاد ورأسه ممتلئ أفكاراً طيبة ، وقلبه جيشاً بالأماني العذبة ، وروحه
ترفرف كالنحلة فوق الزهور . . .

وهو اليوم قد أصبح خالي الوفاض من أفكاره ، وقلبه كالإناء الذي تشبع
بالمالح ، لا يقبل بعده ذرة !

عاد رحيماً ، كريماً ، يقدم طعامه لأول طارق ، وجيبه لأول سائل ، وقلبه
لأول نفس .

وهو اليوم قد وجد أن الذي كان يأكل زاده ، كان يسخر من سذاجته .
والذي كان يضع يده في جيبه ، كان يضحك من غفلته ، والذي كان يفتح له قلبه ،
كان يهزأ بعاطفته .

عاد الشاب الشرقى ، فأدرك ، بعد سبع سنوات ، أن للفكر وطناً ، وللجسد
وطناً آخر . . . وأن الذي يمجّد وطن الجسد هو كالجنة الهامدة التي محمد التراب
الذي فوقها . . . وأن الذي يمجّد وطن الفكر ، وطن الروح ، هو الذي خلص من
أوشاب التعصب الأعمى ، وسما فوق الحدود الموضوعة على تخوم البلدان ،
وتحرر من عبوديات مفروضة باسم القوميات ، والقومية الحققة منها براء ، ونجا
من الجو الخانق ، وانطلق كالعندليب ، يغرد ، ويضطرب ، من وراء البحار ،
الأحرار القلائل المساكين في وطن الجسد . . .



من هم الأحرار ؟

كنت قد كتبت مقالا^(١) عن شاب شرق عاد إلى بلاده من أوروبا ، فاصطدم بكل ما حوله ، فصار كالغندليب الذي حبس في قفص ضيق ، لا يستطيع أن يغرد ، فلا بد له من عناية إلهية تكسر قضبان قفصه ، حتى ينطلق حراً إلى وطن الروح ، ليضطرب ، من وراء البحار ، الأحرار القلائل المساكين في وطن الجسد !!!...

فسألني قارئ كريم عما أعني هؤلاء الأحرار ، من أمثال هذا الشاب .. والسؤال سهل ، والجواب صعب .. إذ يوجد قراء يسألون أسئلة تدل على يقظة نفوسهم ، ورغبتهم في الوصول إلى أعماق قلب الكاتب . ولكني سأحاول الرد ، قدر الطاقة :

« الأحرار » هنا ، هم أحرار الفكر ، الذين انطلقوا بعقولهم من كثير من القيود والاحكام المتسرة ، وشموا بأرواحهم فوق التخوم الجغرافية المرسومة ، وتطهروا من أدران التعصب اللاعني ، التي أخرت الشرق ، وقسمته على نفسه ، فظل ضعيفاً ..

هؤلاء الأحرار الذين تذوقوا الحرية في بلاد الحرية ، قد أصبحوا كالنبات الذي يغرس في غير أرضه ، بحاجة إلى الظل ، وهو في الشمس ... هؤلاء الأحرار يريدون النهوض بالجموع ، ولا يستطيعون ، لأنهم يعملون وحدهم بإخلاص ، والرجال قليل ...

يريدون أن يروا العدالة والنزاهة تسود كل فرد وكل هيئة ، وأن تكون للشعب وحدة ، وفيه انسجام .. وهذا عمل أجيال ... وهم لذلك يشقون ويتعذبون ..

(١) انظر : « شاب شرق » ، صفحة ١٠٦

وهؤلاء الأحرار القلائل المساكين هم نقطة في بحر الجماهير الزاخر . هم طائفة شبه منبوذة ، لأن وسطها ينكرها ، طائفة مغمورة بالوحشة والالم ، لأنها لا تستطيع إلغاء عقولها ، ولا قتل إحساسها ، ولا التخلي عن كرامتها ، ولا النزول عن ترفعها ، ولا الاندماج في طوائف الوصوليين ، والنفعيين ، والزائفين ، والمهرجين .

الأحرار القلائل هم الشهداء الأحياء ، الذين يستشهدون كل يوم ، فيموتون جوعاً ، قبل أن تمتد أيديهم إلى السحت الحرام ، أو تلغ أقدامهم في عرض إنسان .

الأحرار القلائل في هذا البلد هم نواة حريته الحقيقية . هم الذين يضعون الزيت في القنديل ، الذي على ضوءه الخافت تهتدى الأمة إلى أشرف وأقدس مافيا : إلى كيانها الحق ، وإلى أصلها المجيد ، وإلى مثلها الأعلى .

هؤلاء الأحرار المساجين ، المساكين ، قد يسرهم أن ينطلق من بينهم طائر ، يرسم أفكارهم وأفكاره ، ويعزيهم ، على البعد ، وينقذ قيثارة قلبه ، التي تقطعت أوتارها ، حتى لم يبق فيها إلا وتر واحد . هو : الأمل في الله . .



الحب الطاهر

شارع الجبلية ، في الزمالك ، على ضفة الجزيرة الغربية ، قطعة من غاب
بولونيا ، لأنها جنة العشاق !

مرت بها أمس ، بعد الغروب ، في الساعة التي تودع فيها الشمس الوجود ،
بحنان غريب .. في الساعة التي يصمت فيها الكون ، ويصغى إلى لغة العيون ،
وخفقات القلوب ...

وجدت شاباً صغراً ، وبنات دون سن الحلم .. ومع ذلك بدأوا
يحبون بالحب ! ..

هذا النضوج الباكر ، قد أنضجته نار الحرب .. فالحرب قد ألهمت ظهر
الدنيا بالسياط ، علماً وعملاً .. فنضج كل شيء قبل أوانه ! ..

على كل مقعد خشبي ، على طول ضفة النهر ، بلا استثناء ، من كل
زوجان اثنان ! ..

وجندى البوليس يتمشى روحه وجيته ، لينبه الغافلين إلى أنه بالمرصاد ..
حارس الأخلاق ! ..

ومع ذلك ، فالحب هو الحارس حقاً ، إذا كان عفاً طاهراً ! ..

ربما كان ما في طباعنا من جمود ، وما في شعورنا من غلظة ، وما في قلوبنا
من فراغ ، يعود إلى أن صبانا كان محروماً من مثل هذه العواطف . وبعض
الرجعيين والجامدين يعززون إليها كل الشر ! . ولو بحثوا في أعماق نفوسهم ،
ونظروا بشجاعة ، لدهشوا من حقيقة أن النفس الجامدة لا يمكن أن تكون
نفساً خيرة .

فالذين يتظاهرون بالحرص على الاخلاق ، بحاجة إلى دروس في الاخلاق .
وقد يرتكبون أشياء فاجرة في الخفاء ، ويزعمون أن الناس يجهلون ! . فإذا جاء
حديث الحب استغفروا ، وحوقلوا ، والحب منهم براء .. لأن الحب هو اتصال
النفس بالنفس ، في حالة من السمو ، والعفاف المزدوج ، المترفع عن الدنيا ،
الذي يريد القوة والاتحاد ، ويجعل للحياة طعماً ، وللجهاد معنى .
إن الله قد خلق الجسد ، وجعل من القلب ملاكه الحارس .



كانت لهم ييوت ! ..

استيقظت الشمس متراخية . تأخرت في النعاس ، نامت في حضن الليل ، وعز عليها ، في الفجر ، الفراق ...

رأيتها طالعة ... كانت تتأبض ضياء ، وراحت تمد ذراعيها النورانيتين ، اللتين لا آخر لهما ، فتلمس بهما الكائنات .. فتصحو ، وتبتسم لهذا العطف والحنان .

كان كل ما تلمسه الشمس يبتسم .. بدا لي النيل ، عن بعد ، وكأنه ابتسامة فضية عريضة في وجه الأرض الأسمر ، وجعل النور والظل من كل ما حولنا لوحة جميلة . ونشرت السفن الصغيرة أشعتها البيضاء ، كأنها تلوح بمناديل لمطلع الشمس .

بدأت الحرارة تدب في أعضاء الكون . وبدأت الحياة جميلة جمالا رائعا ، وساد كل ما حولنا صفاء عجيب . كأن هذه الشمس ، وهذه السماء ، وهذا النهر ، والجزيرة النظرة ، والناس يروحون ويغدون إلى أعمالهم مبكرين : كأن هذا كله لا يشعر بما في الشاطئ من حروب وويلات تشيب لها الولدان ! . إن الحياة جميلة . ولكن بعض الناس ، قبحهم الله ، يريدون جعلها على صورتهم . إن الحياة غنية بخيراتها الطبيعية العظيمة . ولكن بعض الناس ، فقراء النفس ، يريدون تشويهها وتدميرها . لحكموا على الملايين من الرجال بالسير إلى المذبحة . وحرموا ملايين النساء والأولاد التمتع بحياة العائلة ، والتمتع بمثل هذه الشمس المشرقة ، والسماء الصافية .. فدفنوهم ، كما في عصور الممجية الأولى ، في حفر أرضية مثلجة ، تحت المطر ، وفي عصف الزمهرير . كالمثوحشين الذين كانوا يلجأون إلى الكهوف .

كيف تكون الحياة هكذا خيرة ، كريمة ، جميلة ، وفي الدنيا كل هؤلاء
 الأشرار ، الذين يطوحون بالإنسانية إلى الدمار والموت ؟
 لم يكن هناك من يتصور جوعاً . كانت الأرض ، فضاء الله ، واسعة . . فلم
 يحتاج من أهلهم أحد لضيق المكان . وكانت سنابل القمح تزدهر ، وتؤتي غلتها .
 وكانت مناجمهم تخرج الفحم والحديد ، وكانت آلاتهم تعمل ليل نهار . وبدل
 أن تزيد الحضارة تقدماً ، والعمران انتصاراً ، تصهر المدافع ، وتصب القنابل ..
 كانت الحياة ضاحكة مستبشرة ، وهم وحدهم الكاشرون عن أنيابهم ، يبيتون
 الموت للحياة .

ماذا أفادوا الآن ؟ إنهم هم أنفسهم يعيشون في الظلام كالحفافيش . إنهم
 يخافون على حياتهم الرخيصة ، فيطفئون النور ليلاً ، حتى لا تهاجمهم طائرات
 أعدائهم ، في حين تقف لهم على خط « سيجفريد » أرواح وأرواح ! . .
 الناس يزعمون أن من مات على فراشه لا يستحق العيش ، ولذلك قضوا
 على شبيبة بلادهم ورجالها بالفناء في الفضاء ، ليموتوا بين المدافع والزوابع ،
 ليموتوا في سبيل أطاع زعمائهم الحق ، ويقضوا في الوقت نفسه على بيوت كانت
 تعيش في هناء ورخاء .. وكانت مثل بيوتنا تهتف لشمس الشتاء ، وتحبب الضياء .



السعادة الغاربة

« إلى روح صديق « على برعى ، الذى قضى
نحوه بعد هذه الكلمة بثلاث سنوات ،

كانت سهرة عائلية أنيقة ، لانتجاوز ، من نساء ورجال ، عشرة أصحاب .
أما رب الدار فهو نموذج الرجل الوفى الكريم ، رأى الدنيا من أقصاها إلى
أقصاها ، ولم يشعر بالسعادة الحقة ، حتى تزوج من تلك المصرية التى كانت فى
باريس ، هذا الصيف (صيف ١٩٣٩) ، تلفت الانظار بجبالها الشرقى العريق ،
ووجاهتها ، واحتشامها . وكل أصحابها على هذا المثال . لذلك سعدت النفس
بالعيش ساعات فى ذلك الجو الحار ، الفياض بالمودة والذكاء ، والأحاديث
الشجية ، والذكريات التى تحيى موات القلوب .

ما أقرب الهناء إلى الناس ، وهم يحرقون الأرض فى البحث عنه ! إنه
هنا كما رأيته بالأمس ، فى مثل هذه الأسرة التى جمعها الحب . شخصان انسجمت
منهما الروح ، فتعاونوا على حسد الزمان ، وانتصرا على تفاهة الأيام ، وجعلا من
التعب والعناء مرحاً ، ومن جهد الغربة مزاجاً ، ومن مشاق السفر مزاحاً ،
ومن العودة إلى الأوطان حناناً . . .

اجتمعنا إلى المائدة ، البسيطة بساطة تشهى الشبعان فى الطعام . . وتذوقنا
صحناً من الأرز المغفل بالصنوبر ، طهاه صديقنا رب البيت بيده . فهو فى هذا
يفوق طاهيه ! . . فقد عاش زمناً طويلاً أعزب ، وعلته العزوبة الطويلة الطهى
الشهى ، وعلته كيف يقدر بعد ذلك حياة العائلة ، فيحترمها ، ويدخل عليها
قنونا من المرح والمسرة ، هيهات أن يعرفها إلا من عاش عيشه ، وتغذب
عذابه . فالهدى يصدر عن الحيرة ، كما تصدر اللذة عن الألم .

لأنى أحب هذا البيت . ولا ترجع صداقتى لأهله إلى سنوات طويلة ، بل إلى شهور قليلة ، فقد تعرفنا فى باريس ، وباريس بين السلم والحرب . ورأينا معاً باريس فى النور ، ثم فى الظلام . ولكن نفوسنا المثلهفة إلى معين الصداقة الخاصة ، لم تسكن بحاجة إلى دهر طويل .. كانت مستعدة .. كانت تبحث بعضها عن بعض .. كانت تمنى مثل هذا اللقاء والإخاء .

الأمزجة واحدة . فلو أسست يوماً بيتاً لاقتبست من ذوقهما : كل هذه اللوحات تتحدث عن البحر ، ولا تتحدث عن شيء سواه .. حتى « الزهريات » الضخمة الفخمة قد رسمت عليها أمواج البحر وسفنه ! لا أشخاص ، ولا أحداث ، ولا مناظر .. لا شيء إلا البحر ! فى لوحة المزاج ، وانسجام الطبع ! .. فالبحر من أصدقائى أيضاً ... رحت أدور حول البيت ، وأقف أمام كل لوحة : هذه مراكب فى ضوء القمر تسير فى سلام المساء .. وهذه « جندول » البندقية مسرح الحب والخيال تذكرنا بصاحب أغنياتها الخالدة « الملاح التائه » .. وهذه قوارب صيد تعبت بها الأمواج عبث الأطفال برمال « البلاج » .. وهذه مراكب نشرت قلوبها مع الهواء ، ورفعت رأسها كبرياء ، كأنها تسجل انتصارها على الماء .. وهذا بحر خضم هائج يحلو بعده الصفاء .. وهذا كوخ صغير تنضج جذرانه بالسعادة ، ويفوح منه شذى الهناء ، على شاطئ البحر .. فكأنما هو بيت « على » ، و « زينب » ، على شاطئ الحياة ! ..



عود إلى التاريخ...

عدت أمس إلى القرن السابع عشر ، أطلع الكتب القديمة ، وأسألها تفسيراً عن حياتنا الجديدة الحزينة ، في وسط هذه المعامع والمعارك والنيران . فوجدت في « السياسة مأخوذة عن الكتاب المقدس » صورة مروعة للعاهل الألماني ، كأنها كتبت عنه ، بقلم « بوسويه » في معرض حديثه عن « الطماع » منذ ثلاثمئة عام :

«... إنه يزعم أن كل شيء له . فبالشعب أن يخرج من تحت جناحه . فإذا رفض نيره ثارت كبرياؤه . لا يتحدث عن المهاجمة ، لاعتقاده أن له الحق الشرعي في كل شيء ، ولا اعتقاده أنه الأقوى ، لا يرى في نفسه المعتدى . ويسمى غزو بلاد الشعوب الحرة دفاعاً عن النفس !

« أما المحافظة على الحرية ضد أطماعه ، فهو يعدّها تمرداً وخروجاً عليه ، فلا يذكر إلا الانتقام .. وليست الحروب التي يعلنها فتشعب على يده إلا عقاباً عادلاً للمتمردين » .

« وهذا المفتون ليس بحاجة إلى استشارة .. وليست جماعة مستشاريه إلا صورة زائفة ، لتعلن بطريقة مشهودة ما اعتزم أن يضعه سلفاً موضع التنفيذ . « وتعرف في ملامحه الأخرى أنه لا يؤمن بالله ، ولا يحترم الناس . هذا هو خلق الطماع الغازي الظالم . وقد يفلح زمناً . ولكن الويل له ! .. لسوف تسوءه أزمان ! »

أى كاتب من كتاب اليوم يستطيع أن يصور الهر هتلر بأبلغ وأبدع من هذه الريشة ؟ !

وتوجد أحكام ، ليست دون هذا الحكم قسوة ، على مواطني هتلر ، الذين يذهبون إلى الموت كما لو كانوا يقصدون المسرح . وليست العبرة في هذه الأحكام أنها صادرة من إنجليز أو فرنسيين ، بل من ألمان أيضاً يشار إليهم

بالبنان ، مثل « هنرى هاينى » و « فردريك نيتشه » . فهائى الكاتب الشاعر الرقيق لم يستطع أن يعيش ويموت إلا فى باريس ، لأن بلاده سممت ينابيع حياته . وقد صور شعبه فى أبشع صورة ، وتهكم عليه تهكماً مريراً : فى ملبسه ، وفى مشربه ومأكله ، وفى عاداته وتقاليده . واسمع إليه مثلاً مما يقول عن ألمانيا والألمان :

« فى هذه البلاد يطلقون : « الذاكرة » على « الذكاء » . فهم يحفظون كل شيء عن ظهر قلب ، من ملوك روما إلى المناورات الحربية ، ومن الرسم إلى الألعاب الرياضية ! . ويأخذون هذا كله مأخذ الجد بطريقة واحدة لا تتغير ولا تتحزب ولا تقارن ، كما يأكلون قطعة من الأرنب أو يعزفون لحناً من الموسيقى ، ولم يكن هنرى هاينى مع ذلك شاعراً خيالياً يتيه فى بيدا الأحلام . . فقد كان أيضاً من أبعد سياسي العالم نظراً ، عندما رأى فى عام ١٨٥٤ الجامعة الألمانية ، من أساتذة وطلبة ، تتجه إلى فرض حقوق للشعب الألماني لاحد لها . نخشى هاينى مغبة هذا الطموح ، وهو يعرف شراهة مواطنيه ، فلم يتردد فى أن يعلن أن اليوم الذى تتسع فيه « بروسيا » ويعظم شأنها سيكون يوماً أغبر : « سيكون حكم الشؤم والكذب والاعتداء » . . .

ولم يكن نيتشه أشد اعتدالاً من صاحبه . فهو أيضاً قد كتب : « إن الروح الألماني هو عندى جو مرذول ، أستنشق فيه رائحة كريهة ، صادرة من كل قول ألماني وحرارة ألمانية . ولم يعرف الألمان قط كيف يجتازون امتحاناً عسيراً ، كامتحان القرن السابع عشر ، الذى اجتازه الفرنسيون ، فكان منهم « لارشفوكو » و « ديكارت » ، اللذان يمتازان باستقامة الفكر وصفاء الروح ، مرة أكثر من طلائع المفكرين الألمان . .

كان نيتشه ، صاحب هذا القول ، فناناً جريئاً ، لا تقف جراته فى القول عند حد ، ماذا تراه كان يحدث لو وجد فى عهد النازية الهتلرية ؟ ! . هو الذى كان أيضاً ، فوق هذا كله ، يحب يهودية فنلندية حسنة ! .

القس الطيار

ذهب ولم يعد !

كلمة جاءت في برقية بإحدى الصحف الفرنسية التي يحملها البريد فنقرأها صلة ورحمة .. أثرت في نفسي كثيراً ، وأعادت إلى ذهني الساعات الأولى من هذه الحرب المنحوسة ، التي أشعل نارها رجل منحوس ، جاء على الدنيا نقمة . وخلاصة البرقية : أن « برنار جوفروي » الذي كان والده من قواد الجيش ، قد درس الطيران ، وصار ملازماً طياراً ، ثم دخل الدير ، وأرسلته هيئة الآباء الدومينيكيين إلى روما ، حيث أتم دراسات عالية ، وعين أستاذاً في جامعة روما . فلما نشبت الحرب عاد إلى وطنه ، والتحق بفرقة كضابط طيار . ونظراً لثقافته الواسعة عرضت عليه الحكومة وظيفة كبيرة في السلك السياسي ، فرفض ، وآثر ساحة القتال . وفي ٣٥ نوفمبر الماضي جاء الدور على ضابط له ثلاثة أولاد للقيام بمهمة استكشافية خطيرة ، فتطوع الأب « برنار جوفروي » للقيام بها بدلاً منه . فسمح له بذلك . فذهب .. ولكنه لم يعد ! ...

هذا ما قرأته ، وتأثرت به ، لما فيه من نبالة وتضحية .. وتأثرت به أيضاً إذ تذكرت يوماً من أيام سبتمبر الماضي ، بعد إعلان الحرب ، إذ كنت قد ذهبت أستاذة البوليس في إرسال برقية إلى مصر ، قبيل عودتي ، وحان موعد الغداء ، قرب محطة « سان لازار » . فدخلت مطعماً قريباً من تلك المحطة ، التي كانت تبيع بالضباط ، والجنود ، والعاملات المسرعات إلى الضواحي ، وباعة الصحف تتخاطف الأيدي صحفهم .. فوجدت المطعم شديد الازدحام ، وهناك مائدة صغيرة زهد فيها الناس لتعرضها لدخول المطعم ولفح الهواء ، فاخترتها مستقلاً بها . وكان إلى جانبي قسيس في نحو الأربعين مردياً مسوحه السوداء ،

ولكن تزين صدره أجنحة صغيرة بيضاء ، هي رمز الطيارين الحرييين . فلفت ذلك نظري . وتأملت . فإذا به رجل وسيم ، يأكل بهدوء وأناة وتأمل ، وفي شبه وجوم وإشراق معا . فقد كنا جميعاً في مأتم الإنسانية . وكنت أفكر في رجل الدين هذا والأجنحة التي يحملها على صدره رمز التضال الديني . فهو لم يسلم من المعركة ، ولم يهرب تحت ثوبه الأسود من واجبه القومي . بل عاش في وقت السلم مترفعاً عن ملذاته ، فلما أعلنت الحرب جاء يخوض غمارها ، ويلقي أخطارها ، ويصطلي بنارها . . .

ولقد هممت بأن أحدثه .. ولكنني ذكرت أنني أجنبي ، وفي حالة الحرب .. قترفت عن مواطن الشبهات ..

ذهب ولم يعد ! . . .

من يدري !؟ .. ربما كان رفيق الطعام يومئذ هو ذلك الشهم الجري ، الذي نزل عن الحياة راضياً ، من أجل والد ثلاثة أطفال .. وذهب إلى الموت .. ولم يعد ..

فسلام على تلك الأجنحة البيضاء ، تزين تلك المسوح السوداء .. يالها من رمز جميل على أن حب الوطن من الإيمان ! .



رسالة المرأة

ربما زعم كثيرون منا ، نحن البعيدين كل البعد عن الحرب ، نحن الذين نتتبع النضال في البر والبحر والجو ، باهتمام شديد ، ربما زعمنا أن الحرب هي حصون ومدافع ، وهي بوارج وغواصات ، وهي مناطيد وطائرات . إن الحرب تختلف ، في جوهرها ، عن ذلك كثيراً . فليس عدد القنابل والمدافع والطوربيدات والطائرات هو الذي ينتصر وحده . إنها الروح المعنوية الرابضة بعيداً عن الصفوف ، في المؤخرة ، في المدن الآمنة ، هي التي تدير أيضاً دفة الحرب ، وتساهم إلى حد بعيد في النصر .

وهذه الروح المعنوية تعتمد ، إلى حد كبير ، على المرأة . فرسالة المرأة وقت الحرب لا تقل شأنًا وجلالا عنها في وقت السلم . بل لعلها أجل خطراً . فهي تكمل عمل الرجل ولا تنافسه ، وهي تسهر على ما يعوزه وينقصه . ولما كانت الحرب هي الشر ، فإن المرأة هي نقطة الخير فيها .

فالرجل يحول بلاده الواسعة الجميلة إلى معسكر هائل ، يجند فيه الأمة كلها ، لا يرحم الطفولة ، ولا يرفع الشيخوخة . ولكن المرأة هي الملاك الحارس لهذا المعسكر ، فهي تقف في المستشفى : تعالج ، وتضمّد الجروح ، وتطيب ، وتشفي .. وهي تقف إلى جانب مهد الطفل : تناجيه ، وتناغيه ، وتلاعبه ، وتفسيه غياب الأب ، فتصبح الأب والأم معاً .

ولقد نظر عامتنا من زمن قديم إلى الطيور في وكناتها ، ورأوا ما يصنعه الذكر بفراخه ، وما تصنعه الأنثى ، فقالوا : « الأب يطفش ، والأم تعشش » .. وهو هتل عظيم جداً في تمجيد رسالة المرأة ، فهي في وسط الحرب تفكر في السلم . إنها هي التي تدعم نفسية المقاتلين المجاهدين . إنها ، في رسالتها هذه ، أنفع

وأقوى من خط ماچينو . أى جندى ، أى بحار ، أى طيار ، يتلقى من زوجه رسالة يائسة ، رسالة حزن وبكاء ، وألم وقنوط ، ويستطيع أن يطلق النار بحذق على الهدف . . أو يستطيع أن يرى جلياً ، فى البحر ، فى ظلمة الليل ، شبح أعدائه الخائنين ، يخرجون من قلب المحيط الهائل . . أو يستطيع أن يدير محرك طائرته ببراعة ، واطمئنان ، وثقة ، ويخلق فوق أرض العدو ، ويستكشف ، ويصور ، ويدون ، ويعود سالماً غانماً ؟ !

إن رسالة المرأة نبيلة جداً ، وراء هذه الخطوط المخضبة بالدم ، الملتببة بالنار . إنها تبعث بسطور قليلة حرارة الحياة وحب الأوطان . إنها تلتطف الويلات ، وتحول الخطر الداهم إلى نزهة ، وترفع من شأن المثل الأعلى فى فؤاد الرجل ، فيعرف ما يهدد بلاده ، ما يهدد زوجه وولده ، إذا لم ينتصر . . .

تقول الكاتبة الفرنسية الشهيرة « مارسيل أوكير » : « إن الرجل الفرنسى هو أشد رجال العالم تأثراً بالمرأة » .

وهذه أعلى درجات الإطراء ، فإن الرجال الذين لا يحسون برسالة المرأة ، فى السلم وفى الحرب ، ليسوا أحياء . . إنهم أنصاف موتى ، إن المرأة العاقلة توحى بالعقل إلى الرجال ، والمرأة الشجاعة تجعل الرجال يستهترون بالموت . هيهات أن تنتصر أمة ليس وراء مدافعها ، وحصونها ، وبوارجها ، وطياراتها ، نساء عاقلات ، ونساء جريئات ! . .



روح الشرق

تجتاز الإنسانية الآن محنة من أشد المحن التي عرفتها ، لأن الذكاء البشري قد وجه لإهلاك البشرية ، ولأن المخلوق الضعيف ، الذي يسمى ابن آدم ، قد طغى ، وأراد أن يبلغ أسباب السماوات ، وأن يشارك الحيتان في المحيطات ، وأن يزاحم ، في نفث السموم ، الثعابين والحيت ، وأن يبذل ما آتاه الله من قدرة على شفاء المريض ، في إطلاق سحب كثيفة من الغاز ، فتصيب بالعمى والعذاب ألوف الألوف من زهرة الشباب . . .

وقفت الدنيا ، في هذين اليومين ، حبيسة الانفاس ، واجفة القلب ، تشهد مصرع بنينا ، ونضال الخلاصة الباهرة التي تنصدر الحضارة وتوجهها .

ووقف شعبنا المصري ، قلباً وقالباً ، مع قضية الديمقراطية ، لأنها قضية الحرية ، فإننا نعرف أى مصير كئيب ينتظر الأمم الصغيرة ، إذا ساد الطغيان ، وانتصر الحكم غير الديمقراطي ، وفازت دول تبحث عن التوسع الحيوى لبنينا ، وهى فى الوقت نفسه تحقر الشعوب الشرقية ، وتراها خلقت لتقدم أرزاقها وأموالها ورجالها وقوت عيالها للشعوب المختارة ، . . . !

أجل ، كان شعبنا رابط الجأش ، ينظر بثقة وإيمان إلى المستقبل ، لم ترعه تلك الحوادث الجسام التي يلعب فيها القدر بمصير الشعوب . ولم تهزه تلك الغارة البشعة التي التهمت بلاداً هي أرقى بلاد أوربا ، بين عشية وضحاها . ولم تخفه البوارج والغواصات والطائرات التي يقرأ تفاصيل التحامنها وأنباء انفجارها وضياعها . . . بل نظر بثقة إلى المستقبل ، عالماً أن الحرب سيجال ، يوم لك ويوم عليك ، وأن الذى يزعم أن الحرب من البساطة كلعب الورق ، لا يعرف ما هو الويل وما هو الشر .

ولم يكن إيمان شعبنا راجعاً إلى الخفة أو الاستهتار وعدم تقدير الأشياء ووزن الأمور . فهو يعلم تماماً خطورة الموقف . ويدرك أن مصيره مرتبط بمصير حلفائه . ويفهم أن كفته وكفتهم هي الراجحة ، مهما يتلبد الجوبالغيوم . إن عظمة الحرب تنفع هذه البلاد ولا تضرها . إنها ستجعلنا أقوياء بجيشنا ورباطة جأشنا وروحنا المعنوية الممتازة ، ستجعلنا متحكمين في مصيرنا ، مسئولين عن كياننا . . . وتجعل حليفنا ، بريطانيا العظمى ، ترى إلى أى حد بلغ وقوفنا معها في كفاحها ، مختارين لامكرهين . ولولا ذلك لسيطرت على الماديات ، ولما استطاعت إلى الروحيات سيلاً . . . في حين أننا في هذه المحنة نقف بشجاعة واطمئنان وإيمان ، لأن الله لن يخذل قضية الحرية ، ولن يسلط على الأرض ومن عليها رجلاً واحداً ، طاغية ، يريد أن يخضعه لإرادته ! . . .



أسبوع الآلام

يحتفل إخواننا المسيحيون « بأسبوع الآلام » ، وهو الأسبوع الذي يعد مرحلة حاسمة في تاريخ حياة البشرية ، إذ عذب فيه السيد المسيح عذاباً أليماً في سبيل أداء رسالة عليا ، هي : رسالة السلام والتضحية .

فبعدما دخل أورشليم يوم الأحد ، من أول ذلك الأسبوع ، دخول الظافرين ، ينثر المخلصون في طريقه الزهور ، ويفرشونه بسعف النخيل ، الذي رأيناه أمس في أيدي الأوانس التقيات ، رمزاً لهذه الذكرى المجيدة . . وبعد أن خطب خطبته المشهورة التي قال فيها : « يا أورشليم . . يا أورشليم . . يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين ! . . » ثم ذكر سامعيه بأنه يريد أن يجمعهم كما تجمع الدجاجة صغارها تحت جناحها . . . بعد هذا كله لم يكن أحد يتصور أن الخيانة قريبة ، وأن « خميس العهد » غير بعيد ، وأن أقرب المقربين إلى السيد المسيح هو الذي سرعان ما طعنه من الخلف . . أو كما قال عليه السلام : « قبل صياح الديك . . . ! » . .

رايت أمس هؤلاء الأوانس التقيات يحملن سعف النخيل ، وبأيديهن الشموع ، قد خشين عليها نفحة النسيم . . رأيتهن يصلين مبتهلات إلى الله ، في ذل وخشوع ، أن يملأ أيامهن بنفحة السعادة والسلام .

وإلى الجانب الآخر من الأرض ، تدوى المدافع ، فتدك البيوت الآمنة ، وتشرد النساء والأطفال . وتتركهم بلا أزواج ولا آباء ، وتحرمهم كل ما كانوا يتمتعون به من طمأنينة وصفاء .

هؤلاء المتحاربون يكادون يكونون جميعاً من أتباع السيد المسيح . . . فهل ذكروا الآن أسبوع آلامه ؟ . . هل ذكروا ماذا أصاب الغلام ، من

الخارجين على رسالته المتمردين على دعوته ، الناكرين تعاليمه وتضحيته ؟ .. !
إن أوروبا المسيحية قد استأثرت بلها المادة ، وسلط عليها من أهلها طغاة
مستبدون ، بلا قلوب ولا شعور .. نسوا رسالة المسيح ، وأوقعوا العالم كله ،
في أسبوع الآلام ، في آلام .. نعرف كيف بدأت ، ولانعرف كيف تنتهى ..
فلعل الله يتقبل دعاء الأوانس الطاهرات ، في هذه البقعة الطاهرة من
الأرض ، على ضفاف النيل ، فيمسح بيده العلوية دموع البشرية ، ويضمّد
جروح الإنسانية ، ويعيد السلام إلى الأرض ... !



نبوءات

لم يعد القانون الدولي إلا ورقة صفراء تذرؤها الرياح... فإن رجلاً طاعياً قد حكم على الشعوب المسالمة، التي يضمن هذا القانون حيادها، بأن تحارب مع حكومة النازي، أو تصبح ضحية لها.

يقولون: إن الناس من خوف الفقر في فقر. وهو ما ينطبق على تلك الشعوب الصغيرة، التي غالت أشد المغالاة في الاحتفاظ بحيادها، فكانت النتيجة أنها أول من التهمت بالحرب، واشتعلت بنارها. فإن ما أصاب هولندا وبلجيكا ولو كسمبرج، لم يصب قرية في إنجلترا أو فرنسا نفسها.

وليس يجهل هتلر ضعف تلك البلاد المحايدة في استعدادها، لأنها كانت كلها تعمل للسلم، في الوقت الذي تعمل فيه ألمانيا للحرب. ولو أن هذه الشعوب القليلة العدد والعدة قد انضمت من اليوم الأول للحلفاء، وانتصرت بشجاعة لقضية الديمقراطية، لشغلت ألمانيا في ميادين مختلفة في وقت واحد، ولا استطاعت كثرتها أن تعمل عملاً خطيراً.

وليس يخفى أن شعور شعب كالشعب البلجيكي، الذي لقي الولايات من الألمان، هو مع الحلفاء طبعاً... ولو أن الملك «ألبرت الأول»، كان حياً، لما تردد يوماً واحداً في أن يقف في الحال مع الجبهة الديمقراطية، وها هو ذا خليفته يقود اليوم جيشه، ويسير على رأسه، بالرجولة التي عرفت عن والده.

وما أصدق ما قالته في هذا المعنى، في الشهر الماضي، جريدة «تلغراف» الهولندية:

«إن البلدان المحايدة، بعد أن تجردت، إلى أقصى ما في وسعها، من سلاحها، قد ظلت تتفرج، في موقف سلبي، على الحرب الروسية الفنلندية،

وأرادت بذلك أن تقاوم بأى ثمن دخولها الحرب ، ولهذا السبب عينه أصبحت
فى أتون الحرب من رأسها إلى قدمها .

إن الشعب البلجيكي الباسل لم يكن فى الحرب الماضية مستعداً للقتال ، بل
أخذ على غرة .. ومع ذلك وقف فى وجه الطغاة الألمان ، بكل شهامة ، وعطل
غزوتهم الهائلة على باريس . وهو اليوم ، وقد عاش ثمانية أشهر كاملة ، فى منطقة
الخطر ، فى منطقة النار والدم والموت ، سيعرف كيف يدافع ببسالة عن عرينه ،
مهما يصبه من ويلات ... فهو يعرف أيضاً أن هتلر قد أدرك أن كل يوم
يمضى عليه يزيده ضعفاً ويزيد الحلفاء قوة ، فأسرع كالرجل الذى بيده مسدس
وأصابه مس ، يطلقه على كل من يلقاه فى الطريق ...

إن القوة وحدها هى التى سترد إليه صوابه ، فيدرك إلى أى حد قد أضاع
بلاده ، بعد أن خرب نصف الأرض ...

[الأهرام : ١١ مايو ١٩٤٠]



شرید

كانت الظلمات تسكّاف ، كالهجوم التي تتوالى .. وكان وحيداً .. كان في تلك الليلة بلا صديق ، ولا رفيق .. فدخل مطعماً .. فإذا بالأوراق الزرقاء تخفق المصاييح ، وتسكّم أنفاس النور ... والموائد والمقاعد خالية ، تحدث فيما بينها عن ضيق صدر البشر بمظاهر الخوف والخطر . ولم يكن هناك إلا اثنان يستعينا على الطعام بالشراب ، ويستعينا على الشراب بالطعام .

فبدا له الطعام بلا طعم . فشرب كأساً واحدة ... أراد أن يغرق فيها أحزانه ، فإذا بها تخرج له أشباحاً عدوة وأشباحاً صديقة ... فراح يجمع بين من أحبه ومن كرهه ، على صفحة الطعام .. واتسع صدره ، في ذلك الضيق الشامل ، للحب والكره معاً . والتمس المعاذير لمن أحبه ثم كرهه ، ولن كرهه ثم أحبه ، ورآهم جميعاً على حق !!! .. وتساووا عنده ، في تلك الساعة ، كما تستوى الأشباح في الظلام ...

إنه الآن بلا بيت ، ولا حب ، ولا رجاء .. إنه يعيش لنفسه كل يوم ، يموت كل يوم . قد يضحك ويلعب ، ويدعو ويدعى ، ويمزح ويمرح ، ولكن بغير قلب .. إن قلبه خفق بحب شخص واحد ، هو أقدس شخص للإنسان وأصدق حباً ، وهذا الشخص لم يعد الآن من هذا العالم . إنه كان يحبه حباً لا آخر له ، فلما مات عنه مات قلبه ، وأغلق بيته ، وعاش كالعرب الرحّل في خيمة : يوماً بشرق ، ويوماً بغرب .. وهي عيشة حزينة ، ولكنها جريئة .. إن الوحدة تتطلب الجرأة ، حتى يقابل بها المرء ضجر النهار ووحشة الليل ... والرحيل يتطلب الجرأة ، حتى يقابل بها المرء رزق النهار وسمير الليل ..

إن من عاش بهذا الحب العظيم لم يعد يرضى « بالدلع » ، والتفاهة . ومن كان له بيت مثل بيته ، كله نور ، وكله حبور ، لم تعد تخيفه ظلمات الطريق ، أو يزججه الحرمان من الرفيق ! ..

التاريخ يعيد نفسه

مئة ألف شاب هولندي ، راحوا ضحية الهر هتلر ، في ثلاثة أيام . . ماذا يمكن أن يصيب هذا الرجل من الولايات إذا تقبل الله دعاء أم واحدة من أمهات هؤلاء المئة ألف شاب ؟ . . هل يمكن أن يكون الله قد تخلى عن هذا العالم ، وتركه هكذا للويل والفناء ؟ !

ومع ذلك لايجوز للذين يؤمنون بالحرية أن يقنطوا من رحمة الله . فقد مرت بأوروبا أيام أشد سواداً من هذه التي تجتازها الآن . وينصح « أندري موروا » ، الكاتب الرقيق ، مواطنيه بالنظر في ما كتبه « مورييس بارس » عن الحرب الماضية في مقالاته . فهو قد فعل يوماً بعد يوم ، في أشد الأيام مخنة ، المعجزات ، التي لا يستطيع أن يؤديها غير رجل الأدب ورجل الصحافة ، إذا اجتمعوا في كاتب واحد . لأنه يستحيل على الصحفي ، مهما يكن قديراً ، أن يخلق إلى ما يصل إليه الصحفي عند ما يكون رجل أدب . إنه كفيل بأن يرفع الروح المعنوية لبلاده ، من حيث لا تشعر بأنه يدعو بدعاية معينة . إنه في الوقت الذي يرداد فيه دعاة التردد والهزيمة ، دعاة الضعف والانحلال ، يبرز بقوة وجلاء ، ويجمع الصفوف ، ويوحد الهيئات ، ويضاعف الآمال . إنه يصبح أحد أعمدة الثقة والظفر . . فأى دور يمكن أن يعد أبدع وأروع من دور الأديب الصحفي في أوقات المحن والتجارب ؟ !

ماذا كان يقول المنشأتمون في عام ١٩١٥ ؟ كانوا يصيحون بأن : « ألمانيا تحتل عشر مديريات في فرنسا . . والروس يتفقهرون ، ولم يعد لهم جيش ، ويستسلمون بالملايين . . والبلدان البلقانية تموت خوفاً ورعباً ، فهي أقرب إلى صفوف الأعداء منها إلى صفوف الحلفاء ، فتتضم فعلاً إلى الأولين . . وخريطة

الحرب تعلن انكسار فرنسا وانجلترا ، ولا شك

أما الأديب الصحفي « مورييس بارس » فقد رد على ذلك منذ ربع قرن ، فقال : « إن الألمان يتظاهرون بوضع معاهدة الصلح وفاق شهواتهم ومطامعهم على خريطة العالم . بيد أن معاهدة الصلح لن تتم إلا وفقا لإرادة الجانب الذي يكسر ويهزم قوى خصمه في النهاية . وإذا كان الجيش الألماني يحتل صربيا ، ويتصل بالقسطنطينية ، فهذا لا يدل على أنه يملك آسيا . فالعبرة بالنتيجة ، والفوز لمن يحفظ التوازن في قواه حتى اللحظة الأخيرة . »

فهل كان « بارس » يومئذ متفائلا ؟ ! أجل . . ولكنه التفاؤل الحكيم الذي برره الزمن ، لأن ألمانيا ، رغم ظفرها وانتصارها الباهر ، في الفترة الأولى ، قد خسرت الحرب ، وأذعنّت لإرادة الحلفاء في طلب الصلح . وما ينبغي أن تبدله أمة في الخارج يجب أن تبدل مثله في الداخل ، فتشد أزر شعبها بكافة الوسائل ، وتقوى روحه المعنوية ، يوماً فيوماً ، ولا تضع في رأسه إلا فكرة السير بالحرب إلى غايتها المعقولة ، والمحتمة ، وهي فوز الحرية . والمحايدون الذين دفعوا أمس ثمناً غالياً لخوفهم وترددهم ، هم عبرة لمن اعتبر ، فقد آثروا التفرج على « غزوة العالم » ، فصاروا أول ضحايا هذه الغزوة ، وكانوا وقود النار . . .

[الأهرام : ١٧ مايو ١٩٤٠]



المرأة في الشرق

يكاد قلب الرجل الجبار ينفطر ، عندما يسمع بعصاة إفساد أخلاق الغلمان ،
التي رددت أمرها الصحف ، وأجمعت على بشاعة ما وقع .
وهذا الشر الويل ، المتخلف لنا من أقدم الأجيال ، ينتشر في البيئات
الشرقية ، المحرومة من وجود نصفها الأفضل .
انظر إلى أى مجتمع عام ، تجد الأوربي مع زوجه وأولاده ، وتجدنا قد
هللنا المكان رجالا في رجال !

بل انظر إلى أى رجل يسير مع سيدة ، قد تكون زوجته ، أو خطيبته ، أو
شقيقته ، أو حتى حبيبته ، تجد العامل يترك عمله ، والتاجر تجارته ، والذي يقرأ
الجريدة يدعها ، والذي في سيارة يطل منها ، وجميع الذين في الترام يلتفتون
خلفهم . والخلاصة : أن أى رجل مع امرأة في الشارع ، أو في السيارة ، هو محل
الشك ، والريبة ، والاتهام ، وموضع الغرابة ، بل أهم أسباب القيل والقال !..
نجد رجلا يجالس غلاماً في حانة ، ويشاربه الخمر ، فلا يلتفت ذلك النظر .
ونجد شبانا يطوق بعضهم خواصر بعض في الطرقات ، فلا غضاضة . ونسمع
بعصبات الإفساد ، فلا نحرك ساكناً ، وكأن السطو على عرض غلام كسرة
حلة أو طست غسيل !

إننا نبعد المرأة عن المجتمع ، بحجة إفساد أخلاق هذا المجتمع ، فننتظر
صلاحه ، في حين أن السر في فساد هو ابتعاد المرأة عنه ، وغيابها منه .
إن التشكك هو أول علامات النفس المريضة ، الضعيفة ، الجاهلة .
في أول عهدي بأوربا كنت لا أتصور كل ما لقيت فيها من أخلاق ،
كنت أزعج ما يزعمه أولئك الذين يشتمون الآن أوربا ، ويظنونها بغير فضيلة ،

لأن أوروبا عندهم محصورة في بعض الساقطات ، أو الكابريهات .
ومع ذلك ففي عام ١٩٢٨ كان شاب شرقي يدرس العلوم الاجتماعية ، في
باريس . فإذا جاءت الساعة التاسعة مساء ، طرقت باب غرفته - غرفة صغيرة
فقيرة ، غرفة طالب أجنبي في الحى اللاتيني - فتاة فرنسية وسيمة ، هى اليوم
من محاميات باريس المعروفات . فيتبادلان المذكرات ، تأخذ ما أخذه من علوم
اجتماعية ، وتعطيه ما أخذت من علوم سياسية ، ثم تفهمه ما يعسر عليه فهمه . .
وبعد ساعتين تخرج ، وقد يكون المطر هاطلا ، وحقيقية كتبها تحت إبطها ،
وتروح إلى بيتها . .

وكان القى الشرقى ، فى كل مرة ، ولو تحت المطر ، وفى شدة الصقيع ،
يفتح نافذته ، ويشيعها من الشرفة بنظرة أخيرة ، حائراً من كل هذه الفضيلة ،
وهذه النبالة ، وهذه الكرامة ، وهذه الشجاعة . . . متسائلاً : هل كان يزعم ،
وهو فى مصر ، أن فتاة جميلة عذراء تخرج من غرفة شاب أجنبي ، فى فندق
طلاب بالحى اللاتيني ، نحو منتصف الليل ، ولا يتهمها الشرقيون بالسوء ؟
إن سوء الظن ، وسوء القصد ، يبعد المرأة عن المجتمع ، فيظل المجتمع كله
دون المستوى الذى تتمناه له .



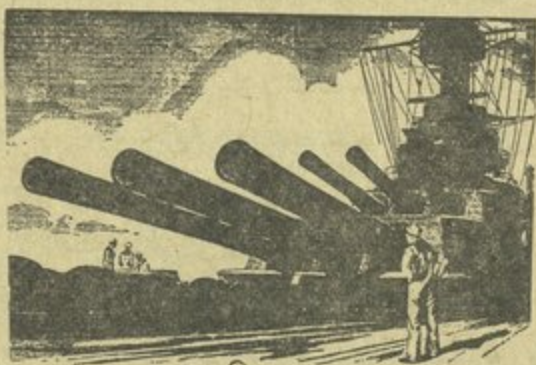
لا تذكروا الربيع ! ..

كان ذلك في الفصل الذى يزدهر فيه الربيع ، ويشرق فيه الشباب ، فى الحى اللاتينى ، قرب حديقة اللكسمبورج ، عند ما التقى ذلك الشاب الشرق بصديقه البولونية ، التى جاءت باريس فى طلب الفن الجميل .. فتصالحا .. فجاءت إليهما تجرى صبية يانعة ، وقدمت إليهما « زهور الموجيه » ، قائلة : إنها « البشيرة بالهناء » ! .. فاشتري لها طاقة صغيرة ، فأخذت منها عوداً وضعت فى عروة صدره ، ووضعت الطاقة قرب قلبها ، وهى مشفقة عليها من « الدبوس » الصغير الذى ربطها بثوبها الانيق .. وتساءلت : كيف تقسو فتجرح الزهر ، وتشك بهذه الإبرة عود الأقحوان ؟ وقالت : « ما أغلظ قلب الإنسان ! » .

لقد تذكر الآن ، بعد عشر سنوات ، هذا الإشفاق على الزهر ، من تلك الأنسة البولونية ، التى كان أبوها أستاذاً للحقوق بجامعة « لوفوف » ، وكان أخوها يدرس الطيران فى باريس ، وكانت أختها تحضر الأدب فى السوربون . أين هى الآن ؟ .. لقد مر ربيع ، وربيع ، وربيع ... وجاء على بولونيا عام لم يزهر فيه بأرضها ورد ، ولم يشرق شباب .. بل تخضبت تربتها بالدماء ، وضاع مليون من زهرة شبابها ، وتهدمت مدنها ، واجتاحت « لوفوف » ، ولم يبق فيها حجر على حجر .

أين هى الآن صديقة الحى اللاتينى ، وزميلة الفن الجميل ، وحارسة الوداد ؟ هل هى حية ترزق ؟ ومن أين ترزق ؟ وأبوها ، وأخوها ، وأختها ؟ .. أين تلك الأسرة الكريمة ، التى هى رمز ألوف الأسر البولونية ، والفنلندية ، والترويجية ، والهولندية ، والبلجيكية ، التى كانت بالأمس فى هناء شامل ، فتشردت ، وأصبحت بلا بيوت ، ولا مال ، ولا أمل ، ولا وطن ...

كان الجو في القاهرة أمس جو الربيع . كان الجو صافياً ، والهواء منعشاً .
كان كل ما حولنا يدعو إلى الرضا والتفاؤل . غير أن هناك بعض الناس
لا يحسون لهذا الجو صفاء ، ولا لهذا الربيع سناء . إن قلوبهم منقبضة بالذكري .
إن الربيع حرام عليهم والإنسانية في هذه الويلات .
لقد أنسى هذا الربيع الناس الذين يحبون السلم خطر الحرب . فأنصرفوا
يزرعون « زهرة الموجيه » ، البشيرة بالهناء ، ويتعهدون الفن الجميل ، بينا كان
أعداؤهم يزرعون الرصاص ، ويصنعون القولاذاً ! ...
دعوا الربيع يحى . ويذهب .. ولا تذكروه ! ! . انسوا نسيمه العليل ،
وزهوره الفواحة .. واستيقظوا على صوت المدافع التى تدوسى ، والدبابات
التي تزحف . وأزيز الطائرات .. فهنا ، وهناك ، وفي كل مكان ، دماء وأشلاء .
هى التى أصبحت زهور هذه الأيام ، وربيع هذا الزمان ! ..



وداع باريس

كان ذلك قبل مغادرته باريس بيوم واحد . كان يسير في شارع « موزار » الأرستقراطي الهادئ ، بعد ما ترك محطة « جاسمان » . وسأل عن سيده كريمة حرم صديق عزيز ، إذ كان يخشى عليها البقاء ، ويرجو أن تعود معه إلى الأوطان . لم يجدها في ذلك اليوم أيضاً . فصار كئيباً . وكان كل ما حوله أعصاباً متوترة ، ونفوساً ثائرة . كانت الحرب قد شبت . كان الموت قد ألقى ظله الأسود البشع على أوروبا ، فأصبحت أوروبا أشد ظلاماً من الغيايى المقفرة ، التى كان يقطع طرقها المتوحشون بالسهام والنبال . . .

وخرج ، فجأة ، من حانوت ، كلب كأنه مسعور ، وأمسك بأقرب شخص إليه ، سيده ذات ثوب زاه أنيق ، فترك آثاراً في ثوبها . وخرجت صاحبة الكلب تستدعى كلبها ، وتنهزه ، وتعنفه . .

وكانت السيدة غاضبة من أجل ثوبها ، ساخطة . فراحت صاحبة الكلب تعتذر لها بأنها كانت ساهية تفكر في أولادها الثلاثة الذين سافروا جميعاً — وهم بين الخامسة والعشرين والثلاثين — إلى الميدان . وكان هذا يكفى عذراً . فنسيت صاحبة الثوب ثوبها ، وراحت تشجع تلك الأم التى وهبت الوطن أبناءها . . .

ومضى صاحبنا الشرقى يسير ساهماً مفكراً . . يفكر في أهله ، وفي وطنه ، وفي هؤلاء الناس الذين اتخذ منهم أهلاً ، وفي هذه الأرض الطيبة التى اختارها ، إلى حين ، وطناً . . .

ورأى مكتبة في شارع موزار نفسه ، وهو طويل لا ينتهى ، فدخلها . . أراد أن يتزود قبل الرحيل من رحيق هذا الروح الفرنسى ، القوى ، الذى لن

يموت أبداً . . فاذأ رأى ؟ . إنه طلب ، دون أن ينظر إلى غير صاحبة المكتبة ، كتاب « سلطات مطلقة » لجان چيروودو . . فسمع صوتاً ، كأنه لرقته ليس من أصوات البشر ، يقول : « إذن مازلت مخلصاً لچيروودو » ! . فالتفت ، فرآها . . هذه هي الصديقة التي عرفها خريجة العلوم السياسية ، وسكرتيرة تحرير جريدة اقتصادية كبرى . وكان يدهشه أن صاحبة هذا الجمال كله قد درست هذه العلوم كلها ، وتولت بعد ذلك في الحياة العملية تطبيقها . . فتحدثا هنيهة ، وزاد ألمه .

لم يفرح بهذا اللقاء الأخير العارض ، لأنه جاء بمثابة طاقة الزهر التي يقدمها الحبيب إلى حبيبه ، عند سفر طويل ، وبعد غير جميل ، فتذبل ، علي يديه ، طوال الطريق . . .

وسألها : هل تغادر باريس إلى بيتها الصيفي ، كما كانت ترجو ؟ فقالت : « كلا » ! . إنها الآن ، وقد أعلنت الحرب ، باقية في قلب العاصمة . إن واجبها هنا . وإن تتحول عن أداء واجبها نحو الذين في الميدان . . وسيعود منهم جرحى ، هم في حاجة إلى يد تضمد جراحهم ، وابتسامة تروّح عن نفوسهم . ليست الباريسية بالطائشة . إنها أول امرأة في العالم تعرف الواجب وتقدر التضحية ، إن وطنيتها الصادقة تعمل أكثر مما تتكلم . . إنها تعيش ملء حياتها ، ولكنها تجعل هذه الحياة ، بصدق العاطفة ، وسمو الشعور ، وإدراك الواجب ، أنبل ما تكون عليه حياة . . .

وودعها ، وودعته . . وتواصيا بالصبر ، وتعللا باللقاء والنصر . وقد عاد اليوم فرآها ، بعين خياله ، تبسم من خلال الدموع ، بعد غارات الألمان الجوية الوحشية . وسمعها تقول : « ويل للألمان ! إن لهم يوماً تشيب له الولدان » ! .

عرائس البادية

وقفت بيت « مختار » (٣٠ شارع أسيوط ، مصر الجديدة) ، الذى زرت فيه قبل نقله إلى المستشفى الذى انتقل منه إلى العالم الثانى ، فذكرت ، إذ رأيت ، عجبى كيف يبق هذا الأسد طريح الفراش ! دخلت عليه يوماً فوجدته يقرأ فى كتاب « باريى » الذى ساهم فى تحريره ، وكأنه نسى مرضه وعذابه ، لأنه وجد فى الحديث شابه ! . . . ولعلت عيناه بميمعة الصبا وعزة الفتوة ، وكأن كل الحب الذى أسعده يوماً ما قد عاد فملاً قلبه ، وأجرى الدم فى عروقه ، وكأنى أرى فى عينيه أنه الآن يجرى ، ويقفز ، وينتظر ، ويلقى ، ويهنا بالحبيب !

كان أمامى طريح الفراش ، ولكن الدنيا كانت ترقص فى عينيه ، وترقص أحياناً رقصة الهنود الحمر المتوحشين حول النار ، وترقص أحياناً مثل « بافلوفا » أو « إيزادورا دنكان » ، رقصة النسيم الذى نحس به دون أن نراه . . .

كانت روحه التى أحيت فن التحت ، ووصلت مصر الحاضرة بمصر الغابرة ، كانت الشعلة التى أنارت ظلمات عشرين قرناً ، وسترت خمود ألقى عام ، كانت هذه الشعلة كأنما قد اجتمعت عليها كل الرياح لتخمدتها ، وتردها من حيث أتت ، فجعلت تنطفئ . رويداً رويداً على عين صاحبها الطريح الفراش ، يرى من فراشه الصحراء التى لا نهاية لها ، كأنها بعض آماله ، ويحلم ، ويمنى النفس : إذا نهض يوماً ما ، بأن يصور بالمرمر عرائس البادية ، حارسات الرمال وباعثات الخيال .

ولكن عرائس البادية كن يردن المثال لمن خالصة . . . كن قد غرن من « الأميرات » و « الفلاحات » اللواتى صورهن مختلر ، كن لا يردن أن يقفن فى صف واحد مع بنت القصر وبنت الريف . . . كن يردن أن يجتمعن بالمثال فى عالمهن دون منازع . . . كن يردن أن يجتمعن سرهن وسره . . .

وبعد أيام لى مختار النداء . فضمته صدور عرائس البادية ، ولعلها أكثر حناناً وأصدق ولاء من قلوب بنى الإنسان ! . . .

شرقي وشرقي

أخلاق الشعوب تقاس بأخلاق عامتها ، وباعتها . القاعدة المطردة عند الكثيرين في البيع هي الغش ، وفي الشراء هي المساومة ، كأن البائع والشاري عدوان لدودان ، كل واحد يريد أن يغنم من صاحبه ، بلا حق ، أكثر مما يمكن ، ويعطيه أقل مما يمكن .

خذوا مثلاً : بائع الفاكهة في شارع رئيسي قرب محطة الرمل بالإسكندرية ، أردت أن أتزود منه شيئاً أحمله إلى القاهرة ، لا لأن فاكهته غير موجودة بالعاصمة ، ولكن لأن الهدية تفرح .. وأنا رجل لا أحب أن أدخل البيت ، بعد سفر ، ويدي فارغة ! .. اشتريت ثلاث شمامات صغيرات بخمسة عشر قرشاً ، وأقة من الكرز بتسعة قروش ، وأقة من العنب بأربعة قروش ، وأقة من الخوخ بعشرة قروش ...

نظرت إلى الذي كان يضع الكرز في كيس ، ولم أنظر إلى الذي كان يضع الخوخ . فالنتيجة شرحتاً ! . مع أنني لم أساوم ! . فوجدت نصف الخوخ معطوباً تالفاً ، لا يليق أن يوضع في كيس ، أو أن يقدم إلى زبون ، أو أن يبق في دكان . فالبائع غشاش . والغش ضرب من السرقة . فهل يمكن أن يعد هذا البائع شريفاً ؟

خذوا مثلاً كهذا للمقارنة . ولست أريد أن أضربه في أوروبا ، بل في الشرق أيضاً .. ففي خلال رحلتنا في تركيا ، وصلنا بالآوتوكار إلى صميم الأناضول ، في بلاد فلاحين ، كالصعيد عندنا .. ولما أقننا ليلة أو ليلتين في «بروسّة» ، وكدنا ننصرف عنها في الصباح ، تفضل الدكتور إبراهيم الشوربجي بك ، وأحضر لنا سلة كبيرة من الخوخ ، تكفي عشرين شخصاً يأكلون منها

طول النهار !. اشتراها ، ووضعها إلى جانبي في الاوتوكار ، وكلفني بالتوزيع .
 « فتوصيت ، يومها بسعادة الدكتور على إبراهيم باشا ، ونجليه الكريمين ،
 والدكتور سليمان عزمي باشا ، والدكتور شوشه بك ، والدكتور محمد خليل
 عبد الخالق بك ، و « عطفت ، على الأصدقاء والزعماء الاساتذة : أشيل صيقل
 بك ، وإدجار جلاد (بك) ، وفؤاد صروف ، ومحمد عبد القادر حمزه ،
 وكوهين (البورص) ، و (المرحوم) حسين رمزي بك (التركي) .

أجل ! .. جعلت آخذ من السلة الكبيرة ، وأعطى ، باليمين وبالشمال ،
 الخوخ كالشهد .. وكنت كلما تعمقت في السلة دهشت ، لأن الخوخ يزداد
 حجماً ونقاوة ، ولم أجد خوخة واحدة معطوبة ، أو فاسدة ، أو غير ناضجة !
 فالبائع لم ينظر إلى الدكتور الشوريحي بك باعتباره أجنبياً ، ولم يعتبره عابر
 سبيل ، هو اليوم في بروسسه ، وغداً في إستانبول ، لن يعود فيراه ، ولن يشتري
 منه بعد .. ولكنه باع « بالذمة والشرف » .

أين هذا مما عندنا ؟ أين هذا من قراطيس التين الفاسد الذي « يزوق »
 بقينة واحدة ، والبقية فاسدة ، تباع علناً في المحطات ؟ أين الأمانة ؟ وأين
 الأخلاق ؟



وجه الدنيا

الساعة الثامنة مساء . المدينة مظلمة كأنها نائمة . القمر لم يطلع بعد .
الكواكب كاسفة . السيارات بنورها الأزرق ، كأنها مستشفيات متحركة .

كل شيء يقبض الصدر : ما تراه العيون ، وما تراه القلوب . . إن المحن
زادتنا إنسانية . إن محنة الحرية زادتنا تقديراً لها وتعلقاً بها . ماذا ترى القمر
يقول من عليائه ، وهو يشهد نصف الدنيا في ظلمات حالكة ، والنصف الآخر
في نيران متأججة ؟ . . إن الدنيا أصابها الجنون حتماً ، وهي تجري على هذه
الصورة المروعة من العجلة الطائشة إلى الموت ، تتعجل الموت ، تريده أن يدخل
كل مملكة ، وكل بلد ، وكل قرية ، وكل بيت . تريد أن يموت نصف الناس
بالحديد والنار ، ويموت النصف الثاني من الجوع والحزن .

من الذي سيعيش بعد ذلك يتمتع بالأرض ويعمرها ؟ من الذي يعوض
هذه الشيبة التي تعد بالملايين ، التي كانت ممتلئة قوة وحياة ، التي كانت ثروة
هائلة لبلادها وللعالم ، والتي ذبحت بلا شفقة ذبح التعاج ؟ !

نظرت إلى القاهرة الحزينة في ثياب حدادها الليلي ، وشعرت بالترف الذي
نعيش فيه . ضيقنا ذرعاً بهذه الظلمات من حولنا . فكيف بالذين هم الآن في
ساحة الموت ، يستقبلونه واقفين من قدميه ، لا يستطيعون الجلوس ، ولا النوم ،
ولا الراحة ؟ . . وقد يقضون الساعات الطوال ، بلا طعام ولا شراب ،
لا يعرفون ماذا تدخر لهم الدقيقة القادمة ؟ . . إن حياتهم قد تحولت من السنين
والأيام والساعات ، إلى دقائق وثوان !

ما أشد ما يغضب الناس ! ألوف الناس عندنا يغضبون لو استيقظوا فوجدوا
حوانيت الجزارة مغلقة ، يوماً أو يومين في الأسبوع ! . . ومع ذلك هم يعيشون

في رعد: الخبز، والخضر، والطيور، والأسماك، والفاكهة، والحلوى: هذه كلها لاحد لها!.. ولكن كيف يحرمون يوماً من اللحم؟ وما هذا الظلم؟ وكيف تطيب الحياة بغير لحم ومرق؟ ولماذا يكدون ويتعبون؟ فالجالس إلى مكتبه خمس ساعات في اليوم، لا يشتغل منها بذمة وضمير إلا ساعة واحدة، يشعر بأنه مرهق، وأنه مضنى، وأنه مغبون، وأنه محروم!.. فلا بد له من الفطور الدسم، ومن الغداء الشهى، ومن نوم بعد الظهر، ومن لعب الطاولة، ومن شرب الخمر في المساء، ترويحاً للنفس من عناء الاعمال! ولا بد له من ثلاثة أشهر إجازة في السنة!..

سيغير وجه الدنيا. لن يبق فيها بعد هذه الحرب هذا التواكل وهذا الخذلان، لن تبق أعمال الحكومات وأعمال الجماعات والأفراد على هذا النحو من الخمول والتشاغل والفوضى.

إن هذه الحرب هي السوط الناري، الذي يلهب ظهر الدنيا الكسول، لتستيقظ من سباتها، وتطلق الكثير من نزقها وشهواتها، وتولى بجد وحزم أمور بنها وبناتها.



عند ما يلتقي الشرق بالغرب

جاء متأخراً ، كعادته ، في ليلة رأس السنة ، إلى تلك الحفلة الصغيرة ، المقصورة على عشرة أشخاص من الجلسين . كان لا يعرف منهم إلا أهل الدار ، الذين اتصلت صداقتهم به عشر سنوات ، لا يفعلون فيها مرة عن دعوته إلى قضاء ليلة العام الجديد معهم ، وكان كثيراً ما يعتذر بسبب الحداد ، أو المرض ، أو العذاب النفسى الذى يطغى عليه عادة في الأعياد ، فلا يحب أن يطلع عليه أحداً ، ويخفيه في حجب الظلمات ، أو الحياء ، لأنه ، رغم جرأته في جانب من حياته ، يعد شديد الحياء في جانب آخر ، لا يجد له تفسيراً ولا تأويلاً . أما في هذه المرة فقد أمسكوا به قبل الموعد بساعتين ، فانساق ، شاعراً بالارتياح إلى أصدقاء أعزاء ، يذكرونه بأعراس الناس عليه ، الذين كانوا يحبونهم أشد الحب ، وقد مضوا الآن عنه وعنهم ، لا يحضرون حفلاً ، ولا يلبون نداء . . .

كان المدعوون من كل أركان الأرض : شيخ من رجال المال والأعمال من باريس ، وعالم من أمريكا ، وقسيس إنجليزى ، وشاب وزوجه صارا مصريين بمولدهما ، وسيدة سويسرية وكريمتها الشبيهة بزهرة الغاب في نضارتها ، وربة البيت التى جمعت إلى جاذبية الشرق احتشامه ، وطيب جراح يقضى أسعد أوقاته في مستشفى ، وكاتب يبحث عن خيالات وخواطر ، ويمزج الأوهام بالحقائق ، ويلون الأشباح الهاربة بلون مزاجه ، كما تلون الشمس ، في شروقها وفي غروبها ، السحب الراكضة في فؤاد السماء . . .

وكان الشراب ، كالناس ، من كل البلدان : بعثت إسبانيا بتلميذها المعتق ، وأرسلت أسكتلندا خمرها المشهورة ، وقدمت فرنسا رحيق الشمبانبا الذى يتسم به ثغر العيش . . فشرب من شرب ، واعتذر من كانت عقيدته ، أو كانت صحته ، تأبى عليه الشراب .

وكان الراديو يتغنى ، من أوروبا ، بأشجي الألحان .. وكانت كل ألحانه نداء
حاراً قوياً إلى النسيان .. كانت أنغامه تتلاعب بأوتار القلوب ، تأمرها بأن
ترقص ، وأن تخفق ، وأن تنسى ، وأن تحب ...

فاستجابت الأيدي والأقدام إلى دعوة الرقص ، بعد أن هفت النفوس
إلى الخصور تجذبها بالبنان ، والحنان ... وامتدت الموائد الأنيقة ، وتعددت
ألوان الطعام ، كل لون يزيد المدعويين إغرام ، كأبه ينافس سابقه ، ويتحدثي
لاحقه . وأرغت الشمبانيا وأزبدت في قلب الكأس ، كأنها هي أيضاً تحس
بالحرارة والحياة ، كأنها هي أيضاً فؤاد يتعذب ، ويتمرد ، ويشور ...

وحملت ربة الدار إلى ضيوفها « خراطيش » البخت ، تنطلق فإذا بها
وريقات من الشعر تنطق بالخط والمصير ، وإلى جانبها أوراق أخرى تتجول
إلى « طرايطر » .. فلبسها المدعويون .. تنكروا للحياة ، لأنهم كانوا بحاجة
إلى نسيان الحياة ، ففسوها لحظة ، ثم ذكروها بالرجاء .. ذكر الشيخ الفرنسي
زوجته الغائبة ، وتمنى لها الهناء ، وله قرب اللقاء . ونظرت السيدة المضيفة إلى
محميا ولدها الصغير ، وغمرته بالقبل ... وأمسك العروس الشاب بيد عروسه
الشابة ، وضغط عليها موثقاً للوفاء .. ونظرت الأم السويسرية إلى جبين بنتها
القائنة ، ثم إلى عينيها الزرقاوين ، ثم إلى وجنتيها الورديتين ، ثم إلى تقاطيع
بدنها المثالية الجمال ، ولعلها عندئذ دعت لها ، أو تساءلت : في أي ركن من
العالم سيكون مصيرها ، ولمن ستكتب بقثها في الرجال ؟ وراح الطبيب الجراح
يستأذن في الانصراف ، لأن وراءه في الصباح المبكر مرضى سيجرى فيهم
مبضعه ، وينزع من أبدانهم بالسلاح كمين الداء .. وبقى شاب مغامر حائر ،
لم يتزوج حتى الآن ، مع أنه يتصف على الثلاثين ، لجاء يسأل الكاتب : ماذا
يفعل ؟ وكان الكاتب غارقاً في أمواج العام الجديد ، فتنبه .. وراح يسبح إلى
الشاطئ ، فارتطمت يده بحافة المائدة ، فنظر إلى صاحبه ، وقال : تزوج يا أخي ،
فلن يزداد عدد السعداء ، ولن ينقص الأشقياء عدداً ! ..

روح حائر

أيها الرجل المعذب ، إلى متى تظل تسير في فياقي المجهول ، حاملا أثقال
الأماني والهموم ، التي تنقض ظهرك ؟

متى تلقى عصاك ، وتستقر بك النوى ؟

إنك أنت نفسك تعجب من طموحك .. إنك تجرى وراء خيالات غريبة ،
لا تكاد تبلغها حتى تسبقك في ذلك الأفق ، في ذلك السراب .. إنها خيالات
سحرية ، تبدو من بعيد جميلة ، وهي تعلم أنها ليست من الجبال بحيث ترضيك
وتستهويك .. فإن الجبال الذي في رأسك ليس له شبيه ، وليس له وطن ، ومن
هنا جاءت حيرتك ، وجاءت ، في وطنك ، غربتك !

لست طالب مال . فإن المادة لم تكن يوماً ما هوايتك . فقد جرى
الذهب بين يديك ، وتناثر تحت قدميك ، فلم تقبض عليه يدك ، ولم تغلها إلى
عنقك . بذلت كل ما امتلكت ، ووهبت كل من عرفت ، وأعطيت كل من
سأل ومن لم يسأل . ولم تعرف يسارك ما منحت يمينك . ولم تكترث بمن أخذ
بحق ، ومن استغل باطلا .

أنت روح حائر ، يبحث عن أرواح حائرة . جسدك مسكين ، لأنه الضحية
التي تبذلها على مذبح الروح ، فهو عليك هين .. أما روحك ، فهو العزيز
المنال . أنت تضعه في برج عاجي ، تفخر به ، وتتكبر ، وتتجبر ، لا يقنعك
ما يقدم إليه من آلاء العجب ، والصيام في رجب ! ! .

حيرته : سر شقائقك .. وأنت تعتبرها سعادتك ! ! .

أتذكر إذ مررت أمس ، أيها الروح الحائر ، في شارع الأهرام ، والجو
غام ، الجو الذي تحبه ، الجو الذي يذكرك بأن الدنيا ليست مجردة عن الصداقة

الخالصة والمحبة الطاهرة ، والسماء توشك أن تبكى لبكاكك الحبيس ، الذي تهم به ،
وتخجل منه .. هناك ، إلى اليمين ، تترامى الحقول المستوحشة ، بين القبيلات
الفضمة .. هناك ، إلى جانب حديقة من البرتقال والليمون ، ورائحة الزهر تملأ
القلب عطراً ، ورائحة العشب تطهر الصدر من رائحة البشر .. هناك ، كانت
أكواخ حقيرة ، أمامها نسوة ، في خرق سوداء ، لا تمكّد تفرق في لونها عن
الماعز التي حولها .. وعلى عيدان من الحطب قدر تغلي ، يتصاعد دخانها من
بعيد .. فدهشت من كل هذا السلام والصفاء ، بين كل هذا الفقر والاكتفاء ..
إنك ، مع ذلك ، أيها الراعي المهدب ، لن تضع عصاك ، وتستقر بك
الأيام .. ستظل حائراً بين عذارى أحلامك ، وغواني هواجسك ، في مهرجان
تسكّر فيه الناس ، وأنت لجرأتك وصراحتك ، تسير بملايسك ! ..



سيعود الربيع !..

أسبوع عيد الميلاد ورأس السنة هو عندي من أجمل الأسابيع الهبيجة في العام كله . هو أسبوع البر والعطاء ، وأسبوع التقى والرجاء ، وأسبوع اللقاء بعد العناء . مائدته حافلة بزاد الحياة ، وأنواره تمزق حجب الظلماء ، وهداياه تقطع البحار والوهاد والأجواء ، وبخوره وزهوره تعطر الأرجاء ، وصلواته ودعواته تبلغ من الأرض عنان السماء .

أين نحن الآن ؟ أين هذا الأسبوع المرح الكريم ؟ أين هذا الأسبوع الذى ولد فيه عيسى بن مريم ، فجعله مقدماً بمقدمه ، طاهراً بأنقاسه ، جليلاً برسائه ، نبيلاً ببساطته ؟

أين نحن الآن ؟ أين هو النور ؟ وأين السرور والحبور ؟ أين لعب الأطفال ، وأزياء النساء ، وهدايا الرجال ؟ أين تلك الجموع الحاشدة ، تتجه إلى الله ، ليبقى السلام على الأرض ، ويزيد المحبة بين الناس ، ويضاعف ثمرات الحقول ، ويملأ بطن الفقير بالزاد ، ويمسح على أوجاع المرضى فيبرأوا ؟ إنه ، فى هذا العام ، الأسبوع الحزين . لذلك نذرت له الصمت أحياناً . أدركتني ، فى هذا الأسبوع ، صور أفراح خلت منذ أعوام .. فرأيت نفسى تعود منفردة ، تائهة ، مشردة فى صحراء الذكرى ...

الويل لأولئك المجانين ، الذين أشعلوا نار هذه الحرب ، فأحرقت عش الطائر ، وشردت أهل البيت ، وأشقت سكان المدينة ، وقطعت أنفاس صداقات حارة ، هى نعمة الوجود .

لقد تفرق أولئك الذين كانوا أعزاء ، يجتمعون من كل أنحاء الأرض كالأقرباء ، يتناولون الطعام على خوان واحد ، ويطالعون صحفاً بلغة واحدة ،

ويتبادلون الكتب ، ويتزهون في جنات وعيون ، ويمرحون في عالم الأمان
والاحلام ...

ماذا فعلت هذه الحرب ؟ لقد مزقت شمل الاحبة والصحاب ، فسافر
الرجال إلى خطوط القتال ، وبقى النساء يرعين الاطفال ، ويشعرن ، إلى جانب
النار المتأججة ، بالبرد القارس ، الذى يلهب أجسام أحباهن بالسياط ...
انطفأت المصابيح ، وأوصدت الابواب ، وأغلقت النوافذ ، وأسدلت
الستائر ، وصمتت أجراس التليفون ، وكفت القلوب عن الفرح ، واكتفت
بخفقة الحرمان ... وطال الفراق ، ونسيت البلبلة تغريدها ، وتوارت
النجوم وراء السحب ، واختفت الطرقات في غياهب الضباب ، وقنع الناس عن
اللقاء المتكرر السعيد ، بالرسائل البطيئة التافهة يحملها البريد ...

العاطفة نائمة الآن .. دعوها نائمة .. كيف تستيقظ وقد ضربت الحرب
بين الناس بسهم الفراق ؟ كيف تستيقظ لتجد الدنيا قد تبدلت سياقاً بين
المجانين إلى الموت ؟ كيف تصحو العاطفة من غفلتها ، وقد تجرد الطغاة من
كل عاطفة ؟

لقد نثر الخريف أوراق الشجر ، وجاء الشتاء جرفها بعواصفه .. لقد بذر
الناس حبات قلوبهم ، وجاء العتاة فداوسها بأقدامهم ، ودفنوها تحت أشلاء
الرجال ...

ستنتهى الحرب ، ويعود الربيع فيزدهر ، وتطلع الشمس ، وتستيقظ
العاطفة ، ويلقى الشتاء ثلجه الفضى الناصع ، فيطهر الأرض من آثار الدماء ،
وتدق أجراس الكنائس ، احتفاء بزوج فجر العام الجديد ، فيتنبه ضمير الإنسانية ،
 ويعود السلام إلى الأرض ، وعندئذ تتجاوب الاصوات ، من وراء البحار
والقفار ، بالنداء .. ولكن هيهات ! .. والقلب كالشجرة ، يجدد أوراقه ،
يستبدل حباً بحب ، وأهلاً بأهل ، وخلاً نأ بخلان .. !

دروس الأدب الحساس

كانت في السوربون دراسات خاصة بالحضارة الفرنسية، برنامجها الرئيسي يرمى إلى إعطاء الطالب الاجنبي فكرة سريعة تامة عن: تاريخ فرنسا، وآدابها، وفنونها، وتطور الفكر فيها، والحياة الفرنسية الخاصة بالأسرة، والعامة الشاملة: لدستور الجمهورية، والسلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، وحرية الصحافة والمعتقدات، وما إلى ذلك...

وقد اختير لهذه الدراسات طائفة من كبار أساتذة السوربون، أمثال: رينيه، وميشو، وجيو، وبوجليه، وفوكونيه، وريبير، وميستر.

وكان الأستاذ ميشو، الذي خلفه بعد ذلك دانييل مورنيه، يتحدث عن «الأدب الحساس» *La Littérature sensible*... فيسقط حياة جان چاك روسو وفلسفته وأثره. وكانت الطالبات، لاسيا الأمريكيات، والكنديات، وبنات الشمال من: بريطانيا، وسكنديناويا، وفنلندا، وأستونيا، يقبلن إقبالا شديداً على محاضرات «الأدب الحساس».. فكنت تجد بين كل خمسين فتاة ثلاثة شبان!.. وكان من يجلس في المؤخرة، على أحد المدرجات العالية، يشرف، كما لو كان فوق صخرة، على القاعة البهيجة التي تسكر الجوارح من عطرها، والتي «تفتح النفس»، وتبهز العقل، من منظر تلك الرؤوس المتوجة بتيجان الشعر الذهبية، تكتب، ثم ترتفع لتستمع، فكأنها بحر من الذهب، تلعو أمواجه وتنخفض.. ويود المرء لو سقط من فوق الصخرة وغرق في البحر!...

وفي ذات يوم كان الأستاذ يبسط إحدى قصص روسو: «هلويز الجديدة»: *La Nouvelle Héloïse*، التي تجدد في الأرض آيات الحب العذري، البريء،

الساذج ، الذى يهيم فى أرجاء الطبيعة الساحرة ، ويجهل حتى القبلة الطاهرة ! ..
ونرى فيها البطلة تتخرج من كل شئ ، حتى من فكرة الحب ، وترضى بالحرمان ،
وتعيش على قوت الأشجان ! ...

وكان الپروفيسور الوقور يطالع رسائل المحب الساذج إلى « جوليا » ،
يقول لها إنه يريد أن يهرب منها .. لأن مجرد وعدّها بإياه بالصدّاقة قد جعله
يحتبل ! .. أما النظرة منها ، فى حنان ، فإن فيها هلاكة ! ..

فتبادل الفتيات والفتيان من الطلاب النظرات والبسمات .. ويمضى الشيخ
فى مطالعة الرسائل ، حتى يصل إلى رسالة نعرف منها أن صاحبنا قد قبل
صاحبتنا ! .. « ماذا فعلت بي ، أواه .. ماذا فعلت يا جوليا ! .. إنك
أردت مكافأتى ، فأضعتنى ! .. إني نشوان ، أو بالأحرى مخبول راح فى هذيان ! ..
لقد انقلب مشاعرى ، وتفككت أوصالى ، وتعطلت مواهبى ، من هذه القبلة
القاتلة ! ..

« لقد أردت تخفيف آلامى ! أيتها القاسية ! فزدتها شدة وويل ! .. إني
قطفت السم من شفتيك ! .. فسرى السم فى دمي ، وهو يقتلنى قتيلاً ! .. أرايت
كيف أموت من شفتك ! ..

« كان اللهب يتصاعد مع أنفاسنا المحترقة ، وقلبي يحتضر تحت أنقال
الرغبة الجاحمة .. عند ما رأيتك تشجّين فجأة ، وتغمضين عينيك النجلوين ،
وتستدين إلى بنت عمّتك ، وتسقطين فى إغماء .. عندئذ خنق الخوف عليك
شغفى بك .. ولم يعد هنأى إلا حلم وسمان ، أو خلصة المختلس ! .. »

وإذا بضحكات عذبة ، لذيدة ، تصدر من تلك الأفواه اللذيذة العذبة ،
فتضى قاعة المحاضرة بلؤلؤ الثنايا ... فهز الأستاذ الشيخ رأسه ، ويقول عاتباً على
تهكم القرن العشرين بالقرن الثامن عشر : « أيتها الآنسات ! .. إن نساء تلك
الأيام لم يكنّ يطالعن هذه الصفحات ، إلا ويغرقنها فى أحر الدموع ! .. وأنتن

الآن تضحكن وتسخرن ... فما أبعد الشقة ! وما أسرع الزمن ! وما أفضح
الانقلاب ! ... »

تذكرت تلك الأيام ، عند ما تلقيت من طالبة في كلية الآداب شكوى من
العميد الكبير أحمد بك أمين ... فهو قد فرض عليهن ألا يقلبن أظافرهن ،
و ألا يعقسن شعورهن ، و ألا يترزن و يتبرجن « تبرج الجاهلية الأولى ! » ،
و أن يلبسن كإطويلا ، و أن يضعن جوربا كثيفا ، و « قبة كابسة للرأس » !-
حقاً إن هذا جيل و جيل ... !

فأستاذنا أحمد بك أمين لا يمكنه أن يتصور أن البنات يتلقين العلم مع
الصبيان ، فكيف بهن إذا ما صرن شابات في سن الزواج ، لا يشغلن الدرس
و البحث عن العلم ، قدر ما يشغلن البحث عن الأمل : الأمل في الحياة ... !
فإن العلم يزيد فهمهن لحقيقة الحياة ، ولكنه يتركهن أشد ظمأ و تلهفاً على الحياة !-
و أستاذنا أحمد بك أمين إذا سلم بالاختلاط ، اضطراباً لا اختياراً ، فهو
مشفق من عواقبه . لذلك يحاول أن يقلم أظفار الفتنة بالحيولة دون الفتيات
و تقليم أظافرهن ... « فالأناكور » يجعل لتلك الأظافر لون العنكب ، فيود كل
فتى حساس لو أنها ، لجمالها ، تفشب في عنقه ! ... أو على الأقل « تخرشه » ... !-
و كذلك الشعر يجب أن يكون عند أستاذنا العميد حبيس قفص أو جرس
باسم « قبة » ... ! لأنه إذا تهدل ، ثم رفعته اليد الجنون ، لتتركه يتهدل مرة
ثانية و ثالثة ، انخلعت معه ، في كل مرة ، قلوب و قلوب ... !

أما الأذرع ، التي أسميها : « الحيات المقدسة » ، فمن الخير أن توضع في
أكمامها ، كما يضع السحرة الحيات في جرابها ... !
و أما السيقان ، التي تضرب عليها حجب من الجوارب ، فإنها تصبح

قذى فى عين الفنان .. لاننى أخشى من أن يكون أكثر فتيات الجامعة لا يعرفن
إلا جوارب القطن « أبو وبرة » .. وبينهن وبين الجوارب التى تشف عما تحتها
« اللى بالى فيها ، أجيال وأجيال ! ... »

ولست عاتباً هنا على أستاذنا الشيخ العميد قراره ، فلقد تكلم القرن
الثامن عشر بلسانه !.. وعزاؤه أن طالبات السوربون قد ضحككن من چان چاك
روسو ... أما طالباتنا المذهبات ، فقد تركن فى الاظافر التراب ، وأخفين
الشعر « المسكرت » فى جراب ، وربطن « بالدوبارة » : « الشراب » !



عندما أقبلت المرأة . . .

لأنهم فريق من الرفاق ، يجتمعون من حين إلى حين ، في بيت أحدهم ، ليتحدثوا ، ويحاولوا بالحديث أن ينسوا همومهم وشواغلهم ، وأن يرسموا مستقبل بلادهم ، وأن يتنبأوا بتطورات هذه الحرب ، وأن يدعوا الله لينزل السلام على الأرض . .

وكانوا أحياناً من الكثرة بحيث يتفرقون في نواحي الدار ، بعضهم يقرأ ، وبعضهم يستمع إلى الراديو ، وبعضهم يلعب الورق ، وبعضهم يشرب ، وبعضهم يفكر . .

وكان أحدهم ، في ذلك اليوم ضجرأ ، متبرماً بالحياة والناس والحرب . كان منذ عامين يكاد يلس السعادة . كان له بيت جميل ، في مدينة مسحورة ، وكان يعد برنامجاً سياسياً ليقدم به وطنه ، وهو في وطن الفتنة غريب . .

فاتنقل من حجرة إلى حجرة ، ونظر إلى الذين يستمعون إلى إذاعات الراديو متلهفين ، وإلى الذين يحاولون أن يغرّقوا الرؤوس في الكؤوس ، وإلى الذين يتناقشون في المال والأعمال ، يريدون الخطف باليمين وبالشمال ، ونظر إلى أما كن الغائبين ، الذين إذا دخلوا دخل معهم الغناء ، والطرب ، والضحك . . والنسيان . .

ووقف صاحبي لحظات ، يتأمل في تلك اللوحة الحكيمة ، التي تمثل القروود الثلاثة : وضع القرد الأول يديه على عينيه فهو لا يبصر ، ووضع الثاني يديه على أذنيه فهو لا يسمع ، ووضع الثالث يديه على شفثيه فهو لا يتكلم . . هذه اللوحة التي تذكرنا بالسر . . وأن كتماننا فرض على كل من أراد أن يكون رجلاً بين الرجال .

ودق الجرس .. فأحس تياراً خفياً يسرى في الجميع ، فكأن الجرس متصل اتصالاً مباشراً بأعصابهم ، فتوقفت ، لحظة ، الصفحة في يد قارئها ، والورقة في يد لاعبها ، والكأس في يد شاربها ..
أما الذي كان يفكر ويتأمل ، فقد تمنى أن يحى ما يشغله عن تفكيره ، وينقذه من تأملاته ..

كان نصفهم من المتزوجين ، السعداء ، الذين حلوا مشكلة الحياة بنساء طبيبات ، كريمات ، متسامحات .. وكان النصف الآخر جباناً متردداً ، واقفاً على شاطئ الماء ، يتمنى لو جرؤ فاستطاع أن يخوض الحياة ، واضعاً قدماً في البر ، وقدماً في البحر ! ..

كان بعضهم يملك عشرات الآلاف من الجنيهات ، وبعضهم يملك عشرات المئات . فليست المادة هي العقبة الحائلة دون الزواج ، ولكنها مجموعة شنيعة معقدة من الطموح والمطامع والأمانى ، ومن خطط المستقبل ، ومن مخاوف التجارب ، ومن كثرة الحزن والمآسى المحيطة بهم ، ومن الآمال العائرة التي يلقونها من حولهم ، ومن سن تقدم بسرعة ، وتزيدهم تعلقاً بالوحدة والوحشة ، ومن .. ومن : قلوب كثيرة بين الجنوب !

وكان كل متزوج ، وكل أعزب ، يدفع الأعزب الآخر إلى الزواج ، ويشجعه عليه يوماً ، وينهاه عنه ويحذره منه أياماً !

حتى ذاك الذي كان يفكر .. كان قد دنا إلى السعادة التي يتخيلها دنواً خطيراً ، فقامر عليه المعلوم والمجهول ، وحرماه السعادة ! ..

ولعل هذا هو السبب في أنه ، عندما دق الجرس ، انتقل بظفره ، كوميض البرق ، من لوحة القردة الثلاثة ، إلى لوحة «ديانا» الجميلة ، إلهة الصيد والقصص ، على الجدار الثاني ، وقد تجردت ، وأمسكت برمام كلها السلوق الجميل ، تشده وتجذبه ، وهو مندفع ، وفي اندفاعه جعلها آية في الرشاقة ..

ودخلت فعلا ديانا ! . كانت مصرية . كانت في ثوب أبيض ، كالثلج ، غاية في سلامة الذوق ، فظهر الثوب الشفاف كأنه إطار خيالي لحياها العاجي ، الذي تلع فيه عينان تبوحان بكل شيء ! . . . كانت عيناها من تلك العيون الفاضحة ، التي لا تخفى سراً . . . ولا سر لهما إلا الحب ! .

أما صوت الراديو نغفت ، وأما حديث المال والأعمال فقتر ، وأما صفحات القارئ فقد رقصت سطورها ، وأما ورقات اللاعبين فقد طمست أرقامها ، وأما كؤوس الشاربين فقد تغيرت طعماً ، وزادت مرأ ! . وأما الأفكار والتأملات في رأس صاحبي الذي يفكر ويتأمل ، فقد تركزت ، ووضحت ، وتجلت ، كما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

أما المحامي فقد جعلها قضيته ، وأما الأديب فقد وجد فيها رسالته ، وأما الشاعر فقد نظمها قصيدته ، وأما التاجر فقد عدها صفقته ، وأما صاحب الكأس فقد رفع كأسه يشرب نخبها ونخبه . . . وأما المفكر ، المتأمل ، الحزين فقد جلس عند قدميها ، مستلهما ، مستوحياً ، صامتاً . . . لقد تساوى المتزوج والأعزب . . . وصار كل منهما يزاحم الآخر ، عندها ، سراً وجهرأ ! . .

هذه امرأة دخلت ، فدخلت الثورة في كعبها ! . التهبت العواطف ، واعتدل الحديث ، وتوحد الاتجاه ، ورقت الحاشية ، وتهذبت الإشارة ، وانصقلت العبارة ، وصاروا جميعاً بلا زوجات ، ولا خليلات ، ولا ذكريات ! . إن امرأة واحدة أقبلت ، فجردتهم ، ولو لساعة أو بعض ساعة ، من المطاعم الشرهة ، وأقذتهم من الشواغل المرهقة ، وحلت محل ورق المقامرة ، ونشوة الخمر ، وملاّت رأس المفكر المتأمل الحزين بأفكار جديدة ، وآمال طريفة ، وأحزان لذيدة ممتعة ! . .

حمداً لله ! . . فماذا يصنع الرجال ، يارب ، لو أنك سبحانه تكليت عنهم ، فتركهم ، ولو يوماً واحداً ، بغير نساء ! .

ليلي

ليلي: وسامة وقسامة، عمرها عمر الزهور، وجه شاحب يزاحم العاج روعته وجلاله. عيان صغيرتان، ولكنهما تفتان من سحر الشيطان. وقوام أي قوام! غصن زنبق، ينكسر ثم ينبجر، وينفصم ثم يلتحم... وشعر، أي شعر! غداثر صغيرة، مستقلة، تزاحم على لون الشفق، وتطفئ لون الذهب، وتضرب على كتفها، فتففضها بيدها تارة، وتداعبها تارة، ثم تتركها مهملة، مرسلة، كأن كل شعرة منها سلك كهربائي يجتذب الرجال... ثم تعود فتسبّح على حلقاتها، بحمد جمالها!

رأيتها أول مرة في «سيدى بشر»، غزالة نافرة، لا تستقر، ولا تدع لمن ينظر إليها قراراً. لو حثا الشمس وصبغتها بلون الخمر. وقد حجبت شيطان عينيها بتظارة زرقاء الزجاج، بيضاء الإطار، وتركت صدرها يتخدى الكائنات، ويضنى الرجال... وكانت تعرف سر صدرها وما أخفى!..

كان شبابها عجيباً. كانت هي الشباب. لو تجسد الشباب لكان إلى جانبها شيخاً مترهلاً متهاكاً!.. كانت من حوريات الغاب... أو من جنيات الأحراش والآجام...

أو كانت هي «الموضة العذراء»:

كانت الرمال تخفق تحت قدمها. كانت الرمال تنحول تحت قدمها قلوباً. كانت في السابعة عشرة، وكانت في الأربعين!.. كان جسمها ينضج بالبكرة الفاتنة، وكان اتزانها، وثباتها، وكبرياؤها، ينطق بالأنوثة الكاملة.

وكان لها خطيب أو شبه خطيب: فتى عالق بكعبها، يهرول في ظلها، كأنه كلها. ولكنه لهذا يبدو ثقيلًا، ولو كان جميلاً. كان الشعور الغريزي لمن يرى

تلك الفتاة العجيبة أن ليس من حقها أن تكون لرجل ، كائناً من كان . فهي من
فلتات الطبيعة التي يريد كل رجل أن يستأثر بها ، ولن يستأثر بها إنسان !
وكانت على هذه الحداثة في السن تميل إلى مجالسة الرجال . كانت لذتها
الكبرى أن ترى الشيخ يتصابي . . أن ترى الرجل يطوى الستين القهقري حتى
يلقاها في مثل عمرها ! . . وهي تراقب هذا التهاافت منه ، مشفقة عليه تارة ،
شامطة فيه تارة أخرى . وكانت تنظر إليه ، وهو يتدله بها ، ولا يرعى حرمة سنه ،
ولا يرعى حرمة جمالها ، وكأنها تنسج بمخيلتها صور الفتيات والنساء اللواتي
طالما غرر بهن ، وخدعن ، في شبابه . . وترى بعين خيالها بنات جنسها هؤلاء
يبسطن إليها أذرعهن ، لتتنقم هي لهن ! . . وهي تفعل ، مليئة النداء ، فتترك له
أحياناً يدها ، كما لو كانت نسيت يدها ، فتطمعه ، وتثير فيه كامن اللوعة . ثم
تنفر وتشرد . . أليست من الظباء ؟ !

وأراها غداً وقد سار في ظلها رجل آخر . . ثم شيخ ثان ، وثالث ! . .
ولم يكن خطيبها الفتى لينال منها أكثر مما يناله هؤلاء المعجبون ، بل لعله
كان أشدهم حرماناً . لم يكن له منها لا قلبها ولا عقلها ولا جسمها . وكانت ظامئة
للمعرفة . وكانت متعطشة للتجربة . كانت تؤثر أن تلقى بالها إلى هؤلاء الرجال
الذين عركوا الحياة ، وعرفوا أهواء النساء . فتسألهم عن حبههم . ويتكشف لها
منهم كيف يزوقون ، ويزخرفون ، وبيالغون . . كيف يحاولون أن يظهرها بمظهر
البطولة ، أو الفروسية ، أو الشهامة ، أو الغنى ، أو الكرم . . وقد نالت منهم
جميعاً تصريحات أدهشتها . تلك هي إجماعهم على أن زواجهم لا شأن له في
حياتهم . إنه نظام لا بد منه ، قضت به العادات والتقاليد والظروف ، وتزوجوا
من اختارهن لهم أهلهم ، أو ممن كن من أهلهم . وبذلك حلوا مشكلة البيت
والولد . ففي دورهم نساء يشرفن على الطهي ، ويحاسبن الخدم ، ويخرجن الذرية .
لا أكثر ولا أقل . . أما الآن . . فهم أحوج ما يكونون إلى الهوى والصباية ! . .

وكانت تراهم يفسون دائماً أنها في عمر بناتهم . وأن كلا منهم له بنت مثلها
أو أكبر منها ، وأن من لم يتزوج منهم لو كان قد تزوج لأنجب مثل « ليلي »
سناً ، وإن استحال عليه أن ينجب مثلها حسناً ...

وفي ذات يوم غضب الخطيب الفتى منها ، إذ أوغر صدره إخوان له
وزملاء ، سخرُوا من ضعفه وعدوه مطية لها . فلما حاول أن يردعها نهرته ،
وقطعت ما بينها وبينه ، كما لو كان فتلة خيط .

وفي اليوم التالي كان لها خطيب جديد . كان أجمل ، وكان أغنى . فمن المختم
أن يكون خطيبها فتياً غنياً جميلاً .

وراحت دوائر الرجال والشيوخ المعجبين تقدح الخطيب السابق ، وتمدح
الخطيب اللاحق ! . ولم يكونوا يقصدون بهذا إلا مدحها هي وتملقها . كانوا
يضعون لها بألفاظهم الزبدة على الخبز الأسود ليكون أبيض .

* * *

ولم يتزوج « ليلي » من الخطيب الأول ، ولا من الخطيب الثاني ، ولا من
الخطيب الثالث . . . لقد تزوجت ليلي رجلاً آخر أجمع أهلها على أنه جدير بها .
فهيأ لها بيتاً أنيقاً ، وحياة رجة رغدة . ولم يضيق عليها الخناق ، وإن كان قد
أفهمها ، وأدركت هي ، من فورها ، أن حياة الزوجة غير حياة الخطيبة ، وأن
جدران البيت ليست شواطئ البحر ، وأن ما يباح في الصيف من غزل برى .
في الهواء الطلق ، لا يباح في الشتاء ، بعد أن يغلق عليها الشتاء ، ويغلق عليها
الزواج ، كلاهما ، أبوابه . . .

فضجرت ، وسخطت ، ونفرت . إن الظلية فيها تريد أن تظل ظلية ، وإن
كانت في الخامسة والعشرين . . . وهي لم تعد تستطيع السجن في أربع حجرات . .
كيف تكون الحجرات الأربع مسرحاً للظباء ١٩

ونسيت ليلي أن الزواج هو النفس المطمئنة . هو حياة متشابهة متكاسلة

تنسج فيها المرأة نسيج اليد ، لانسيج الخيال ...
لقد شقيت « ليلي » ، وأشقت زوجها . ولم يكن حديث الرجل فاتراً ، ولا
تافهاً .. ولكنها سمعت أجمل منه ، وأعذب منه ، وأشهى منه .. ولم يكن جبه لها
بارداً ، ولا جامداً .. ولكنها رأت أحلى منه ، وأحر منه ، وأعنف منه ..
وكما ذهب عنها الخطيب الأول ، والخطيب الثاني .. ذهب عنها الزوج
الأول ، والزوج الثاني .. وظلت ليلي حائرة ، معذبة ، لا تدرى سر حيرتها
وشقوتها .

• • •

لعل السر هو : في أنك استمعت يا ليلي إلى عشرات المعجيين ، وخلبت
عشرات المفتونين ، وأوقعت عشرات الهائمين ، وتكسرت في قلبك الغض الندى
النصال على النصال ! ..

إنك عرفت ، قبل الأوان ، القبله الخافته التي لها أزيز وهمس ، والقبله
التائه التي لها طنين النحل ، والقبله المنكسرة بعد الصد والخضام ، والقبله
الحائرة تشد الإلهام ، والقبله العفة تتحمس ولا تلس ، والقبله الملهيه الفاجرة
تختم على الثغر بالنار يمين الغرام ! .. والقبله الغادرة ، الكاذبة الرنين ،
القبله الكافرة ! ..

وبلوت يا ليلي الوعود الصادقة والزائفة .. وانتظرك كثيرون .. وانتظرت
كثيرين .. وكنت في هذا وذاك آناً متكبرة متعجرفة ، وآناً خاضعة مستخذية ،
وآونة يبتل إليك ويتهافت عليك ، وآونة ضعيفة مستصغرة ، راضية من الكأس
يثمالتها ، ومن الهوى بنفايته ! ..

كان فيهم يا ليلي رجل مالى كبير ، تعرفين أنه متزوج ، وأن زوجته جبارة
قوية ، وأنه يخافها .. وأن مركزه الاجتماعى لا يسمح له بالظهور معك في
مكان عام ، مهما يكن بعيداً صحيحاً ، فكيف بالبناء بك ، والزواج منك ؟ !

ومع ذلك خدعت نفسك . وكنت تسليين إليه ، وكان يقسل إليك ، وتلذذت
بعبك ، وشافك أن ترى شعره الأبيض يتمنى لمس أناملك . . وأن ترى
سواراً من الذهب يطوق رسغك ، ثم يحى منه فستان ، وفستان . . وحقية
وقفاز . . ثم دسته من جوارب النيلون . . وزجاجة عطر من « جرلان » . . ثم . .
ثم يحى اعتذار ، وتعلل بالأعمال ، وكثرة الأشغال . . فخرجت من الروح إلى
المادة ، وانتقلت يا لميلى من الحب العلوى النيل ، الذى له هدف أسمى ، إلى
ساحة الأخذ والعطاء ، والبيع والشراء ! .

وكان فيهم ياللى طيب يريح أموالا طائلة ، لأنه أعزب ، وهو يستغل
عزوبته ، ويغازل كل بنت ، و « يطبطب » على كل خد ، ويخدع كل امرأة ،
ويسلبها بعد ذلك أجرة عيادته ! . . فترددت عليه ، وغازلك ، فتوهمت ،
فعرفت الانتظار الطويل إلى أن تنتهى العيادة ، ورأيت من ينظرون إليك ،
ويتهامسن عليك ! . . وعرفت بعد ذلك ، ويا لغفلتك ! أن مرضته هى خليلته ! . .
وأن مواكبكن ، أيتها المريضات بحمى الزواج من صاحب العيادة ، إنما هى
مواكب المخدوعات المسلوبات ! .

وكان فيهم . . وكان فيهم . .

فلما جاءت الحياة الزوجية ، كنت تلك التى يسميها الفرنسيون « بلازيه » ،
أى التى رأت كل شئ ، ولم تعد تنتظر شيئاً . . أى التى عركت الدهر وعزكها ،
وذاقت حلوه ومره ، وتحجر فؤادها . . ولم تعد تفرح لمطلع الفجر ، ولم تعد
تأنس لسلام المساء ، ولم يعد ضياء القمر عندها ليوحى بالسكون الحنون ، وإنما
بالسامة والضجر ، أو الهوس والجنون ! . .

لذلك كله ، ولئله ، ضاق صدرك بالبيت الهادئ الضيق الوادع ، ونسيت
أنه حمى المرأة الذى يسترها ، والذى يكرمها ، والذى يرفعها ، مهما يكن البيت
عادياً ، ضيقاً ، متواضعاً .

مائدته : ليست طاخة بألوان الطعام والشراب ، لأنها مائدة بسيطة ، متصلة
البساطة ، وليست مائدة مغامرة ومخاطرة !..

وجدرانه : لا تتجاوب بالضجيج ، والصياح العريد ، لأنه معبد للحنان
والود ، لا صالة عامة للرقص والمخاصرة !..

وسقوفه : لا تمطر ذهباً ولا فضة ، لأنه بيت ، وليس نادياً للبقامرة !
أتعرفين الآن ، يا ليلي ، سر حيرتك ، وبعض شقوتك ؟ ! أتذكرين ذلك
العيبث البريء الذى بدأ على رمال سيدى بشر .. وذلك البدوى السحري الذى
ملأ به الرجال المجربون ، والشيوخ المحنكون ، أذنك الصغيرتين ، فى البحر ،
ثم فى البر ..

وارحمنا لك يا ليلي !..

لشد ما أخشى على ليلي ، تلك الموجه العذراء ، والظبية النافرة ، أن تكون
قد ذهبى ضحية الطبيعة — تلك المرأة الغيور — التى غارت وانتقمت منها ،
لمفاتن حسنها ، وجمال جسمها ، وزهوة شبابها ، فقتلت قلبها .. وتركته للناس
عبرة عابرة !..



رجال يقاتون بالأشجان

منذ ما غار چوبيتير — إله الآلهة في أساطير الأولين — من هناء الرجال والنساء ، أخذ التفاحة المشهورة ، وضربها بسيفه فشطرها شطرين ، شطر الرجل وشطر المرأة ، وألقى بكل نصف منهما في ناحية من الأرض ، ولا يزال الرجل إلى يومنا هذا تائهاً ، والمرأة تائهة ، يضنى كل منهما ، ويفنى ، من جانبه ، في البحث عن نصفه الآخر ! ..

وهذا هو معنى خياتنا الحاضرة : البحث في الشقاء والعناء عن الهناء .
فإذا تركنا الجانب المسمى من الحب والزواج ، وجئنا إلى الجانب الروحي ، الذي يهيم به الكتاب والفنانون والشعراء ، قلنا إن أكثر الناس هياماً بالمرأة ، وأشدهم خوفاً من المرأة ، وأولاهم بحب المرأة ، هم الشعراء والفنانون والكتاب ..

فهم يستمدون حياتهم ورزقهم من المرأة ، يعيشون عالة عليها ، يستغلون ميلهم إليها ، وحُبهم لها ، وافتانهم بها .. يرسمونها بالقلم ، أو بالقافية ، أو بالريشة والألوان . ويمدحونها تارة ، ويقدحون فيها تارة أخرى . ويعدونها يوماً الصديقة والحبيبة ، ويزعمون أنفسهم يوماً آخر من أعدائها .. وهي تجارة ، مثل تجارة الحرير في دمياط ، أو الذهب في الصاغة ، أو النور الذي توزعه شركة الكهرباء !

انظر إلى ذلك الكاتب الذي اشتهر بانتصاره للمرأة ، وفائه فيها ، وشغفه بها . وقل لي لماذا يخاف المرأة ، لماذا يخشى الزواج ؟
وانظر إلى ذلك الكاتب الذي اشتهر بعداوته للمرأة ، وقد وضع فيها خير

قصصه ، لماذا يتهاك عليها ، ويتمناها ، ويود ، ولو بجذع الأنف ، أن تقبله
آية امرأة زوجاً ؟

انظر إلى ذلك الفنان الذى ملأ بيوت الناس من صور النساء ، وأضفى عليهن
من روحه ومن نوره جمالا وألواناً ، لماذا يعيش وحده ، مع البوية والزيت ،
دون الجسد والروح ؟

اسألوا ، أيها القراء الأعزاء ، وتساءلوا : لماذا يعيش كاتب كبير وشاعر
حساس مستقيم مثل رئيس تحرير « الأهرام » بغير زواج ؟ ولماذا يعيش صحفي
موهوب ، وشيخ محترم ، مثل صاحب « المصرى » دون زواج ؟ ويعيش نائب
وخطيب ومحام ورئيس تحرير « المصور » بغير زواج ؟ ويعيش شاب كله
روح ملتبه ونفس ظامئة مثل رئيس تحرير « الاثنين » دون زواج ؟ ويعيش
عدو المرأة - توفيق الحكيم - محروماً من الزواج ؟ ويكون مؤلف « سارة » ،
الرفيق الجبار متعصباً لعزوبته ؟ ونرى الشاعر المهلم « على محمود طه » ملاحاً
تائهاً ، وروحاً شاردأً فى قنوات البندقية ، بغير حليمة ؟ ونشهد سليمان نجيب
مدير الاوبرا الملكية ، وممثل الحب الأول ، بلا حب ؟ ونبسم لرؤية صديقنا
محمد التابعى صاحب « آخر ساعة » يكتب عن « ... » وعن « ... » وعن
« ... » ، ويعيش بين عشرين جداراً ، كقرد قطع .. ونلقى شاعر القطرين ،
وإمام الصناعتين ، الذى دان له الشعر والنثر ، وأبدع فى آيات الحب ، قد شاخ
وناخ ، يذوب فى حب المرأة ، ويهرب منها .. !

أنا أعرف المرأة وأجهلها .. وسر حبي لها هو جهلى بها ..

إنها المخلوق الرقيق ، الإنقى من الحليب ، والأشجى من العندليب ، الذى إذا
حمل إلينا تجارب الآخرين الذين مروا فى حياته ، ثارت كرامتنا ، وأبيناه ..
وإذا حمل إلينا بساطته وطيبته وسذاجته ، فى انتظار تجاربنا ، والتماس مواهبنا ،
نفرنا منه ، واستنكرناه ..

والكاتب ، أو الفنان ، أو الشاعر المسكين منا ، إذا كتب في موضوع المرأة وأطال ، وردد قيل وقال ، قالوا : هذا الرجل زير نساء ..! وإذا سكت ، وعالج شئوناً أخرى ، قالوا : يا له من عتيق ، عفا عليه الدهر ، فهو لا يعرف معنى الحياة ، ولا يعرض لحفققان الفؤاد ؟!

والكاتب المسكين منا ، إذا تهافت على المرأة ، زعمت أن هذا فرض واجب لها ، وحق عليه ، فيستوى عندها الذهب والحطب ، واللؤلؤ والخشب !. وإذا أغفلها ، وعفا عنها ، ووجدتها مخلوقاً تافهاً على هامش العيش ، غضبت ، ونفرت ، وسخطت !..

وإذا قال لها : تعلى . ضحك الناس ، وقالوا : ماذا لقينا من الخير من متعلبة أو عالمة . وإذا قال لها : الزمي البيت . سخر الناس ، وقالوا : يريد لها سائمة جاهلة !..

وإذا أهاب بها إلى العناية بلبسها ، وصقل ذوقها ، قالوا : يعلها الترف ، والسرف ، ألا بشس هذا العلم من تلف !

أأحدثكم ، إذن ، بصراحتي ، عن سر ذلك المتيم بها ، المحروم منها . عن سر ذلك الذي في يده السكأس يهواها ويخشها ؟!

إن الفن ركن من الأناية ، يستأثر بقلب الرجل ، ويطارد فيه خصمه القوى العنيد : المرأة ...

فالفن والمرأة ، كلاهما ، عدو للآخر ، في ثياب صديق .
فالفنان لا يريد الوصول إلى المرأة ، وإن زعم ذلك ، ولكنه يريد البحث عنها .. سر سعادته ، وقوام فنه ، في هذا البحث ، في هذه المطاردة ..

أسأل صائد البر : أي اللحظات أهنأ لديه ؟! أي اللحظة التي يسدد فيها بندقيته ، ويصوبها ، نحو الهدف ، نحو الطائر الخائف المرتعش على فن ، أو المضطرب في طيات الجو ، ثم يطلق النار .. هل هذه هي ألد لحظاته ،

أم تلك التي يعود فيها بحملاً مثقلاً بصيده ، وقد التوت رقاب الطير ، وازرقت
مذاكيرها ، واسودّت دماؤها ؟ !

واسأل صائد البحر ، وقد خرج عند الفجر يلقي شباكه ، ويسأل أغوار
الماء رزقاً : أى اللحظات أسمى عنده ، أهى تلك التي يشعر فيها بأن السمك يختلج
ويرتجف في عيون الشباك ، يحاول خلاصاً من حيث ثمة خلاص أو لا خلاص ،
أو تلك التي يهدم فيها ذلك السمك ، ويخمد ، ويبرد ؟ !

ونحن ، مثل هؤلاء ، نشد صيداً ، غير أن الشباك مختلفات .

نحن نشد للبخيلة طائراً .. نحن نجري وراء الوهم ، لنضيع في الاوهام
عمرنا .. نحن نقتات بالاشجنان ، ونعيش بالحب وبالروح ، نعيش بالقلب
والوجدان .. وترك لسوانا لحم الحيوان ..



وحش فى باريس

« الزمان : منذ عشر سنوات »

« المكان : الحى اللاتينى »

... وبعد ليلة أرق وسهاد فى مطالعات تتصل بعلم النفس ، وتحاول أن تمكن الخلائق البشرية من أن تفهم بعضها بعضاً ، وتحل ألغازها وأحاجيها ، وتفك طلاسم معمياتها التى تشبك اشتباكا دقيقاً بسبب المرأة .

.. دق جرس التليفون فى الصباح المبكر ، ولم يكن التليفون ليتنازل بدخول غرفة الطالب الحفيرة ، ولكنه قد تفضل بفرع منه فى كل طابق ، فدقت الخادم الباب تدعوني إلى الدهليز ، فلعلت ذاك الذى بكر بكور الغراب يوقظ النيام ، وقلت : يستحيل أن يكون بشير خير ! . فإن الخير لا يهافت من الصباح الباكر ، بل يتناقل ، فى شكل شيك على البنك ، يصل متأخراً ، عندما نكون غائبين عن بيوتنا ، أو يوم عطلة البنك ، وليس فى جيوبنا إلا أجرة الأوتوبيس ! . فشعر أن « قارون » قد أقبل علينا حاملاً عشرة جنهات ، فزهن « قارون » يومى السبت والاحد عند من نعرف ومن لا نعرف ، فإذا كان صباح الاثنين ، صرفنا قارون وفككتنا رهنه ! .

ولم يكن المتكلم إلا صديقاً سيسافر عصر ذلك اليوم إلى لندن لقضاء بضعة أيام ، وقد وصل لسوء حظه — أو حظى أنا — قريب له من صعيد مصر ، لا يعرف من الفرنسية حرفاً واحداً ، وجاء يدرس فى باريس ! ..

وكان مايريده منى أن أعنى بقريبه هذا خلال تلك الايام التى يعيها عن باريس ، ويسألنى موعداً سريعاً ليعرفه بى . .

فأنت إذن ترى نوع الهدايا الواردة من مصر . . ولكن ماخفى كان أعظم ! .

وضربنا موعداً : بعد الغداء في «كافيه دى پار» أمام حديقة اللكسمبورج -
وكنت أمنى النفس بأن أجده شخصاً جذاباً الحيا ، خفيف الروح ، مثل الأستاذ
عبد الحميد عبد الحق .. أو أمنى النفس - على الأقل - بأن أسمع لهجة الصعيد
الشائعة من حنك كحنك صديقنا حسن الأعور .. ولكن بالله لا تعدنى ، يا قارئى
العزیز ، مبالغاً ، إذا قلت لك : إننى — أنا المشهور بأننى لست فى الجمال نجماً
سينمياً ولا مسرحياً — قد اقشعر بدننى من رؤية القادم الجديد ! ..
لك الله يا باريس ! .. ما أكثر ما اتسع قلبك فى السلم والحرب لبلايا
الأصدقاء ، وكوارث الأعداء ! ..

فارسم إذن فى صحيفة خيالك مخلوقاً أقرب إلى حيوان وحشى غريب منه
إلى إنسان من بنى آدم .. واجمع بين صورة «فرانكشتين» المخيف ، وصورة
شارلز لوتون فى دوره «أحدب نوتردام» ! .. واجن هاتين البشاعتين لتخرج
منهما بشاعة منقطعة النظير !

كان جسمه مثل جسم صديق مصطفى أمين + جسم صديق على أمين +
جسم صديق كامل الشناوى ! .. وكانت كل شعرة فى يديه تعادل حاجباً من حاجبي
صديق أحمد الألفى عطية ! .. وكانت له جبهة بارزة ، بحيث خيل إلى أنها
ستصطدم بالسيارات والمركبات ! .. وكانت له أنياب ملتوية على بعضها ، منها
مابرز وقاحه ، ومنها ما استخفى حياء ! .. وكانت لرقبته الثورية جوزة أقرب إلى
جوزة الهند الصغيرة منها إلى «عين الجمل» ! .. وكانت يده إذا بسطها غطت
منضدة المقهى وسألت هل من مزيد ! .. فتخرج أظافره عن حاقها كالخالب
التي تحفز لتتشب فى الكائنات .. أما حذاؤه الذى اشتراه من «بين الصوريين»
فكان مشروع قارب يمخر عباب النيل ، ثم عدلوا عن المشروع ! ..
وكان هذا كله : من عينيه الجاحظتين ، إلى صوته الأجرس ، إلى قهقهته
الأقرب إلى هزيم الرعد ، بمجموعة منفرة بشعة إلى أقصى حدود البشاعة ..

ولم يكن فيه مقبولا غير اسمه : « أبو خليل » .
ولم أكد أراه حتى خيل إلى أن أخطف سحابة من تلك السجاجيد التي
يسرح بها على قهاوى باريس التونسيون والمراكشيون . . وأبسطها أرضاً
وأصلى لله شكراً ، على قارعة الطريق ، حمداً لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً
من خلقه ! .

وسافر صاحبي إلى إنجلترا ، وترك لي وديعته الغالية ! .
ثم تحول نفورى ، قليلاً قليلاً ، إلى شفقة ، فرأيت حيرته ، فهو لا يستطيع
أن يشرب كوب ماء إلا ويسألنا إياها لترجم له . . فدعوته في المساء إلى العشاء .
وكانت صاحبتى ستتعشى معى يومها ، وموعدنا السابعة والنصف ، بعد أن
تغلق حانوتها المخصص لصنع القبعات وبيعها . وكانت فتاة وهبها الله من جمال
الجسم ما وهبها من خفة الروح ، وسلامة الذوق . حملت هم « النكبة » التي
سأقدمها إليها ، وأحملها على العشاء معها ! . . غير أتى كنت واثقاً من حبها
وتساعها . . .

وكانت لها أخت هي آية الفتنة والركة . كانت تلك الأخت تملك أيضاً محلاً
لصنع الأزياء ، قريباً من محل أختها . كانت فتاة إذا سنح لخطرة النسيم العليل أن
تتجسد فتاة لا تتخذ « چانيت » ، تحل في كيانها الشفاف ، الانقي من النور ،
ولا ترضى عن صفاتها بديلاً ! .

وما كان أشد حيرتى و « وحسنى » ، إذ رأيت « چانيت » ، قد جاءت مع
أختها لتتعشى معاً . . وقالت ضاحكة إنها دعت نفسها ، وستدفع ثمن عشاها . .
ولكن قلبي كان مغلقاً لا يستطيع الضحك ، ولا حتى الابتسام ، - لعلنى بأنه
سيشاركنا العشاء . . . أحذب نوتردام ! .

وكان فندق الوحش مجاوراً للمقهى ، فوجدناه رابضاً ببابه . . فقممت بعملية
التعارف . . وإذا بي ألاحظ وجه « چانيت » ، قد شجب لجأة . وكأنه ذبل في

ال لحظة .. فأدركت أنها جزعت من تلك البشاعة ، هي ، الرقيقة كالزهرة ، الشائقة
كالحم بالحب .. فهيمت في أذنها ، أعتذر لها ، عما أصابها بسببي ، وقلت لها
لأني أفهم ما بها ، ولكن ما باليد حيلة .. فنظرت إلى ، ثم خفضت بصرها ،
ولم ترد على الجواب ، وكأن شيئاً فيها يغلي ، ويكاد ينفجر ..

وكنت أسأل الله أن ينتهي العشاء قبل أن يبدأ .. ولما جئنا إلى مدخل
المطعم ، ضغطت چانيت على ذراعي ، وقالت بغتة : « على الضد مما تخول ! .. »
اني أراه جميها .. هذا هو جمال الرجال ! .. هذا هو الجمال الذي أهبه ! ..
انه هذا الرجل ، هو رجلي ! .. »

فكدت أصعق ! .. وحسبت أن البنت قد أصابها مس من الشيطان ! ..
وسألت عينيها الصافيتين صفاء يحير الأبواب عن مدى ما وراءهما من خبل ! ..
فإذا بها تسدل أهدابها الطويلة ، كأنها تحتجز رؤيا جميلة لا تريد أن يشاركها
فيها أحد ! .. وجلست تنظر إلى « أبو خليل » نظرة العابدة التي كانت ضالة
ثم اهتدت ..

وسمعتني أخاطب صاحبي ، وأقول له أن يخفف من صوت شربه الماء ،
لأنهم يعتبرون - في أوروبا - أن مص الماء بصوت عال أشبه بشرب الخمر ..
وأن يخفف من المضغ المرتفع ، وألا يضع قرصاً كاملاً من الخبز في فمه ، ويلوكة ،
لأن الخبز كثير ، وهو في المطاعم بلا مقابل ...

فقطنت « چانيت » إلى أنني أؤنبه ، أو أعلمه .. فسألتني في هذا ، فترجعت
لها ، فقالت : « دعه ! .. فليفعل ما بدا له ! .. فهكذا يأكل الرجال
ويشرب الرجال ! .. »

فابتسمت ، وسرى عني ، وقلت لأختها : « إننا لن نقوم عن المائدة حتى
تسلك چانيت أبا خليل في عداد الأبطال ! .. »

وبعد ذلك بأسبوع كنا في ضاحية سان كاو ، نستريح من عناء المدينة ،
ونزق على العشب ، عند القيلولة ، وكانت « چانيت » تتأمل محاسن صاحبها
القاتنة .. وتقول لى : « سله بالله : هل يحبني ؟ » .. فسألته ، وأمرى إلى الله ..
فقال الوحش : « قليلا » .. ! فترجعت لها .. فتنهدت ! ..

وعاشا معاً ثلاث سنوات ، وهو يشاركها مسكنها الأنيق ، وطعامها
الشهي ، وذوقها السليم المصنفي ... وتعلم منها : اللغة ، والاناقة ، والاكل ،
والذوق ... وتعلم منها : الحب ...
وقلت له آخر مرة رأيته فيها : « اعترف بأنني كنت صاحب الفضل
عليك » .. !

فنظر إلى « چانيت » التي كان يستطيع أن يرفعها على كف واحدة ،
وقال الوغد مبتسما : « كان عندى في مصر أجمل منها » .. !



شرقية وشرقية

« إن الحرب المشتعلة حولنا ، والتي يصلي العالم سعيها ، لادخل لها
في عالم المرأة ، الذي يشتعل دائماً بنيران الحب والغيرة . فلنستمع إلى
امرأة تتحدث عما أصاب عالمها الصغير .. لنرى كيف تفوق المرأة في
الوصف أبلغ الكتاب » ..

قالت سعاد :

« لعل زوجي عند ما رأى كان لا يفكر في الزواج ، فقد كان يبدو عليه
الخوف منه . وقد جمعنا القدر في عيادة طبيب . وكنت على وشك الموت ..
فهل بدأ شعور زوجي نحوي إشفاقاً ، ثم تحول حباً ، أم تراه قد بدأ حباً ، ثم
تحول إشفاقاً ؟ !

ماذا أقول ، ويكفي لوصف الزواج مثل واحد ، فقد كان زوجي ، في العام
الاول ، يقول لي ، إذا سأله مالا : « كيف تسأليني وأنت تعرفين مكان محفظتي ؟
خذي منها ما شئت ، بلا سؤال ولا جواب ! » .. وفي العام الثاني - وكنت سائرة
على هذه القاعدة مع الدقة وحسن الذمة وعدم الإسراف ، ولكن قد مضى
عام - قال لي : « أرجو أن تطلي مني ما تريدن لأعطيك إياه .. » وفي
العام الثالث كان ، إذا احتجت نقوداً ، وكان هو دائماً أو في الحمام ، وأخذتها حتى
لا أوقظه أو أزعجه ، يغضب ويصيح : « لقد قلت مئة مرة مرة وإني لا أريد
أحداً يضع يده في جيبي ، ويفتش محفظتي بلا إذن ! » .. فكنت أبتسم أسفاً
على مرور الأيام وكر الأعوام التي يضعف معها الحب وينطفئ الهيام !
وأنت الآن تسألني عن أشد ما بليت به منذ زواجي .. ألا فاعلم أنني عشت
من دهري ثمانية أشهر كانت جميعاً مقبلاً .. عرفت فيها أن كلمة « عقارب الغيرة »

ليست مبالغة ، فقد ظلت فعلا تلسعني ، ويسرى سمها في بدني .. وعند ما أقول
في بدني ، أعني : بدني وروحي وفؤادي جميعاً .

بعد ما عقد قراني ، استأجرنا شقة جميلة ، في حي الدقي ، بعارة جديدة ،
لا يفصلها عن عمارة تقابلها إلا بضعة أمتار . فقد تكاثرت الخلائق وتزاحمت
على لقمة العيش ، وعلى أرض الله ، مع أنها واسعة الفضاء .. وسبقني زوجي إلى
البيت بشهر ، أو نحو ذلك من الزمن ، كان فيه الأثاث يصل تباعاً ، وكنت أزوره
مع أهلي لما ، حتى زفقت إليه ، بلا زفة . لآتنا من الناس المحافظين ، وليس
زوجي فتياً ..

ماذا جرى في ذلك الشهر ؟ ! الله وحده يعلم ! غير أني ، وقد جئت لأسكن
وأعيش وأخدم وأتمتع وأحب ، وجدت زوجي ينظر إلى البيت المقابل لنا ،
وهو عمارة أكبر من عمارتنا ، ذات حديقة كبيرة .. فلما فاجأت نظره بعد ما
تعقبها ، وجدتها تلثم جاري .. فخطرت لي في الحال تلك الأغنية الحزينة « جوزي
اتجوز عليا ، وأنا لسه الحنه في أيديا ! » ، فاستعدت بالله من الهواجس ..
ونظرت من شباك آخر . وكل الشبابيك لدينا تطل وترى ، وتفتح علينا أبواباً
من الشر لا عداد لها .. فرأيت .. وماذا رأيت ؟ ! امرأة .. ! يا الله .. كيف
أصفها ؟ وهل تستطيع امرأة أن تصف امرأة ؟ ! إنها لا بد لها من رجل يرى
فيها ما لا تراه عين المرأة ، ولا سيما إذا كانت تلك المرأة غيوراً مثلي ..

سأحاول .. كانت امرأة تختلف عني كل الاختلاف . كانت مني طرف
النقيض . أنا سمراء وهي بيضاء . أنا متوسطة الطول وهي طويلة . مياسة الغصن .
تسكس في مشيتها ، كأنما تسأل الرجال ، في كل خطوة ، أن يجبروا كسرهما ! ..
ثم أي حياء هو حياها ؟ إنه من الحرير .. من المخمل .. إن بشرتها كأنها قدت
من الخوخ .. لا تضع بودرة ولا أحمر .. تكاد لرؤية بشرتها الناعمة تمتد
الأيدي لملاستها والتلذذ بنحوها .. وعينان ! رباه ! يا لعينها .. تنفشان سحراً

وناراً يدعوان الرجال إلى الحب والسلام ، ويدعوان النساء إلى الحرب
والخصام! .. أما شعرها .. فلم أره قط على رأس امرأة .. شعر غزير كأمواج
البحر ، فاحم داكن ، لا هو أسود ، ولا هو أزرق ، بل هو بين بين .. شعر
كالليل الذي ليس فيه قر ، ولكن أشرقت في زرقة السماء كواكبه ! رأس كل
شعرة فيه هي سلك كهربائي ، يلتف حول عنق الرجل فيأسره ، أو هي سهم
لا سلكي تريشه وترسله إلى قلب الرجل الموعود ، الذي يعرف ما هو جمال النساء !
وحسي هذا . إن تكرار هذا الوصف يزيد شبحي ، ويذكى ألمي .. إن
جارتني كانت من ذلك النوع الذي تدعو كل جارحة فيه إلى الهوى . وكانت
صاحبه واقفة من نفسها ، ومن جمالها ، ومن سلطانها على الرجال .. وكانت
تنتظرنى لتحدثني أياً كنت أنا ..

وأنا ، كما تراني ، لست امرأة قبيحة أو دميمة .. بل إنني أعد جميلة .. بل
إن زوجي كان يقول لي دائماً إنني أجمل من رأى من نساء في الشرق والغرب ،
وهو بنساء الشرق والغرب خير .. بيد أني أحسست لأول وهلة أنني لست
أهلاً لهذا الزوال .

يا ليت! .. يا ليتنا ما كنا قد سكنا هنا ، وكفانا الله شر القتال !
نهايته ! وجدتها تنتظرنى . وجدتها واقفة في كل نافذة ، في كل شرفة ،
في كل مكان .. وجدتها في كل ركن من البيت .. تحت الشجر ، وفوق الشجر ..
وجدتها في كل شكل ، وفي كل ثوب ، وفي نصف ثوب ، وفي ربع ثوب
شفاف لا يكاد يكون ثوباً ..! وجدتها في الصباح بقميص النوم ، غلالة من
حرير أبيض ، ثم أحمر ، ثم أصفر ، ثم أزرق ، ثم أسود .. ثم في بيجاما ، ثم
في قميص .. وفي هذا كله كانت أجمل ما تكون المرأة . تقف ساعة أو ساعتين
أمام مرآتها ، لا تشبع من زينتها ومن النظر إلى مرآتها ، ولا تشبع حتماً مرآتها
منها! .. وكانت تلتفت من تحت ذراعها المرفوعة تداعب شعرها ، وتنتظر

من طرف خفي ومن طرف صريح .. لا تبالي .. تنظر ، فإذا رأتني ضحكت ضحكة
عالية لها رنين موسيقى بهيج .. ومع ذلك أقسم أنني كنت أجزع له أشد من
جزعي لسباع صفارات الإنذار .. كان هذا هو الإنذار لي بأنني إزاء عدو
لدود ، شديد الشكيمة ، قوى المراس ، طويل المقام .. كيف نحول عن هذا
البيت ؟ وليس في البلد « خرم » ، إبرة خالياً ؟ وكيف لي بهذه المصارعة وأنا في
شهر العسل ؟ هل سأشغل زوجي وبنيتي وحياتي الجديدة ، أم سأشغل بصراع
امرأة أبعد ما تكون عني وأقرب ما تكون مني ، وهي مع ذلك الأقوى لأنها
الاجمل . وهي الأقوى لأنها البعيدة عن زوجي والغريبة .. وأنا منه دانية قريبة ؟
وهي الأقوى لأنه لا يملكها وهو يملكني .

ما باليد حيلة !

وكانت تقف في الفيراندا ، في ضوء القمر . فكأنها تمثال عجيب من العاج ،
لا يستطيع الرجال أن يروه إلا ويتعبدوا له ، ولا يستطيع النساء أن يرينه إلا
ويرجمنه بالحجارة ! ..

لقد أحسست أنني أذبل من رؤيتها .

وشغلت بها أكثر ، ألف مرة ، مما شغل زوجي . كنت لا أكاد أزور
أهلي ، خشية أن أترك زوجي وحده . فلا أخطو خطوة إلا وهو معي .. وكنت
إذا غبت بعض الوقت عند جيران شقتنا ، عدت فنظرت في الفيراندا لأرى
مواقع الكراسي ، ووجهتها ، وأين طقطوقة السجائر ، وما عدد أعقاب السجائر ،
لأخلص من هذا كله بنتيجة أطمئن لها أو أضطرب .. لأعرف كيف كان زوجي
جالساً ، وهل كان متجهاً إلى نافذتها ، يتظاهر بمطالعة الصحف .. وهل طال
مقامه إزاءها ؟ !

وبلغ بي الأمر أن كنت أعنفه على ذلك بالحق أو الباطل . لعله كان
مظلوماً . ولكنني كنت أحس بغريزة المرأة أن هناك في الجو شيئاً ، شيئاً مريباً ،
وأنه يخفي عني أمراً ..

وفي ذات يوم بلغت روحى التراقي ، إذ رأيتهما تفتن الأبواب ، وتضحك في وجهي .. فشتمتها .. قلت : « قلة أدب ! .. ناس ما يختشوش ! » .. فلم ترد علي أن ضحكك ضحكة طويلة ، رنانة ، موسيقية ، فيها كل الإغراء ، ولو سمعها عشرون رجلا ، « لكعبلتهم ، هذه الضحكة في الأغلال ، وساقهم وراءها ، كأنهم مهبوطون في حبال ، ولو ساروا إلى سقر ! .. »

لقد زادت جارتى في تعذبي بأدبها وترفعها عن الرد عليّ . فزدت في شتامي ، وزادت في حلها .. حتى تساءلت بيني وبين نفسي : هل تحط الغيرة من خلق صاحبها ، بحيث ينطق بألفاظ كان لا يتصور النطق بها ؟ !

وبعد تلك الشتائم الحادة ، من طرف واحد ، رأيت ما صعقت له .. رأيت أنها أدخلت « التليفون » .. فكذت أجن . لقد أصبح اتصالها ميسوراً دون أن أعلم ، لقد صار بوسعها أن تخاطبه أمام عيني .. فبدلت جهداً مضنياً ، حتى لا يرى زوجي التليفون .. فما كان من خادمتها إلا أن وضعته يوماً على الشباك ! .. فرآه زوجي .. وقال : ماذا ؟ إن جيراننا أدخلوا التليفون .. فقلت بلهفة ورجفة : كلا ! .. كنت كمن ينكر الشمس الطالعة .. قلت : هذه علبة سوداء ! .. أو لعل يومها قلت ما هو أخف من ذلك ! ..

ثم دق التليفون يوماً عندنا .. وكنت لا أدع لأحد سواي أن يرد ، خوفاً منها .. ذلك الغول الجميل الفتاك ، الذي كان ينهش لحمي ويبرى قلبي .. فإذا بها هي ! واشقوتاه من جرأتها ! .. كانت تتكلم بصوت مذهب رقيق .. فنادتني باسمي .. إذن فقد عرفت اسمي ، واسم زوجي ، ورقم تليفوننا ، وكل شيء .. كل شيء ! ..

فسألتها : من التي تتكلم ! قالت : واحدة ، أنت تكرهينها ، وهي تحبك ! وظلت هكذا برقتها بقلم أظافري ، وتكسر من حذقي وشرقي .. وسألتني أن تزورنا هي وزوجها .. فلم يسعني أن أرفض .. كان شوق خفي يدفعني إلى

روية هذه المرأة عن قرب ، وإلى سماعها تتكلم .. وكنت أعلم أنني بذلك أدخل النار إلى بيتي .. ولكن هل كانت النار بعيدة عنه ؟!

وفي اليوم المحدد لزيارتها أصبت بالحمى ، حمى المرأة التي تواجه المرأة . هل أقسم لك أنني بقيت أمام المرأة ثلاث ساعات كاملة أو أكثر ؟! لقد وضعت وخلعت عشرة أثواب حتى تصورت أنني لبست أجمل ما عندي . وتزينت زينة لم أترينها لزوجي يوم دخلتي ، لم أبذل في ليلة زفافي بعض ما بذلته لأتجمل لعدوتي ! ودخلت قبيل حضورها عند جيراني ، أسألن ، هل أنا جميلة ؟ .. فدهشوا من كل ما صنعت في وجهي .. لقد كنت فعلا جميلة . ولكن شيئا خفياً أشرق ولمع في عيني .. إن نار الغيرة لها لهيب مستعر ينعكس في العيون .

وانفردت بزوجي ألقته تعاليمي . فهو الذي سيفتح الباب لهما . بينما أكون أنا في غرفة النوم . فيجالسهما نحو خمس دقائق . حتى أدخل على مهل ، متظاهرة بعدم الاكتراث أو التلهف ، وما إلى ذلك ..

ودق الجرس في الساعة الخامسة تماماً . فأسرع زوجي . وواربت الباب : فإذا بها تدخل وحدها ! من دون زوجها ! فلم أملك أن جريت إليها ، خشية أن تخطف زوجي وتطير ! لقد خيل إلي أنها قديرة على ذلك .. فاعتذرت لي بأن زوجها سيتأخر قليلا ، ثم يلحق بها .. ولم يلبث زوجها أن جاء .

كانت هذه هي الساعة الفاصلة بيني وبينها . فشعرت ، بعد تلك العاصفة الهوجاء من الاضطراب والقلق والخوف ، بشيء من الشجاعة ، الشجاعة المغتصبة من صميم الخطر ، كالجندي الذي ينزل الميدان لأول مرة ، ولا سبيل أمامه للهرب ، ولا مجال إلا للنضال كالأبطال .

فإذا وجدت ؟! لقد قبلت التحدي بعد ما أضناني الجهاد ضد غريمي ثمانية أشهر طوال . وها هي ذى ! بكل جماها وإغرائها ! فإذا وجدت ؟ إنها لا تكاد تتكلم !.. لقد قلت لها : « آنستنا يا .. هاتم ! » ، فكانت ترد في حياء مدهش :

« الله يؤانسك ! » ، وبس ! .. لا شيء أكثر من ذلك ؟ ! أين إذن أسلحتها ؟
أين إذن نارها ؟ ! أين ما كانت ترسله إلى زوجي كالسهم من نظرات ، وترسله
على كالصواعق من ضحكات ؟ ! أين .. أين ذاك الدلال الذي كان يتفجر من
وراء الجدران ؟ !

لقد طال صمتها وتردها .. وبدأت إلى جنبي بكاء ! . صرت أنا التي تتكلم ،
والتي تضحك ، وتندل .. وظلت هي تنقص ، وأنا أزيد ، هي تصغر ، وأنا
أكبر ، هي تتناقص جمالا ، وأزداد جمالا ! ..

واتجهتُ إلى زوجها .. أريد أن أجذبه بدوري .. لقد آن أواني : فاتجهت
إليه بعقلي ، وقلبي ، وعيني ، ولساني ! .. صرت امرأة أخرى ، جريئة ، مغامرة ،
تريد أن تقن الرجل الذي أمامها ، من دون أن تكون بحاجة إليه ، أو يهملها
أمره ، وإنما هي تريد أن تنتقم من زوجته ، وتضايقها ، وتؤلمها ،
و « تكيعها » ! ..

كنت أنا الجميلة . لأنني كنت الجسم والروح . ولم تعد هي إلا جسما ،
إلا لهما ! ..

وتلاشت في غمضة عين غيوتي . وتبددت لوعتي . وحزنت على ثمانية أشهر
قضيتها في جهنم الغيرة ، أشوى منها على السفود ..

وأغمضت عيني من فرط الهناء ، إذ وجدت زوجي يكاد ينصرف عنها إلى
زوجها .. هو الذي لا يهمل شيء مثل العقل الجليل ..

ومن يومها تركت النواقد مفتوحة على مصاريعها .. وصرت أنا التي
تضحك ، وتصيح ، وتصول ، وتجول ..



هذا حديث سعاد .. وبقى حديث زوجها ، وحديث غريمتها ..
وهي قصة لم تتم بعد فصولا ..

فى مقهى جامع باريس !

أغسطس ١٩٣٩ ...

إنه حديث عن الأمس وعن اليوم ، عن بعض ذكريات الماضى الذى يرجع إلى عشر سنوات ، وعن لحظة فى هذا الأسبوع ، فى المكان عينه . وما أشبه الحديث بدمعة وابتسامة ، مثل جو باريس ، الذى تدمع فيه عيون السماء من خلال شمس مشرقة ...

جئت باريس فى الشتاء الماضى ، ومع ذلك لم أرد أن أعود إلى مقهى الجامع ومطعمه ، لأن الصورة الحية الجذابة التى كانت تملأ بهجة ومرحاً قد اختفت من الدنيا بموت « الحاج طاهر الصباغ » .. حتى دعانى هذا الصيف ذات يوم إلى الغداء صديقى (المرحوم) إبراهيم عامر باشا ، ولذا بالسيارة تتجه بنا ، من حيث لا أدري ، إلى جامع باريس .. فدخلت المطعم لأول مرة بعد هذه السنوات الطويلة ، مع الباشا الثرى المحبوب ، وسكرتيره الخواجة ليقى شمنهطوب ! (اسمه كده !) .. ثم عدت إليه مرة أخرى فى هذا الأسبوع ، مع صديقى العزيزين : النائب المحترم والكاتب المفتن أحمد الألفى عطية ، والأستاذ على أمين المهندس النابغ (بحق وحقيق) .. وبعض العقيات المصريات الفاضلات ...

لقد جعلنى « على » ، أبتم وأضحك مرة أخرى فى ذلك المكان الذى طالما بسمت فيه وضحكت مع الحاج طاهر .. فقلت لنفسى : علام الأسى ، وروح الحاج نفسها ما زالت تملأ المكان مرحاً وطرباً !؟ .. خير من الأسى أن نبعث إليها بهذه التحية الرحيمة .. لتعرف ، فى مستقرها ومستودعها ، أننا ما زلنا لها من الأوفياء الذاكرين ! ...

كان الحاج طاهر الصباغ رجلاً عملاقاً ، في حدود الشيخوخة ، ولكنه
يحمل كهولته بعزم الشباب . . وهو ، بصدره العريض ، وقامته المديدة ،
وبرانسه الحريرية ، كأنه من غزاة الرومان القاطنين . . يستقبلك ببشاشة :
« أهلاً وسهلاً بونچور مدام مسيو . . . بلاس سلفوبليه يا عبده . . . شوية عود
وطبل يا سيدى ! . . . »

هكذا كان صوته يدوى رخياً ، مصطحباً أحياناً بفرقة من أصابعه ، وهزة
راقصة من كتفه . لا بد له إذا رآك من أن يردد بيتاً من الشعر والقصيد ! ..
دخلت إليه يوماً ومعى فتاة فرنسية حسناء ، كنت أسكن عند ذويها . فلما رأنا
أقبل سريعاً ، وتناول يدها فلقمها ، ثم نظر إلى حاسداً على هذه « الماسة الفريدة » ،
وقال ناظراً إليها :

خطرات النسيم تخرج خدي

« ولس الحرير يدن بنه »

فسألتني أن أترجم لها ، فترجمت . . وابتهجت هي ، ورأت كل ما في مقهى
الجامع ظريفاً ، لاسيما الحاج طاهر الصباغ : الشاعر ! . وكنت مرة ، أول
وصولى باريس ، أسكن نزلاً (بنسيوناً) متواضعاً في الحي اللاتيني ، مع قريب
لى وصديق . . وكان الحاج طاهر قد دعانا إلى « الملوخية » و « الكسكسي » ،
أكثر من مرة ، فرأينا أن نرد له يوماً بعض دعواته ، فدعونا له لعشاء على قدر
الحال ، في ذلك الپنسيون الذى كانت قاعة الطعام فيه ، على صغرها وضيقها ،
تضم نحو ٤٠ شخصاً من نحو ١٥ دولة . . بين شبان وفتيات ، جلهم ، إن لم
يكن كلهم ، من طلبة العلم في السوربون .

وفى موعد الأكل ، جاء الحاج طاهر . . فلفت جميع الأنظار ، بقامته المهيبة ،
وعينه اللامعتين ، وثيابه المراكشية من الخز والديباج العاجى ، و « بلغته »

الفاسية البيضاء .. ولكن تصور دهشتنا وحيرتنا و مصيبتنا ، في تلك الليلة ،
عند ما دخل قاعة المائدة وراء الحاج « جرسونان » ، مراكشيان ، يسرو اليهما ،
وصديريتهما الموشاتين ، حاملين سبع حلل ملأى : بالدجاج ، والكفتة ،
والكباب ، والكسكى باليخنى ، والكسكى بالسكر ، والملوخية !!
لقد حمل إلينا طعاماً يساوى وقتئذ نحو ٥٠٠ فرنك ، أى أربعة جنيهات ،
لنا نحن الأربعة .. وضع الرجلان الحلل على المائدة ، بين نظرات الدهشة
والتطلع والإعجاب من البعض ، والاستنكار والغمز أو الابتسام من الآخرين ..
فتصينا عرقاً ، ولم نعرف ماذا نقول ، أو ماذا نفعل .. وهل يعد هذا نوعاً
طريقاً من تلبية الدعوات ، وأنى لنا أن نجد هنا « الأطباق » الفارغة التى يوضع
فيها هذا الطعام ؟

والحاج يقول : « أعطوا الجميع !. دعوهم يأكلوا معنا ! .. إنهم حتماً
يجوعون هنا ! .. » . وكنا فعلاً فى ذلك الپنسيون نجوع ، بل ونموت جوعاً ،
بالنسبة للآكل الشهية الفنية التى حملها إلينا الحاج طاهر ، ذلك الشهم المغربى
الوفى تـكـریم .

قلبا رأيت مثله راوية للأشعار ، تجلس إليه الساعات الطوال ، فيجعل
مجلسك سوق عكاظ .. ولا سيما جانب الغزل والنسيب .. فقد كان ذلك الشيخ
يذوب وجداً وصبابة . وكان يتكلم الفرنسية ، ولا يقرأها أو يكتبها ، فيحمل إلى
أحياناً خطابات فياضة بالعواطف ، ويسألنى ترجمتها . وكثيراً ما اشتركت
وصديقى الأستاذ « عبد المنعم الشريعى » فى الترجمة .. ثم فى الرد عليها !
هذه هى الصورة الجميلة التى ملأت مقهى الجامع ومطعمه ومغناه دهرًا ،
ثم غابت الآن عن الوجود .. ومع ذلك يخيل إلى ، كلما قصدت الجامع ، أن ذلك
الصوت العذب ما زال يملأ الجو .. ويملا أذنى ! ..

وجلسنا على الأرائك ، وطلبنا القهوة والشاي والجلوى .. في ذات المكان
الذى عرفنا وعرفناه منذ عشر سنوات . . وكانت الموسيقى الشرقية تصدح
بنواحيها الشجي ، في الحديقة الجميلة ، ضمت من العشاق بين حناياها اثنين اثنين ،
من كل زوجين ! ..

وتدفقت جموع السياح . . وكانت سيارات « الأوتوكار » لا تنقطع حاملة
رواد باريس في هذا الموسم وخلال إجازات ١٥ أغسطس المشهورة . فلم يكن
من الصديق « على أمين » إلا أن أخذ عمامة أحد إخواننا المغاربة فلبسها ، ثم وضع
طربوشه على رأس « الالني عطية » ، وتربع ، وأخذ نخدة على حجره ، ووضع يد
الالني على النخدة ، وراح ينظر خطوط حظه ، بينما هو يدخن الشيثة .. والناس من
حولنا يتجمعون ويتجمعهرون . فطلب مني أن أصيح ، بالإنجليزية والفرنسية :
« مغربي يفتح الكتاب » .. فوقفت فتاة أمريكية ، كأنها حورية من الجنة ، تنظر
إلينا في دهشة واستفهام ، ففسرت لها مطالعة البخت في الكف ، فبسطت
« للشيخ على » يدها البضة الناصعة ، فكأنها نثرت على الوسادة كفاً من اللائى .
فأمسك « على » طاسة نحاسية صغيرة ، فيها نقود فضية ، وقال لها بالعربية ، كما
لو كان لا يعرف غيرها لغة : « ارمى بياضك » . فنظرت إلى ، فترجعت لها ،
وترفقت بها ، بلهاها ، فقلت : « بياضك ٢٠ فرنكا ، ! .. فوضعت النقود في
الطاسة .. فقال « الشيخ على » :

— أنت فتاة لا يفهمها أحد . . إن روحك وثابة ، ولكنها لذلك أيضاً
معذبة ، شديدة الذكاء . . وأنت مع ذلك طيبة القلب : تصدقين الوعود التي كثيراً
ما تكون كاذبة ، فيخيب أملك ، لأنك تعتقدين أن الناس جميعاً صادقون ، على
شاكلتك .. ولكنى أرى في الأفق شيخ رجل .. الشيخ أبيض ، والبياض في
الأشباح رمز الوفاء .. هذا الرجل إذا وعد وفى ، أظنه سيعد قريباً — إن لم

يكن وعدك منذ قليل — وهو صادق، فيكافئ صبرك، ويضمد جرحك ...
ف نظرت إلى الفتاة متوسلة، سائلة :

— هل يقول « الشيخ » إنه يجب أن أصدق ؟

فاحترت والله !.. نظرت إلى عينيها الزرقاوين، تكاد تترقق فيهما دمعتان ،
وكدت أصرخ في « على » : « كفى تهريجاً يا شيخ ! » .. لكن عز على أن تحكم علينا
هذه الفتاة بالعبث والسخرية من شعور الناس ، ولا سيما أن معنا سيدات من
المفروض أنهن صادقات !.. فقلت ، كأني أترجم ، بعد ما لعنت سفسيل « على » :
— أجل .. صدقيه .. ولكن بحذر .. فلا تندفعي في تصديقه اندفاعاً
أعمى ، لأن في الجو سحابة صغيرة ، قد تكون من جانب أهلك أو أهله .. فاحفظي
خط الرجعة .. واحذري السلاح الذي تلعب به المرأة عادة ، لأنه ذو حدين !
وجاءت عجوز أمريكية شطاه .. خط شاربها .. فصاح بها « الشيخ على ! » ..
ف نظرت إليها وقلت : « خمسون فرنكا !.. ارمي سوادك ! » .. فوضعت
الفرنكات في الطاس ، وسألت : ما هو السواد الذي ترميه ؟ فقلت لها : إن
كل همومها ستسحب منها بفضل تعاويد « سيدنا الشيخ على » ، كما انسحبت
منها الخمسون فرنكا !..

وراح « على » يقول إنها أصيبت في حياتها بمأساة ، ولكنه يرى تبديلاً
جلياً في خط قلبها ، وتحولاً جدياً في حظها .. ولم يكن ينقصه إلا أن يبشرها
بغلام !.. وكان الدليل قد نادى على قافلته ، فهولت إلى السيارة .. وتخلصنا
منها !.. وكشف « الشيخ على » عن رأس غارق في عرقه ومرقه ، من تحت
العامة المغربية . وترك « الشيشة » ، التي عدها السياح « بيبة » شرقية ، وتها مسوا
بضخامة « تعميرتها » !..

ونظر إلينا الشيخ المعمم نظرة كبرياء وزهو ، لأنه استطاع أن يكسب في
ربع ساعة ، وفي قلب باريس ، سبعين فرنكا ..! ولو فعل ذلك عند « بديعة »
لضربوه بالقباقيب ! ...!

وكذلك أراد القدر أن أعود فأكون ، في هذا المكان من مقهى جامع
باريس ، ترجماناً ..! فنذ عشر سنوات ترجمت فيه رسائل الغرام والحب ..
واليوم ترجمت فيه قراءة الكف ، والنصب ..!
فهل يحى يوم أعود فيه محباً محبوباً ؟ ..! يارب ..!



مدينة النور : في الظلام

كانت مدينة النور تستعد لزيادة نورها ، ومضاعفة جوارها . كان رجال الفن فيها قد راحوا يقدحون عبقرتهم لتخرج لهم أضواء جديدة تجمل المدينة التي ليلاً أسطع من نهارها ، والتي تكسف مصابيحها شمسها وقمرها ونجومها جميعاً . . . كانت باريس تهم بارتداء ثوب جديد من اللؤلؤ المشرق ، عندما صاح النذير بها : إن الحرب على الأبواب . إن العدو يترصد بها . إنه غيور منها . إنه ناغم عليها ، يحسدها ، لأنها صاحبة الحظ من دون مدن الأرض كلها . . . لم تستطع برلين أن تنال منها ، إلا إذا نالت العجوز الشمطاء من الكاعب الحسناء . . . !

وظللت كل يوم أودع أصدقاء أعزاء ، آثروا الرحيل والعود إلى الأوطان . وما زلت أعلل النفس بالتصارع العقل على الجنون . ولكنني كنت قد نسيت تاريخ هذه الإنسانية المعذبة ، أو تناسيته . وهو يدل على أن الجنون انتصر دائماً : الجنون بالمجد ، والجنون بالفتح ، والظلمة الحيوانية إلى الدماء . . . كنت إذن واهماً . . . ! إنني نسيت حتى حكاياتنا المحلية المعروفة . . . نسيت حكاية ذلك المجنون الذي هرب من مستشفى المجاذيب ، وخطف ولداً صعد به إلى سطح عمارة ، وراح يهدد الناس بإلقائه إذا دنا منه أحد . . . وأم الطفل تولول ، والناس يضربون كفاً على كف ، ويتوسلون إليه . . . وهو يضحك منهم ، ويسخر من وجلهم . . . ! واقترح رجل ذكي أن يكون الدواء من ذات الداء ، وقال إن للمجانين لغة لا يفهمها إلا المجانين . . . فقصدوا مستشفى المجاذيب ، وعرضوا الأمر على نزلائه . . . فتطوع أحدهم لإنقاذ الطفل ، وطلب مشاراً ، وقصد المجنون ، وبصق عليه بصقة ظن أنها تصل من الأرض إلى سطح عمارة من ستة

أدوار !.. فرد المجنون الآخر ببصقة .. فقال له : « انزل يا وغدا !.. يا مجنون » !
فأخرج له المجنون لسانه !.. فقال له : « انزل وإلا نشرت العمارة بهذا المنشار » !
وراح فعلاً يحز في الجدار بمنشاره !.. فصرخ المجنون الآخر فزعاً ،
ونزل راضخاً مستسلياً ، وسلم الطفل لاهله !..

كان المستر تشمبرلين رجلاً عاقلاً يخاطب رجلاً مجنوناً .. كان يلوح
بمظله .. حملها إلى ميونخ بالطيارة ثلاث مرات في أسبوع .. فلم يفهم هتلر .. إن
هتلر كان يزعم أن اليد التي تحمل المظلة لا تعرف كيف تستخدم السيف !..
ذهل الناس من هول الموقف . تصوروا كل الخراب ، والدمار ، والقضاء ،
الذي تعرضت له البشرية في طرفه عين . لم يكونوا خائفين ، ولكنهم كانوا
مندهمشين ، حائرين ، ذاهلين .. كانوا لا يتصورون أن في الدنيا بشرياً قد من
حجر ، لا يعرف الرحمة ، أو الحنان ، أو الحب . إن رجلاً واحداً قد قضى على
العالم بالحداد ، ولبس السواد : يتم الأطفال ، ورمّل النساء ، وترك الأمهات
شكالى . إن رجلاً واحداً قد ارتكب أفظع جرم في تاريخ بني آدم .
فلما استيقظ الناس من دهشتهم ، رأوا أنفسهم مسوقين في مواكب إلى
الموت ...

وكان لزاماً أن تخلو باريس من أكثر سكانها ، رحمة بهم ، وتخفيفاً لعناء
حمايتهم . أى بلد في الدنيا مسته الحرب والكر ب مثل باريس ؟ !.. إنها بلد
الترف ، والوجاهة ، والزهو ، والاناقة ، والذوق ، والرشاقة .. إنها هى التى
بدأت قبل الحرب بدفع الثمن .

هجر باريس مليونان من أهلها ، بناء على دعوة الحكومة ، ورجائها مغادرة
العاصمة المعرضة للغارات الجوية .. ثم هجر باريس مليون ثالث (وسكانها أربعة
ملايين) بعد الإنذارات بالغارات الجوية ، الليلية والنهارية .

تمر الآن في الشانزليزيه ، وهو جنة الدنيا ، فلا تجد إلا خراباً ييباباً ..
لقد مررت ، يوم السبت ٩ سبتمبر ، في ساحة قندوم — أحفل ركن ،
في المعمورة ، بالوجاهة والعظمة ، الركن الذي يمر فيه الملوك والعاملات جنباً
إلى جنب — فلم أجد فيه غير سيارتين اثنتين ، وثلاث قطط ! ..

أغلقت تسعة أعشار تلك المحال ، التي لا نظير لها في الكون سلامة ذوق ،
وروعة فن . إن باريس الرشيقه نزلت إلى الميدان ، انقلبت النعامة أسداً ! ..
وأصبحت ترى على القاترينات في كل مكان شرائط من الورق ، لتحول
دون انكسار البلور ساعة الانفجار ، فكأنها نسيج العنكبوت ، أو أرجل
الأخطبوط .. يالها من دهشة كثية ! لقد تحول النور الماسي إلى ظلام
دامس ، أو زرقه جنازية قاتمة .. وصرت ترى على كل واجهة : « سافر إلى
ميدان القتال » .. أو : « الموظفون يجندون » .. أو : « موعدنا العام القادم ! » ..
أو : « إلى اللقاء في برلين ! » ..

أما جميع الآثار ، والتماثيل الجميلة ، وزخارف الأوبرا ، وقوس النصر ،
فقد وضعت عليها « سقالات » ، وعوارض خشبية ، وأكياس من الرمل ، حماية
لها من شظايا القنابل ، حتى أصبحت أقرب شياً بالرأس المتخن بالجراح قد
التفت حوله الضمادات !

أما مقاهي باريس ، وهي وحدها عالم بأسره ، يشرح الصدر بتنوعه
وبهجه ، فقد عبس وجهها ، وتولّى بشرها ... سافر « الجرسونات » الشبان إلى
ساحة القتال .. سافروا واحداً بعد واحد ، حتى لقد حدث أن جاء يوماً إلى
مقهى « المارينيان » — مقهى المحجب — جرسون نصف ، ليحل محل شاب
رحل ، فدخل ليتناول الطعام ، ثم يبدأ عمله .. ولكنه لم يكدم إليه يده ،
حتى جاء النذير يدعوه أيضاً ، فهب واقفاً : يلبى نداء الوطن !
وحل الشيوخ الطاعنون في الخدمة محل الشبان ... وكلهم له أولاد في

خط النار .. وكلهم في عنقه أولاد أولاده وأولاد بناته .. وكلهم واجم مذهول .. كيف يمكن أن يرتاح لرؤية أجنبي في ريعان الصبا — مثل ! — لا يرتدى الثوب الخاكي ، بل هو في نظرهم يرتع ، ويلعب .. بل ربما كانوا يزعمون — ظلماً وعدواناً — أنه يعيث في الأرض فساداً .. !

أصبح كل أجنبي في باريس — أياً كان ، وأية كانت جنسيته — محل البغض والاحتقار ، إذا كان في سن حمل السلاح ولا يحمله ، لا فرق عندهم بين : سامع ، أو طالب ، أو صحفي ، أو رجل أحلام ، يبحث عن ضروب من الأوهام ..

لم نعد نستطيع أن نتناول فنجان قهوة ، أو صحناً من اللحم ، أو كأساً من الليمون ، إلا ونبلغ مع هذا كله مقداراً كبيراً من « زغرات » الازدراء .. وكنا أحياناً « نزور » هذه « الزغرات » ، ونتمرد عليها ، ونحاول أن نردها .. ثم تمالك أنفسنا ، أو تذكر أى جو حزين حولنا ، حرام على الناس فيه الابتسام ..

* * *

وهكذا عبست المدينة الضاحكة ، ووجمت : شوارعها ، ومتاجرها ، ومتاحفها ، وأهلها ، جميعاً .. وتحول النور إلى ظلام ! .. ولكن ظلام موقوت ، لن يطول ، لأن الله سبحانه وتعالى يأبى أن يغرق هذه الحضارة طويلاً في طوفان من الدماء .. ويأبى إلا أن يتم نوره ، ولو كره الخفافيش ، أحباب عزرائيل ، وأنصار الفناء .. وتعود مدينة النور إلى الإشراق والحبور ..

[باريس : سبتمبر ١٩٣٩]

غارات جوية : على باريس

كانت تجرى ، في باريس ، قبل الحرب الحاضرة ، في الساعة الثانية عشرة من ظهر كل يوم خميس ، تجربة صفارات الإنذار بالغارات الجوية . كانت هذه التجربة ، التي سمعتها في شتاء ١٩٣٧ ، ثم ربيع ١٩٣٨ ، بمثابة تنبيه الأمم إلى واجبها ، ودليل يقظة الحكومات لحماية رعاياها . وقد عدت فسمعتها ، وأسفاه ، في سبتمبر ١٩٣٩ ، بعد إعلان الحرب ، تصفّر نهاراً ، فتكتسح الناس من أعمالهم ومكاتبهم ، وتقف السيارات ، والقطارات ، وتنهلح لها القلوب . . . وتصفّر ليلاً ، فتوقظ الناس من نومهم ، وتتزعجهم من فراشهم ، وتلقى بهم في أغوار الأرض ، وبطونها ، ومخابئها ، وكهوفها ، وهم في غلاثل النوم ، لا تكاد تسترهم ، حيث يقون الساعات الطوال . انقلب الخيال حقيقة مروعة ، وتبدل الحلم يقظة موحجة . وبعد ما كان الناس يستمعون إلى صفارة الإنذار ويبسمون ، أصبحوا يسمعونها في اكتساب ويحرون ، وإلى مقابر الأحياء يهرولون !

° ° °

الفرنسيون يعلمون ، والعالم كله يعلم ، أن هدف الألمان الأول سيكون باريس . فهي ليست عاصمة فرنسا وحدها ، وقلب دفاعها ، ورمز كبريائها ونفورها ، ومقل حكومتها ، وكثر أسرارها وفنونها . . ليست باريس هي هذا خصب ، بل هي أيضاً عروس البلدان : حجارتهما تتكلم بأفصح لسان ، وشوارعها تنطق بما شهدته من ثورات في سبيل حرية الشعوب ، وقصورها تتحدث عن أعجب جانب من التاريخ .

فمن يضرب باريس يهز قلب العالم . لأن باريس ليست وفقاً على وطنها .

لأنها البلد الذي اشتركت في تكوينه الحضارات القديمة والحديثة ، والذي بعث إليه كل الأمم ، حتى الأمة الألمانية ، بأذكي من فيها ، يحملون إليها ما في جعبتهم من نور المعرفة ، ويأخذون منها ألواناً فاتنة من الذوق السليم ، والفن الجميل .

ولهذا كله ، لا تكاد طائرة واحدة ، من طيارات الاستكشاف أو التدمير والهلاك ، تجتاز الحدود الفرنسية ، عند ستراسبورج ، أو ملهوز ، ولو كانت تبعد ثلاثمائة أو أربعمئة كيلومتر عن مدينة النور ، إلا وتتجأب أنحاء باريس بصفارات الإنذار ، الصارخة ، المرعبة ...

فتصوروا حياة المدينة التي كانت من قبل لاتنام فرحاً وابتهاجاً ، أصبحت لا تنام جزعاً واكتئاباً .

شهدت من هذه الإنذارات الفاجعة ثلاثة ، في خلال عشرة أيام .. وسأصف ، بقدر ما يسعني الوصف ، لمحات من هذه الأزمات الجديدة على النفس البشرية ، النفس المعذبة بين مطاعمها وأهوائها ، بين طفانها ونزواتها ، بين استبدادها وذاتها .. فإن ما قد يصيب اليوم باريس ، أو لندن ، لا بد من أن يصيب غداً : برلين ، وفيينا .. وإذا كان جزاء وفاقاً أن يصيب برلين ، فما أصعب تصور أن يصيب « فيينا » ، وهي البلد الذي كان يتمنى العالم المتحضر لو انتقل روحه المصق إلى برلين ، بدلا من أن تدمغه برلين بصليها المعقوف !

كان الإنذار الأول بالغارات الجوية بعد منتصف ليلة من ليالى شهر سبتمبر الأولى . وأكثر سكان العارة التي أسكنها نزحوا عن باريس ، لأنهم من ذوى اليسار الذين لهم بيوت في الريف ، أو لديهم أسباب العيش في كل مكان .. ومع ذلك كان لا يزال باقياً كثير من الخدم يُعدون معدات الرحيل الأخيرة ، ويعدون المساكن ، لتبقى بغير أهلها ، فيغطون فرشها ، ويسدلون سترها ، ولا

يركون بها طعاماً . . فإذا الأبواب تفتح وتقفل ، بشدة ، وسرعة ، وعنق . .
ولذا المصاعد ، ومنها ثلاثة للسادة وثلاثة للخدم (ومساعد الخدم غليظة
ثقيلة) إذا بها كلها تحمل السكان إلى المخاض الأرضية . والبوليس يصفر بصفارته
الخاصة الطويلة ، تنبهاً لمن أناروا غرفهم ، عند يقطتهم ولهفتهم ، ليطفئوا
النور ، ويلتمسوا كل شيء في الظلام الدامس . . وصفارات الإنذار المحزنة
ما زالت تولول ، كأنها ألوف الأمهات ثكلن أولادهن في لحظة واحدة ،
فأخذن يصرخن ويندبن جميعاً ، في صوت واحد ، حزين ، أليم . . .

تقلبت في فراشي ، وأضأت النور ، والستائر السكيفة مسدلة ، ورحت
أفلسف ، تحت الغطاء الخفيف ، فلسفة الحياة والموت . لم أشعر بالخوف ،
ولنما شعرت بالانزعاج والأسى . تصورت الذين هم حينئذ في ميدان القتال ، في
ساحة الموت . تذكرت الذين يهاجمون ويدافعون الآن في قلب السماء ، على
طائرات ، تلقى من حولها النار والدمار ، وتبذر الويل والمصائب .
نفعتني فلسفتي الشرقية ، التي ترى كل شيء قسمة ونصيباً ، وأن المكتوب
على الجبين تراه العيون . . ومع ذلك كنت أناقش نفسي هكذا :

— انزل ! . هذا خير لك .

— « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

— « قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ولو كنتم في بروج

مشيدة » !

— اقعد وتوكل !

— « ومن توكل على الله فهو حسبه » !

— يا رجل ! . اتق الله في نفسك !

— « فإله خير حافظاً . وهو أرحم الراحمين » !

وهكذا أقول ، وأرد على نفسي ، وأثقل في فراشي تارة ، وأسير في

غرفتي تارة أخرى ، وأشرب ماء مثلجاً ، وآكل « خوخاً » .. في حين سكنت صفارة الإنذار ، لأنها أدت ما عليها من التنبيه والتحذير .. فزاد سكوتها الجو اضطراباً ! .. وشعرت بأن أشباح الرعب والهول تضارب الآن في سماء مدينة النور ، التي تحولت إلى مدينة الظلام ! ..

وحاولت القراءة ، أو الكتابة ، فلم أفهم ما أحاول قراءته ، ولم أعرف ما أحاول كتابته .. وأدركت ، في تلك اللحظة الرهيبة ، أن صناعتنا أولى بها النساء ! ..

كتب الحرب والقنابل علينا

وعلى الفانيات جرّ الذبول

أجل .. جرّ الذبول ، وكتابة المقالات ! ..

ولم أنزل فعلاً .. وكنت في كل لحظة أترقب قبلة تشقّ العبرة نصفين ، وتلقي بي تحت الحجارة والتراب .. وكنت مع ذلك أتصور أنني سأنجو من الموت بأعجوبة ، لأن رجال المطافيء ، وجنود الدفاع السليبي ، قد أسرعوا فأزاحوا عن صدرى الطوب والحجارة ، ورفعوا عن وجهي أكوام التراب ! ..

ثم كان الإنذار الليلي الثاني ، وقد بدأت الحرب تصيح جديلاً هزلاً . ونزع أكثر سكان باريس عنها . فإذا في الساعة الثالثة صباحاً أصوات الصفارات تمزق حجب السكون ، وتخلع الأفئدة رعباً . وما كدت أغمض عيني ، بعد مطالعة طويلة ، تغلبت بها على وجع ضرس لي ، يحيرني ويحاورني منذ عام ، يريد أن ينخلع ، وأنا مصر على بقاءه عملاً بمشورة الطبيب . فكان هذا الضرس الملعون قد سمع أيضاً صفارة الإنذار ، فتحرك ، وطفق يندق وينبح .

وكان في العمارة التي أسكنها ١٥٠ ساكناً - عادة - فلم يبق منهم إلا ساكنان ،

والبواب وزوجته ، وثلاث خادמות أو أربع . فلم أسمع إلا باباً أو بابين يغلقان
بشدة . ولم يتحرك من المصاعد إلا مصعد واحد . وبقيت كأني بواد مهجور ،
انطلق عليّ فيه الذئاب والتمور ! ..

كان لا بد لي هذه المرة من النزول . ولم يكن نزولي خوفاً على حياتي - غير
الغالية - فحسب ، بل حباً أيضاً في صناعتي ، ورغبة في الاستفادة من كل التجارب
التي تجرى من حولي . نزلت إذن ، بعد ما وضعت معطفي على البيجاما ، ولم
أنزل في كهف عمارتنا ، لعلني بأنه زنانات خاصة ، بل قصدت الدار المجاورة ،
وعليها إشارة بأنها نجاً لا كثر من مئة شخص . وكانت تلك الدار فندقاً ، هو
فندق « وندسور إليزيه » المشهور ، فخياني البواب مبتسماً ، وقالت لي البوابة :
« إنها نزهة الفجر للشعراء » .

— من هنا يا سيدي ! من هنا يا سيدي ! .

هكذا كنا نسمع ضوت الدليل يهديننا إلى مداخل الكهف . وكان كل
ضوء مطفأ ، تمد يدك فتقع على ذراع سيدة ، أو لحية شيخ ، لا يكاد يبرق إلا
شعاع ضئيل ، الفينة بعد الفينة ، من بطاريات أحد رجال الدفاع السليبي ، من
المتطوعين ، أو المجندين . فرلنا طبقة طبقة ، ودرجة ودرجة ، فإذا الكهف فسيح
مرجح ، فيه مقاعد ، وفيه مناخذ ، ومضاء بالكهرباء . وكنا نحو عشرة رجال
بين ستين أو سبعين امرأة .

ولم يكن معي قناع الغازات . فإذا سقطت قنبلة غازية ، وكنت في الكهف ،
غافني من الهالكين ..

وإذا سقطت قنبلة محرقة ، وكنت في مسكني العالي ، فإني أيضاً من
الهالكين ..

كان الموت يحلق فوق رؤوسنا ، وكنا في مأتم الإنسانية ، جالسين
صفوفاً ..

وراح البعض يلعب الورق ليتسلى ... ورأيت ما أدهشنى وعزاني
معاً : سيدتين من سكان الفندق ، أجنبيتين ، نزلتا إلى الكهف في ثياب السهرة :
الظهور عارية ، والصدور عارية ، والاكتاف عارية ، والأذرع عارية ،
والعيون تلتق أيضاً نظرات عارية ! ...

كنا لفيماً عجيباً من كل الاجناس . كنا البقية الباقية من عشاق باريس ...
فأرت باريس ، وقد كثر عشاقها ، وضايقتها مزاحمتهم عليها ، أن تتخلص منهم
فريقاً بعد فريق ... فزح من نزع ، وهجر من هجر ... أما الذين ظلوا يلحون
في الحب ، ويسرفون في العشق ، ويتفانون هوى وصباية ، فقد أنزلتهم عن
أسرستهم ، في صميم الليل ، إلى المغاور والكهوف ! ...
وتبادلنا النظرات .. وتبادلنا الشكوى والرجاء .. وظللنا على هذا أربع
ساعات كاملة .

أى حب في الدنيا بغير فداء ؟ !

أما الإنذار الثالث فكان نهائياً ، أشبه بالدعابة إذا قيس بالإنذار الليلى .
كان في الساعة الحادية عشرة صباحاً .. وكنت أكتب رسالة أو مقالة ، في
مقهى المارينيان بالشانزليزيه .. وأنظر جريدة « پارى ميدي » (باريس
الظهر) ، فلما راحت الصفاير الهائلة تلتق موجاتها المربعة على الشوارع ،
واليوت ، والمتاجر ، هرع الناس إلى الخافي .. وحملوا قناعاتهم ، وأغلقوا
مكاتبهم وحواليتهم .. ونظرت من حولى ، فلم أجد من الزبائن ولا الجرسونات
أحداً !.. فقممت .. وأعجب إذا أردت العجب .. فإني لم أرد أن ألحق بأى مخبأ ،
أقرب مخبأ ، كما تقضى تعليمات البوليس .. بل أردت أن « أنق » ، وأختار !..
قلت : من يدرى ؟ فقد أبقى أربع ساعات أيضاً تحت الأرض ، فلماذا أقضيها مع

أجلا ف مناحيس ؟ . رحت أنظر وأتأق فى الاختيار ، حتى وجدت عش بلبل .
فقد رأيت حسناء فاتنة : عيون زرق ، وشعر ذهب ، تغلق نافذة الدور الأرضى
استعداداً للنزول إلى كهف بيتها الصغير المتواضع ، الذى لا يسع إلا ستة عشر
لاجئاً . . . وكان بيتها بحيث إذا سقطت عليه قبلة أحالت عظامنا فى الحال حتما
رماداً تذروه الرياح . . قلت : الرب واحد والعمر واحد ! . . خير لى أن
أموت فى عش بلبل ! . .

ونزلنا . . وكان كهفاً رطباً ، فيه مواسير ، وكله منعرجات . . تفطس فيه
القطط ، فكيف بنى آدم ؟ . .

ومع ذلك راح المكان ينضح عطراً . . وسمعنا زقزقة العصفور وتغريد
العندليب . . وقضينا ساعة تبنى بعضنا لو طالت إلى ساعات . .
وانتهى الإنذار . . . فصعدنا إلى وجه الأرض . . وحملت للتى هدتنى إلى
عش السلايل مقعدها الذى كانت أنزلته احتياطاً لطول المقام . . فشكرتنى
بابتسامة ساحرة ، وقالت : « إلى المرة القادمة ، . . »

ستمر الغارات . . . وتحلق أجنحة الموت ، وأنا بعيد عن ذلك الركن
المتواضع ، الذى تنبض حجراته بالحياة والحب . . سأخلف الوعد ، وأنكث
العهد ، على رغبى ، لأنى رجعت إلى الاوطان .
فغفوا أيتها العيون الزرق ! . . وغفراناً أيها الشعر الذهب ! . .

مجاور في باريس

باريس ...!

يقولون إنه لا يكاد يتحدث إلا عنها ، رغم كل ما كان ، وكل ما يكون ،
وكل ما سيكون ..

وقد يكون مخطئاً ، ولكنهم اعترفوا بأنه ليس إلا مخلصاً ... يقولون :
ماذا يحب فيها ، هذه المدينة الضعيفة ، المنكسرة ، الحزينة ؟!

فيقول لهم : إن حبي لها اليوم أشد منه في أي وقت مضى .. إنني لا أحب
المرأة في عزها . لأنساها في مرضها ، ولا أهواها في دولتها ، لأنبذها في ذبولها .
عندما أحب « أرمان » ، « مرجريت » ، « غادة الكاميليا » ، كانت محظية
لغيره ، وكانت مصدورة ، وكانت تنفث دماً .. فلم يسأل عن مالها ، ولا عن
شبابها ، ولم يسأل عن صحتها وقوتها ، أو مدى بقاء جمالها ... استسلم للقلب
يقوده ، وللحب يسوده ، لا يطلب فائدة ، ولا يتوقع نفعاً ، لأن الحساسية النبيلة
وحدها ، هي التي تطهر النفس من أدرانها ، وتطهر الأرض : من النفعيين ،
والوصوليين ، والمرابين ..

رباه ! . إنني أحب هذا الركن من الأرض . فاعف لي حبي ، واترك لي حبي .
إنني أحب الركن الذي حنا على ، يوم كنت في حاجة إلى الخنوّ . وأشعرتني
أنني غني ، عندما كنت فقيراً .. ولوّح لي بالمجد ، عندما كنت غاملاً . ومنحني
ما تمنيت عليه من ذوق ، وما سألتني إياه من معرفة ، وما التمسته منه من ثقافة .
لم يسألني هذا الركن النبيل من الأرض : من أنت ؟ ولا : من أين جئت ؟!
ولا : من هم أهلك ؟ ولا : كيف هو لونك ؟ ولا : ما هو دينك ؟ .. ولم
يسألني : أين مالك ؟!

رباه !. إننى رجل ضعيف ، وحيد ، مسكين .. لذلك أحب هذا الركن
من الأرض ، الذى سما فوق التفريق : بين الشرق والغرب ، وبين الأسود
والأبيض ، وبين العزيز والهين .. فكان ركن الضعفاء ، والشعراء ، والفنانين ،
والمساكين ..

رباه !. إنى أحب هذا البلد ، الذى يعلم الناس ، ولا يخشى من تعليمهم .
ولا يسألهم : ماذا ستفعلون بالعلم غداً ؟ .. بلد يعلم ، ولا يتقاضى عن علمه
أجراً ، ولا ينشد جزاء ، ولا يسأل شكوراً .

إننى أحبك يا باريس ، كما قلت ، لأننى عندما كنت طالباً (مجاوراً) فى الحى
اللاتينى ، لا أكاد أملك جنبها كاملاً ، يوماً كاملاً ، منحتنى ثروة الأرض ..
ولما كبرت ، وعدت إليك ، ألعب بالذهب فى مغامرات الشانزليزيه لعباً ، نهرتنى ،
وزجرتنى ، وذكرتنى دروس الشباب ، وأشعرتنى أننى فقير جهد الفقر .
إننى أحبك يا باريس الحزينة .. أحب تواضعك ، وتساهلك فى انتصارك .
وأحب شجاعتك ، وبسالتك فى انكسارك .. أحب هذه العظمة الصابرة ،
الاصيلة ، التى لاتعرف الادعاء .. الصامته التى لاتحب الدعاية .. الكريمة التى
تغفر للتقليين ، والساقطين ، والحاقدين ، وغير العارفين .. وتشملهم بعطفها
ورعايتها ، كما لو كانوا من المحسنين ، المخلصين ، الصادقين ...
إننى أحبك يا باريس المنطفئة ، المظلمة ، الكثيرة . لأنك كنت ، وما زلت ،
وستظلين أبد الدهر : مدينة العلم والنور ، ومدينة الحرية والجور ...

إن أربعين ألف نسمة فتية تطلب العلم ، وتنظر إلى العالم ، من قمة باريس ..
بل من قمة جامعة باريس وحدها .. لأن المدارس الأخرى ، الخاصة والعامة ،
العالية وما دونها ، تضم أيضاً نحو هذا العدد .

وسنرى ، بعد الحرب مباشرة ، أن هذا العدد قد يتضاعف ، لأن نجم باريس لم يأفل ، ولكنه بزغ في سماء جديدة .. فالنار تطهر الآثام .. إن انكسار باريس في ١٨٧٠ قد جعل منها سيدة أوروبا في الثقافة ، وقبله العالم الفكرى .. وانتصارها في ١٩١٨ قد حجب عنها فضائل كثيرة !

ولا يوجد في أوروبا بلد يصلح للطلاب الفقير كباريس . إن صدرها يتسع للجميع .. لقد كان معنى فتيات من رومانيا ، لا يتجاوز ما يرسله أهلهن لهن أربعة جنيهات في الشهر . أما بقية شبان البلقان ، وبولونيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، فكانوا يفخرون بجنيهاتهم الستة شهرياً ..

أما الروس ، فقد كانوا ، من الجنسين ، يعيشون لا شهراً فشهراً ، ولا يوماً فيوماً ، بل ساعة فساعة .. تحسبهم جميعاً من أبناء القياصرة أو الأباطرة ! .. يأكل الواحد منهم طول يومه « سندويتشاً » ، ويشرب فنجان قهوة باللبن .. وفي الليل يجتمعون ، ويقضونه في الرقص بمطعم « الديك الذهبي » بالحى اللاتينى ، نظير صحن من « الشورية » ! ..

كان الحى كتباً ومكاتب ، ومحاضرات ومناظرات ، ونزهات وسهرات .. لم يكن فينا من يفكر في الطعام ، ولا في المال ، ولا في الشهرة ، ولا في المستقبل .. الطعام تكني فيه بطاقة شعبية بثلاثة قروش .. والمال يحى ويروح كالطفيلى ، لا يعنى به أحد ، ولا يحفل به إنسان .. والشهرة لا تغرينا وقد ضربنا بأقدامنا في أشهر بقاع الأرض التى ضمت أشهر الرفات .. وشهدنا أكبر علماء الدنيا يسرون بأحذية بالية ، وثياب كالحة ، وظهور محنية .. والمستقبل ، إذا فكرنا في المستقبل ، متروك للقدر .. إذ ننظر إلى قصر « التويلرى » ، الذى أطل من شرفته « نابليون » ، يحمل ولده « ملك روما » في القماط ، على شعب باريس المهمل ، وصاح فيه : « المستقبل لى » ! .. فرد عليه شاعر باريس « هيجو » : « كلا يا مولاي ! .. فليس المستقبل لإنسان .. المستقبل لله ! .. »

أجل ، لقد عشنا أياماً طويلة بلا نقود ، وساعات طويلة بلا غذاء . . فلم نخش الفقر ، ولم نرهب الجوع . . بل كان شبابنا يغدق علينا من قوته ، ويفيض علينا من ابتسامته . . وكان قلبنا ينعم علينا بحرارته . . وكان فؤاد باريس يخفق لنا ، ويضمننا بين حناياه ، وينفخ فينا روح الجهاد والجلاد ، الروح الذي ما زال يلازمنا ويباركننا ، الروح الذي تمناه لشيبتنا ، روح التواضع في الظفر ، وروح التجلد للهزيمة ، وروح الرجولة في الشباب . . .



رسالة رجل إلى امرأة

في مجتمع عائلي راق ، ليست عليه مسحة الأرستقراطية الزائفة ، التقي الكاتب بشابة حسنة في ميعه الصبا ، تفيض رقة ، وتذوب حزناً . . فسأل عنها معيخته . فقالت له : « إنها فتاة من أسرة كريمة ، أحبت ، وتزوجت ، وطلقت في عام واحد » . فتحدث إليها ، فاذا بها مهذبة فاضلة . . . لكن الأمي يطفئ عليها ، يكاد يثلف حياتها . . وإذا بها منكشفة ، منطوية على نفسها ، خائفة من الرجال ، ساخطة عليهم . . وسافر الكاتب في اليوم التالي إلى الاسكندرية ، فخطر له أن يروح عنها بهذه الرسالة :

.....

ستدهشك ، حتما ، هذه الرسالة ، لأول وهلة . وسيومض في ذهنك ، ولو كالبرق ، أنها « غزل » ، من الذي يبدأ الرجل فيسميه « بريثاً » ، ليتدرج به إلى حديث اللحم والدم ! . . ألا فاعلمي أنني مندهش ، أكثر منك ، من نفسي ، إذ أكتب إليك ، أنا آخر رجل يكتب إلى امرأة . . أنا أكتب كتباً ولا أكتب خطابات . . ولكن اطمئني ! . . فإنني أكتب إليك لأنك لست « نوعي » ، من النساء . . أنت حزينة ، ضعيفة ، مغلوبة على أمرها . . وأنا لا أحب الضعيفات ، الكسيرات . . أنا أحب المرأة الجبارة ، المتكبرة ، لا كسر أنفها ، وإلا كنت من أشباه الرجال ! . .

أنت ، على جمالك الرائع ، كالفريسة الخائفة المذعورة ، تجري لا تلوى على شيء . ، تزعم أن كل الرجال صيادون خونة ، يريدون قصصها . . وأنا يا سيدتي ليس عندي وقت ، ولا عندي قلب ، لهذا النوع من الصيد الهزيل .

إنما أنت فنانة ، لا يستطيع رسمك ولا لوحاتك وحدها أن تعزيك . أنت بحاجة إلى رجل ، وسيأتي ذلك الرجل حتما ، إن قريباً وإن بعيداً . . وفي انتظاره

أكتب إليك ، لأخمد بعض همك ، وأوقظ بعض رجائك ، وأطلعك على بعض الصور التي يرسمها الكاتب لأصدقائه من الرجال والنساء ، فإذا تصفحتها عرفت أن في الحياة أشياء عظيمة ، أعظم من أن نحيط بها ، وأشياء حزينة ، ليس حزنك إلا نقطة في بحرها ..

الإسكندرية تستقبل الربيع بابتهاج ، مادة ذراعها إليه ، كالحناء التي تستيقظ وتمطى بعد ليل طويل في الهناء ، وكأن مياه البحر أُمّى أبواب الحرية فتفتح لى على سعتها .. فقد كنت سجين غرقى ، وسجين « حياة بلاك » ، التي أخرجتها كتاباً ، أعيش لشهور بين أربعة جدران مع الكاتب القصصى الأول في العالم ، الرجل الذى أضفته النساء وأضنى النساء .. عشت هذه الفترة معه ، فتعذبت عذابه الطويل ، وهنت بهنائه القليل .. فإن الله وحده يعلم مدى شقائه ، كما يعلم عدد النساء اللواتى ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، قد سعدن بمطالعتة ، لأنه أحب المرأة أكثر من أى رجل فى العالم ...

انطلقت إلى البحر ، وإلى نفسى أغسلها بمشهد البحر .. وأتأمل ما حولى : المدينة تموج بالثياب العسكرية ، من الخاكي القاتم والفاخ ، ومن الجوخ الأزرق ، ومن التيل الأبيض ، عليها علامات حمراء وخضراء .. وشارات من ذهب ، وخطوط سوداء ، بالطول وبالعرض ، تضم رجالاً ، أو تضم نساء .. هذه من كندا ، وهذه من زيلانده ، وهذه من البنغال أو السنغال .. وهذه من صميم لندن ، أو أدغال الهند ..

هؤلاء جميعاً ، يمثلون عشرات ، بل مئات ، بل ألوف الألوف .. من كل الاجناس والاديان والألوان .. هجروا مدنهم الآمنة .. وبيوتهم السعيدة .. تركوا الامهات والزوجات والأولاد ، وانطلقوا إلى بقاع غريبة ، بعيدة ، إلى أجواء محرقة كالنار ، أو مثلجة كالجليد . يبيتون فى الخيام ، أو فى العراء . يسIRON

في النهار وفي الليل .. يشقون الأمواج الثائرة في بحار من الظلمات ، يواجهون الموت في كل خطوة ، في كل لحظة ، بطمأنينة عجبية ، كأن الذهاب إلى الموت شوط سعيد من أشواط الحياة .

ماذا نحن بجانب هؤلاء ؟ ما هي أفراحنا وأحزاننا إذا قيسبت بهذه الأحوال ؟ انظري معي ، على الكورنيش ، إلى البحر ، في منتصف الليل ، ليل غير ذي قر ، والنجوم تلمع وتخبو ، والأمواج تزجر وتهاجم وتتكسر ، والهواء يزأر .. ثم تصوري نفسك ، في هذه الظلمات الخائكة ، محمولة في جوف غواصة ، أو زورق من زوارق الطوربيد ، أو باخرة حربية لا تضيء فيها سيجارة ، والإعصار يهب ، والأنواء تدور بك .. والعدو من وراء ذلك كله محيط .. تصوري هذا لحظة من دهرك ، لتغرق في هذه اللحظة حزنك ! ..

* * *

إليك الآن حديث بعض الرجال : أنا هنا ألتقي ، أول من ألتقي ، صديقاً قديماً من رفقاء الصبا « ع ١٠ » ، هو من نوع آخر يختلف عني كل الاختلاف ، ذلك الاختلاف الذي يزيد المحبة .. أتعرفين « شارع أديب » الضيق ، الشبيه بشوارع « السيتي » — حتى المسال والأعمال في لندن — أنت يا من تعرفين لندن ؟ هو مثله تماماً : عمارات ليس فيها إلا مكاتب ومتاجر ومصارف ..

في هذا الشارع يسكن « ع ١٠ » شقة عليا ، كأنه الحارس الأعلى على المال ، وهو المتبتل العابد الزاهد ، أزهد الناس في المال ، هو نوع فذ في الرجال ، عاش كل حياته لتربية إخوته ، وتنشئتهم ، واحداً بعد واحد .. يجوع لياً كلوا ، ويتجرد ليلبسوا ، لا يهيمه اعترفوا بعد ذلك بالجميل أو أنكروه .. يعيش مستوحشاً ، نفوراً من المجتمع ، مثل « الميزانتروب » الذي وصفه مولير .. ما أقل أصدقائه ! ومع ذلك فما أعظم وفاءه لهم !.. أتى بالمعجزات من التقشف ، وحرمان النفس ، لتهدئتها ، والسمو بها ...

ترامت عليه في باريس أمريكية حسنة ، تريد أن تطلق زوجها من أجله ،
فأبى واستكبر! .. كان طالباً فقيراً مثلي ، كل شيء يدعوهُ إلى الرضا والخضوع
لهذا الإغرام .. قامت عند قدميه فجأة أكوام من الذهب ، فداسها بقدميه
متسائلاً : كيف يحطم حياة امرأة ، وهو غير واثق من إسعادها ؟ ! فنظرنا إليه
كمجنون .. ربما لو كنت أنا مكانه لعجزت إزاء كل هذا الإغرام .. عجزت عن
صد كل هذا الجمال ، وكل هذا المال ، يتدفق ، ويملأ بالحب وبالخير غرفة
الطالب الفقيرة ، في الحى اللاتينى ! ..

وهذا صديق آخر من نوع آخر ، الدكتور « م » . ذلك الرجل الحبيب
إلى قلبي ، الذى كان طبيب الباخرة « النيل » ، وربطتنى به فى أسفارى العديدة
روابط لا انفصام لها .. أبادر إليه فى الإسكندرية عادة ، لألقى بقلائه مبرح
الحياة ، ومزاجها ، ومتاعها .. هذه الشخصية اللذيذة التى تعيش ليومها ، بل
لساعتها ، بل لدقيقتها ولحظتها ، هذا الرجل الشجاع ، الذى لا يهمه ماذا
يكسب اليوم وماذا يكسب غداً .. جئت أعزبه فى أمه ، هذا الوفى الذى كان
لا يزورها إلا ويזור أمى ، فى اليوم الواحد الذى يقضيه كل شهر فى البر ..
فماذا وجدت ! ..

قال لى : إنه ، بعد أمه ، لم تعد تربطه بهذه الأرض رابطة ، فهو يعود إلى
البحر ، سيواجه البحر ، صديقه القديم ، وإن كانت الحرب قد غيرت معاملة ..
سيتحدى الحياة ، يركب البحر فى الحرب ، لأن الشخص الوحيد الذى كان
يربطه بالأرض قد صار الآن دفينها ..

سمعت كألنشوان .. وكادت روحى تجرف معه فى التيار ، فأسأله أن أبحر
معه .. لم أجد شجاعته ، لم أجد فى نفسى ما فيه من روح البحر الخضم ، الصاخب ،
المندفع ، الخثون ، ثم روح البحر المسالم الوديع يحمل السفن إلى شاطئ الأمان .

لم أجد من نفسى ما فى نفس صاحبي من احتقار الأرض ، وما على الأرض من
نسكد وهموم .. ولقاء البحر ، وصحبة البحر ، بما سوف يحمله البحر من مغامرات
ومخاطرات ، ومن سواحل ، ومن وجوه ، ومن وجود ، أو .. عدم !
نظرت إليه نظرة أخيرة قبل أن أعانقه ، فرأيت فى عينيه الجسد يعذب
الروح ، ووجدت الروح هائمة ، حائرة ، لا مستقر لها ولا مستودع ، ولا أمان
لها ولا اطمئنان ..

سلام عليه الآن فى المحيط الأعظم .

وترك حديث الرجال ، لنعود إلى حديث النساء :

لقد عز على أن أراك ، أول ما أراك ، كاسفة البال ، شاحبة ، أقرب
ما تكونين إلى الحزن والذبول .. ولعل هذا هو ما لفت نظري إليك ، فقد
كنت فى حالة انكسار أبدع بكثير من حالة الانتصار . إن المرأة الفائزة ليس
لها ذلك الجلال الذى يهز النفوس عند ما ترى جيناً حزيناً ، أو امرأة تهادى
فى ثوب أسود ! ..

لقد تساءلت : هل كان حزنك على الماضى الجميل ، على حلم لم يتحقق ، أم
كان على رجاء ما زال بعيد التحقيق ؟ إن كل امرأة ، فى فترة من حياتها ،
تكون فى حالة انتظار وتوقع .. تتوقع أمراً جديداً جميلاً ..

أأنت حزينة من أجل بضعة عشر شهراً ، قضيتها فى هناء معه ، وفى عناء من
أهله ؟ أم أنت حزينة بسبب حالة الفراغ الموحش ، التى أصابتك بعد الخروج
من المعركة ، معركة الزوجة الشابة بين الزوج والأهل ؟ أأنت حزينة من
أجل ما كان ، أم أنت مشفقة بما سوف يكون ؟

انظري حولك ، ترى ألواناً من المأسى ، ليست مأساتك بينها إلا ملهامة .
فما هى هذه التجربة الخائبة ، إذا ما قورنت بما لك من شباب وفتنة وجمال وفن ؟

إن كل شيء يُجبر إلا الروح الكسير . إن كل يوم يقضى في هم وشجن لن يعوض عليك ، أو يرد إليك .. ثم إنه لا فائدة منه ، ولا رجاء من ورائه .. ثم ما هي ماديّات الدنيا كلها ، إذا تجمعت لدينا ، ولم تكن بنا شهية لطعام أو شراب ، أو رغبة في فرح أو مرح ؟ .. فعلينا ، أيضاً ، عندما نحارب في سبيل الماديّات ، ألا نغفل حماية روحنا من التردّي في هوة الهموم .

إن حياتك تبدأ الآن . ليست الفتاة حتى الخامسة والعشرين — ولو تزوجت — إلا طفلة . لم يكن ما مضى إلا مقدمة صغيرة ، كنت بحاجة إليها ، لتسقط أجنحة الشباب الذهبية ، ويحل محلها العقل الرشيد ، والامل الوطيد . فدعى عنك هذا اللون القاتم ، الذي لم يكن يتفق مع لون ثوبك الأحمر الزاهي .. خسارة أنك قليلة المطالعة .. إن الكتب كانت تفتح لك عالماً ليس أرق منه للروح ، ولا أسعد منه للنفس .. لعلك تزعمين أنها بعيدة كل البعد عن الرسم ؟ ! إن الكتب هي نوع من الرسم : رسم أفكار ، وخيالات ، وأوهام ، نحن في أشد الحاجة إليها ، لتسطينا متاعب الأيام ..

إنك كنت ، في هذه الزوجية العابرة ، كصية جلست على حافة غدير ، وعبثت بقدميها في الماء النير .. أين أنت من الحزن ، والألم ، وانكسار القلب ؟ ! تصوّر حكاية سيدة أعرفها ، آتاهها الله كل ما يخطر وما لا يخطر بالبال من جمال ونبل . كانت تعيش مع زوجها الحبيب أسعد ما تكون عليه الحياة .. كانت تتجول معه في كل أوربا .. وكنا لا نفترق في باريس ..

وعدنا مع الحرب .. فكان لها عش جميل على شاطئ النيل ، وكانت لها طفلة ظريفة .. وكان بيتها بيتنا ، بيت القليل من الناس الذين جمعهم الوفاء ، وربطت بينهم المحبة الصادقة ..

فماذا حدث ؟ ! ..

أصاب زوجها برد خفيف ، وهو شاب «سبور» بكل المعاني ، تمتلئ

قوة وحيوية . ثم انقلب البرد الخفيف برداً ثقيلاً ، ملحاً ، ممضاً .. وحرارة خفيفة ، لا تكاد تذكر .. ومع ذلك كله لا تركه بالليل ولا بالنهار .. وكان يشكولى منها ، ويقول إنها حرارة تأكله رويداً رويداً ..

ثم ماذا ؟ .. ثم ماذا ؟ !

ثم كان ذلك العراك الأبدى ، لابن آدم الضعيف ، مع الموت .. كان هذا الصراع الهائل الخيف المؤلم ، الذى نحاول فيه عبثاً الخلاص من برائن المنون .. ووقفت تلك السيدة الشابة الجميلة السعيدة ، تلك الحبيبة ، تلك العاشقة ، الهائمة بزوجها هيأماً لا يقاس به أى هيأ .. تلك الأم التى ولدت وأخرجت من أحشائها ثمرة نبيلة من ثمرات الحب .. وقفت تلك المرأة ، فى جزع ولهفة ورجاء ، على حافة الهاوية مع زوجها ، وإن كانت الفكرة البشعة الشنيعة لم تخطر لها على بال .. كيف يخطر للموسر الشبعان شبح الجوع ؟ ! ..

أجل .. إنها ، بعد شهرين أو ثلاثة ، أصبحت أفقر من أفقر امرأة .. أصبحت امرأة بلا رجل ، ولا أمل فى رجل .. كان وراءها ماض طويل عريض فى الحب والحرمان ، كانت نموذجاً فذاً للتجربة والحنة . كانت لا تدرى ماذا صنعت فى حياتها ، وماذا ارتكبت ، حتى أصاب بكل هذه الويلات ، مرة ومرة .. حقاً إن المؤمن مصاب .

من يدرى ؟ ! لعلها كانت تدفع ثمن جمالها الرائع ، الذى أغدقته عليها الطبيعة ، وحرمة ألوف النساء من حولها .. لعلها كانت تدفع بعضاً من الغرور ، والتهب ، والكبرياء ، التى كانت تتفجر منها على رغبتها ، لأنها جميلة ، وأنيقة ، ووجهية ، وعريضة .. ولأن الدهر ابتسم لها ابتسامة عريضة ، وفتحت لها الدنيا أبوابها جميعاً .. وأكسبتها ألواناً من العزة ، وأضفت عليها أثواباً من الطمأنينة والهناء ، لم يكن يلوح أبداً أن لها حداً .

لقد رأيت ذلك الزوج الصديق الحبيب فى أواخر أيامه .. ثم جزعت

وأشفقت من رؤيته بعد .. إذ سار في سبيل تتنكر فيها المعالم والتقاطيع ، ويتشوه
الوجه ، وينقلب كثيراً ، وهو على هذه الحال المؤلمة .. وأختاها النيلتان تقومان
على خدمته ليل نهار ...

دعاه الحنان إلى نداء ابنته الطفلة .. فجاءوه بها .. ففتح لها ذراعيه ، فلم تكذب
الطفلة تنظر إليه حتى أنكرته ، وخافت ، وجزعت ، وصرخت ، وولت
هاربة .. هربت من « بابا » .. وكان « بابا » بالأمس كل شيء لها ! ..

° ° °

أرأيت إذن كم في الحياة من عناء وشقاء ؟ أنت يا من سعدت بضعة عشر
شهرًا ، وشقيت بضعة عشر يوماً ! .. ماذا عرفت في دنياك من الهناء ، وماذا
عرفت من الشقاء ؟ ! ..



رسالة امرأة إلى رجل ...

هذا حديث « ذفيح » عن حب صغيرة غريبة لكاتب كبير ، نما معها حبها ، واشتد هواها ، حتى أودى بها . . . وهذا النوع من الأدب الواقعي هو نموذج للنصح والتوجيه ، عن غير طريق الوعد بالجنة أو الوعيد بالنار ، ولكل شيخ طريقه . . . ونحن نرجو أن يكون هذا الحديث عظة ودرساً للصبايا في ريق العمر ، اللواتي يستلنن بسذاجة لخيالات الحب ، فيدفنن ثمناً فادحاً لأوهام الغرام . . .

« ص »

عاد الكاتب الكبير « ز » من رحلة قصيرة خارج العاصمة ، فاشتري من المحطة جريدة الصباح ، وألقي نظرة على تاريخها ، فمرت بخاطره كالسهم المارق : « إحدى وأربعون سنة ! » . . . فقد كان ذلك عيد ميلاده . . . فلم يسر ، ولم يحزن . بل نادى سيارة حملته إلى بيته ، بعد أن دس الجريدة في جيبيه . فقدم له خادمه الخاص ووصيفه الأمين بياناً بالزيارات الشخصية ، والمحادثات التليفونية ، وأكواماً من الكتب والمجلات والرسائل . . . فاسترعى نظره خطاب ضخم ، على غلافه هذه العبارة : « اليك يا من لم نفرقني أبداً » فتسالم مندهشاً عن المقصود به ، ومضى في قراءته . . . فإذا الخطاب من امرأة مجهولة ، تخاطبه ، وتقول :

« عند ما جئت إلى حياتي ، كنتُ في الثالثة عشرة ، أسكن البيت الذي تسكنه أنت الآن ، والذي تقرأ فيه هذه الرسالة . . . وكان باب شقتنا يواجه باب مسكنك . . . ولا ريب في أنك نسيت تماماً أرملة المحاسب التي كانت في ثوب الحداد ، وبتتها الصبية النحيفة . . . ربما لم ترنا إلا لحماً ، ولم تسمع بنا

من قبل أو من بعد .. ثم إن ذلك كان منذ زمن طويل ، منذ خمس عشرة سنة ،
أو ست عشرة .. ويستحيل عليك أنت أن تتذكر .. أما أنا فأذكر كل الدقائق
والتفاصيل ، كما لو كانت وقعت الساعة : أول ما سمعت بك ، وأول ما رأيتك ..
كيف لا ، والدنيا قد بدأت عندى من يومها ١٩ بالله لاتسام من الإصغاء إلى
بعض الساعة ، أنا التي لم أسام حبي إياك طول حياتي .

كان القوم الذين يسكنون شقتك من قبلك أشمراً ، فتنفس سكان العمارة
الصعداء عندما رأوا ذات يوم يافطة : « للإيجار » .. ثم رفعت .. وعلينا من
البواب أن الذي استأجرها مؤلف أعزب .. وكانت تلك أول مرة سمعت
فيها باسمك .. ولم تلبث الشقة أن نظفت وزخرفت تحت إشراف خادم وجيه
عريق ، لا عهد لنا به في شقق تلك الضاحية ، والناس الذين ضاقت بهم حياتهم
يشتاقون إلى الجديد ، لذلك كنا جميعاً ننتظر بفارغ الصبر وصولك !

وعند عودتي من المدرسة ، ذات يوم ، تطلعت في شبه حمى ، إلى أرائك
الأنيق ، وهو يحمل ، إلى مسكنك .. كان كل شيء لك طريفاً بهيجاً ، يختلف
كل الاختلاف عما تعودت : فالآلهة الهندية ، والتماثيل الإيطالية ، والتحف ،
والصور الزيتية .. ثم الكتب : أكوام الكتب التي لا تنتهي ، وأكثرها
بالفرنسية والإنجليزية ، وبلغات لا أعرف منها كلمة ، ذات حدود ناعمة ،
وجلود مصقولة ، وجلود ذهبية .. بهرت عقلى عند مقارنتها بكتبي المدرسية
الحقيرة ، ذات السكرتون الأغبر . وبعثت فكرة كل هذه الكتب في نفسي ضرباً
من التوقير لك ، أو التكبير .. فرعمتك مثل أستاذ الجغرافيا ، شيخاً هرمًا
ذاحية طويلة .. فإذا وجدت ، وماذا رأيت ؟ ..

رأيت شاباً يتدفق حيوية ونشاطاً ، يصعد السلم قفزاً ، في بذلة بنية
إنجليزية ، غطرت لي إذ ذاك أنك شخصان في شخص واحد .. هذا الشاب
الرشيق الأنيق ، وذلك الشخص الذي يقرأ ، ويتوقف ، ويتوقف ، ويكتب ،

ويعجب! .. رأيت — أنا الفتاة اليانعة في الثالثة عشرة — لأول وهلة ،
أن لك دنيا قائمة بنفسها ، لا يدخلها إلا الموعودون ، وأن لك دنيا أخرى
هائلة ، تبيحها لمن يقتنى كتبك ، ويقرأ فكرك ..

ومن حينها ، صرت أنت ، في عالمي المحدود ، شغلي الشاغل .. راقبتك ،
وعرفت الذين يترددون عليك : من رفاقك ، ومن مرديدك .. ومن سيدات
يأتين في سيارات جميلة ، ومن فتيات مازلن في المدرسة ، يختلسن ، في حياء ،
الدخول إلى بيتك اختلاساً ..

كانت الأغلبية الساحقة من زوارك من الجنس اللطيف .. فلم يخطر لي
خطر السوء .. حتى ولا حين رأيت ذات صباح سيدة متتقة تخرج من
شقتك .. ولكنني أعرف اليوم الذي أعطيتك فيه قلبي ، كل مجامع قلبي .. :
كنت واقفة بالباب أتحدث إلى رفيقة بالمدرسة معي .. ووصلت سيارة ،
قفزت أنت منها ، بطريقتك النافذة الصبر ، المندفعة ، التي طالما — على الأيام —
بهرتني .. فاندفعت بقوة لا أدريها ، ففتحت لك الباب ، بما جعلني في طريقك ،
فتلاصقنا ، فنظرت إلى تلك النظرة العاطفية الرقيقة الخاطفة ، التي كأنها قبلة ،
و كأنها عناق ، وابتسمت لي في حنان ، وقلت بلطف : « شكراً جزيلاً .. »
كان ذلك كل شيء ، ولكنني أحسست من تلك النظرة ، المطبوعة فيك ،
تلقيها على أية امرأة ، أنني قد استحسنت في النار ، وزعمت أن هذا الحنان
وقف علي ! .. ومن تلك اللحظة استيقظت المرأة في الصبية التي ستكون لك ،
ما طرفت لها عين ، أو خفق لها قلب ..

ولما سألتني صاحبتني : « من هذا ؟ » ، استحال علي أن أنطق باسمك ! ..
كان ذلك قد صار في لحظة واحدة سراً وذخراً .. فقلت بخوف : « أحد
السكان .. » فقالت بخائنة الصبايا : « ولماذا اشتد احمرار وجهك عندما نظر
إليك ؟ » .. فهرتها ، غضبي ، وتركتها ، وهي تضحك ساخرة مني ! حتى لقد

انهمرت الدموع من عيني ، حارة ، تجرى ، فتسبقي ، وأنا أجرى صاعدة
درجات السلم .
لقد أحبتك منذئذ ...

* * *

وأعرف الآن أنك تعودت سماع النساء يقلن لك إنهن يحببنك . . بيد
أن واحدة منهن لم تحبك أبداً حي إياك ! حب الجارية المخلصة لمولاهما ، حب
الكلبة الوفية لسيدها . . لا شيء يعدل حب الصبا الذي لا يلحظه أحد ، الحب
المكتوم المكظوم ، حب تابع خاضع ، بلا كفاء ولا رجاء . .
لمن كنت أبوح به . . ياترى ؟

إن أمي كانت منكفئة على همومها ، بعد موت أبي ، تحاول التغلب على
الضيق المادي بسبب معاشها الضئيل . . ورفيقات المدرسة إما غيبات ، وإما
طائشات مستهترات ، لا يفهمن قدسية شعوري نحوك . .

لم يعد يربطني بالحياة إلا ما يحى منك ، أو يصدر عنك ، أو تكون له صلة
بك . . وكنت حتى ذلك الحين في المدرسة فتاة عادية غير ممتازة ، فأصبحت فجأة
الأولى . لقد رحت أقرأ كتاباً بعد كتاب ، سواد الليل ، لأنني أعلم أنك تحب
الكتب . . وعالجت الموسيقى ، وعنيت بثنائي ، لتكون مقبولة في نظرك . .
يالي من بجنونة ! . . فإنك قلما رفعت إلى بصرك . .

ثم كيف أصف لك شعوري ، يوم أتيح لي أن ألقى نظرة في غيابك على
مسكنك ؟! على كتبك ، وصورك ، وتحفك ، ومكتبك ؟! كان ذلك محرراً
ومعبدى . . تمنيت لو ركعت فيه ، وصليت . .

ثم حدث ما هدد بنياني ، وزعزع كياني :

دعني أمي ، في شيء من الخجل ، وقالت لي ، في كثير من التردد ، إن
قريباً لها ، أرملًا مثلها ، عرض عليها الزواج ، ولأنها - حباً في - قررت

القبول .. فتمتعت في قلق ولهفة ، وليس في رأسي غير فكر واحد ، هو أنت :
« وهل سبقي هنا يا أماء .. أليس كذلك ؟ » ، فجاء الجواب القاطع : « كلا ،
فإننا ذاهبون إلى الريف ، حيث نجد قبلاً جميلة .. »
لم أعد أسمع شيئاً ، واسودت الدنيا في عيني ، وعرفت بعد ذلك أنه قد
أغشى علي ..

أما ما حدث في الأيام القليلة التالية فلا يكاد يصدق .. إنني ، أنا الصغيرة
الضعيفة التي لاحول لها ولا طول ، تمردت وثرث على الكبار الأقوياء .. فعزوا
ذلك إلى شدة تأثري ، ثم إلى سوء خلقي .. وظلوا ينقلون علي رغمي ، يوماً بعد
يوم ، بعض الأثاث .. فبدت لي حياتي تتساقط وتهار قطعة قطعة .. ولم تعد
أماناً إلا ليلة .. الليلة الأخيرة ..

وفي تلك الليلة اندفعت نحو بابك ، كأني ممغنطة ، ودققت الجرس . فلم يرد
أحد ، لا سيد ولا خادم .. كنت أريد أن أترامى على قدميك ، متوسلة إليك
أن تتخذني خادماً لك ، أو أمة .

وظللت طول الليل مترقة عودتك . وكانت ليلة من ليالي يناير القارس البارد ،
نامت أمي ، وقد أغمضت عيناها من التعب والالم ، ولم ينبم قلبي . خشيت أن تأخذني
سنة من النوم ، فيحال بيني وبينك .. فتسللت ، ورقدت على الطريقة ، في تيار الهواء
المثلج الجارف ، بثوب الرقيق .. بلا غطاء .. وانتظرت : انتظرتك ، وانتظرت
مصري ! ...

وطال انتظاري ، فقد بلغت الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً عندما سمعت
الباب الكبير يفتح ، وصوت خطوات على السلم .. فاختفي شعوري بالبرد ،
وظننت علي موجة من الحرارة ، واختفيت وراء بابنا ، وبدي على أكرة
الباب لأفتح قبلما تضع مفتاحك في بابك .. ولكنك ، يا حبيبي ، لم تكن

وحذك .. لقد سمعت حفيف ثوب حريري ، وضحكة مكتمة ، وصوتك خافتا ..
كانت معك امرأة ..

أما بقية ليلي ، فأقيلك من وصفها ..
وفي الساعة الثامنة من الصباح التالي ، أخذوني إلى بعيد ، إلى الريف ..
ولم تكن قد بقيت لي قوة للمقاومة ..

وبقيت عامين ، من السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة ، سجيناً الأهل ، وبجينة
الريف ، وبجينة الحرمان منك .. وعيناً كانوا يغدقون على المنح والآلاء ،
وضروب العطف والحنان .. كنت أنكر هذا كله ، وأدفعه .. ودفعت نفسي في
عالم موخش ، لا عزاء فيه إلا عذاب نفسي ، لا ألبس فيه جديداً ، ولا أستمع
فيه إلى موسيقى ، ولا أذهب فيه إلى مسرح ، ولا أقوم فيه بزهة .. قضيت
العامين في البيت ، لا أعرف من البلد الذي أنا فيه شوارع ، ولا أحداً من
أهله ، ولا لون بيوته وحقوقه .. لا شيء إلا أن أفكر فيك ، أقلب صفحات
ذكر ياتي عنك ، وصور حركاتك وسكناتك ..

واشترت كل كتبك ، وتبعت الصحف ، لأرى فيها اسمك أو رسمك ..
ولم أقرأ كتبك مجرد قراءة ، وإنما حفظتها عن ظهر قلب ، بحيث لو أيقظني إنسان
في كبد الليل ، وقال لي منها جملة واحدة ، لرددت بعدها صفحات كاملة .. حتى
الآن ، وقد مضى على هذا كله ثلاثة عشر عاماً ، أستطيع أن أفعل ذلك .. كانت
كتبك هي كتابي المقدس .. وكنت إذا رأيت لك أو عنك كلمة في الصحف
فصلتها وحفظتها .. وكنت إذا رأيت لك صورة وضعتها على قلبي ..

كيف لي أن أروى هذه الأشياء ، هذه المأساة اليايسة لفتاة منسية بجهولة ؟ ..
لماذا أخبرك بها أنت ، يا من لم تتصور قط إعجابي ولا حزني ؟ .. ولكن هل عدتُ

طفلة ؟! لقد صرت في السابعة عشرة . . ثم صرت في الثامنة عشرة ، والشبان يلتفتون إليّ ، ويتبعونني في الطريق ! . . ولكن أين الخلى من الشجى ؟ . . لقد استحال عليّ أن أحب سواك . . وأصبح مجرد ميل رجل إليّ جريمة ، ولقد نما عقلي ، ونما جسدي ، وتيقظت حواسي ، وازدادت حرارة . . وبرزت المرأة ، من وراء الفتاة ، أشد ماتكون هيأماً . . إن ما كان قد اختفى وراء ذهن الصبية نصف المتعلبة ، التي هرعت إلى بابك ، ودقت الجرس ، هو ما لا يزال مبعث حنيني : أمه أكرمه لك . .

ثرت ، وصرخت ، وغضبت ، وقلبت البيت رأساً على عقب ، ونفصت حياة كل من حولى ، حتى رضخوا آخر الأمر لعودتي إلى العاصمة ، لأعمل في مشغل خياطة كبرى من قريبات زوج أمي . . فهل أنا بحاجة إلى أن أقول لك أين قادتني خطاى في ليلة حالكة الظلام ، ملبدة السحب ، أول وصولي إلى العاصمة ؟! لقد تركت حقيقتي في « الأمانات » بالمحطة ، وهرولت إلى الترام . . حتى وصلت إلى بيتك : بيتنا . . فطفر قلبي ، يكاد يثب من بين ضلوعي ، إذ رأيت النور في نافذتك ، فلم أعد غريبة في هذه المدينة الكبيرة . . استيقظت أحلامي من حولى ، وحفت في كالعرائس ، وآلستى . . كان يفصلني عنك زجاج شفاف ، ونسيت أنه كان يفصلني عن عقلك وقلبك جبال وأنهار ووديان . . كان يكفيني أن أنظر إلى نافذتك ، وأقول : « هذا هو نوره . هذا مسكنه ! » إنه هناك . . إن هذه هي دنياي . . ،

وظللت مساء بعد مساء أعود إلى نفس المكان ، فلا أكاد أنهى عملي في السادسة ، حتى أطيّر إلى حيث أرجو أن أراك ، أن ألمحك من بعيد . . وأخيراً ، بعد سبعة أيام ، لقيتك . . وكنت أرقب نافذتك عندما رأيتك قادماً . . فدهشت . . لقد سخطت ، وانقلبت مرة أخرى طفلة . . عدت الصبية ذات الثلاثة عشر ربيعاً . . فأسرعت واختفيت ، كما لو كنت طريدة . ثم عدت على نفسى بعد ذلك

باللائمة : كيف أهرب هكذا كما لو كنت تلميذة ، مادمت أعرف الآن ما أريد ؟
لنتى أريد أن ألقاك .. لنتى أريد أن تعرفنى بعد كل هذه السنين المرة ، وأن
تحنى .. ومع هذا فقد مضى دهر طويل ، دون أن تلحظنى ، على الرغم من
وقوفى كل ليلة ، فى عصف الريح ، فى هطول المطر ، أمام بيتك .. وكنت
أحياناً أبقي الساعات بلا جدوى .. ورأيتك مرتين مع امرأة ، وذراعك فى
ذراعها .. أنت الذى كنت كل حياتى !

لم يكن ذلك جديداً على ، لقد تعودت فى صباى أن أراك غالباً فى صحبة
نساء .. أما الآن فقد سبب لى ذلك ألماً جسيماً ، فامتعت ليلة عن الحج ،
وياها من ليلة ! .. ليلة التحدى والإنكار .. قضيتها فى فراغ موحد ، وهرعت
فى الليلة التالية إلى موقفى كالعادة ، أنتظر ، بكل مذلّة ، أمام نافذتك ، كما كنت
أنتظر .. أمام حياتك المغلقة !

ثم آن الاوان ، فوقعت عيناك على وجهى .. فدا على حياك ذلك التعبير
الذى يتجلى عند رؤيتك امرأة ، التعبير الذى أيقظت به الصبية فيما مضى
لتصبح المرأة ، والعاشقة .. وكاد قلبى ينخلع من صدرى لنظرتك ، فلما التفت
خلفى إليك ، رأيتك واقفاً تنظر إلى ! .. فتخيلت أنك قد عرفتنى .. غير أنك
لم تعرفنى ، لا عندئذ ، ولا بعدئذ .

وبعد يومين التقينا ، فنظرت إلى متقرباً منى ، كما لو كنت تعرفنى ، وابتسمت
لى .. فانتفضت ، ابتهاجاً ، وشوقاً إلى سماعك تخاطبى .. وأحسست أننى لأول
مرة قد وجدت بالنسبة لك ، وتمهلث مثلك ، ولم أحاول الفرار منك .. وفجأة
سمعت خطواتك من خلفى .. وسمعت دقات قلبى .. فقد كنت تسير إلى جنبى !
وحيتنى تحية من يعرفنى من قديم ، وإن كنت لم تعرفنى قط .. كانت
تحيتك من البساطة والظرف بحيث لم أتردد فى الرد عليها .. وسرنا على طول

الشارع ، ودعوتنى للعشاء .. هل كان يسعنى أن أرفض لك مأرباً ؟ ..
وتعشنا في مطعم صغير ، لعلك لا تذكر أين كان .. فمن كنت أنا ؟
واحدة من مئة واحدة ! .. مغامرة ، حلقة في سلسلة لا آخر لها .. على أنى
أصغيت إليك متحدثاً ، فعوضنى حديثك في ساعة ما أضنانى ، خلال خمس
سنوات ، الانتظار المحروم .

وشربت الخمر لأول مرة في حياتى .. وسكرت .. وصرنا في ساعة متأخرة ،
وخرجنا من المطعم ، وسألتنى عند الباب هل أنا في عجلة ، أم لدى فسحة من
الوقت ؟ .. كيف كان لى أن أخفى عنك أننى لك ؟ .. فقلت لك إن لدى الوقت ..
فترددت لحظة ، ثم سألتنى إلا ما ذهبت معك إلى شقتك لاستئناف الحديث ..
فعبرت عن شعورى الصراح بالقبول الصريح ! .. ولم يخف عنى أن قبولى السريع
أدهشك .. كنت سكرى : سكر هوى وسكر هدامة ! ..

واليوم ، بالطبع ، أدرك سبب دهشتك ، فإن المرأة السوء هى وحدها التى
تقبل مثل هذه الدعوة بلا تردد . أما من كانت مثلى ، فلا بد من التوسل إليها ،
وبذل التنى والابتهاال وتقبيل يديها ! ..

ولم أكن امرأة سوء .. ولم أكن فتاة ساذجة غريرة ، ومن أين لك أن
تعرف أن سر قبولى هو نداء خفى قوى ، يجذبنى إليك ، ويجعلنى طوع يدك ،
منذ ألف يوم ويوم ؟ .. ودعالك هذا القبول إلى التطلع لى باهتمام ، فصرت
تفحصنى وتدرسنى ، تحاول بأسئلتك أن تستلّ سرى من صدرى .. فجاءت
أجوبتى مبهمة ، غامضة .. وآثرت أن ألوح لك بمجنونة ، على أن أبوح لك ..
وصعدنا إلى شقتك ! .. فيا لله ! .. هذا هو صباى يعود إلى .. وهذا هو
الحنين ! .. هذا هو الباب الذى وقفت ألف مرة وراءه ، أنتظر ، وأرقبه ،
وألسمه .. هذا هو العش الذى انضم على حبي ، وعلى سرى .. كان مسرحى
وملعبى ، وقصرى المسحور ! .. لقد هب هذا كله من حولى ، كالعاصفة الهوجاء ،

لأنني كنت معك ، لأنني صرت معك .. دخلت بيتك ، ودخلت بدنك !
وقضيت تلك الليلة معك ... لم تكن تحلم بأنه ما من رجل قبلك رأى
جسدي ، أو مد إليه أصبعاً ... كيف يخطر لك ذلك وأنا التي لم تتدل أو تمنع ؟
لقد محوت كل أثر لشعوري بالعار والشنار ، خشية أن أخون سرحي ، لئلا
يشق عليك ذلك .. أنت الذي تحب الشيء السهل ، والحمل الخفيف ، الذي
لا يثقل عليك ، ولا ينفص ظهرك .. فأنت تمنح الحب ، لكل من هب ودب ،
ولكنك تأتي التضحية ..

وعندما أقول لك إنني وهبتك نفسي ، عذراء ، كما ولدتي أمي ، فلا تسيء
الظن ، أو تتصور أنني أتهم ، فإنك لم تعرفني ، ولم تتخدعني ، أو تغفوني .. لقد
ألقيت بنفسي بين ذراعيك ، وذهبت لالقي قضائي وقدري .. ولما فتحت عيني
في الظلام ، وكنت إلى جنبي ، تخيلت نفسي أسبح في سماءات بعضها فوق بعض ،
وتساءلت دهشة : كيف أن الكواكب لا تضئ على جسدي ، وكيف أن
النجوم لا ترصع شعري ؟

وخرجت مبكرة في الصباح ، لأذهب إلى عملي ، وانصرفت قبلما يحى خادمك
فيراني .. ولما استعددت للرحيل طوقني بذراعيك ، ونظرت إلى طويلاً ..
فهل كان تذكاري خفي يجرى في ذهنك ، أم أن الهناء زادني جمالا في عينك ؟ ..
وقبلتني على الشفتين .. وأعطيتني أربع وردات بيضاء ، كانت في زهرية على
مكتبك .. وتواعدنا على ليلة أخرى .

ثم أعطيتني ليلة ثالثة ...

ثم قلت إنك مضطر إلى مغادرة العاصمة لوقت ما ! ..

أواه ! لشد ما كرهت دائماً رحلاتك هذه ! .. ووعدتني بالكتابة إلى
بمجرد عودتك ، فلم أعطك إلا عنوان شباك البريد .. ولم أذكر لك اسمي

الحقيق .. احتفظت بسرى .. وأعطيتنى آخر مرة وروداً أخرى .. لأقبلها
أياماً ، وأنعلل بها عن غيابك ، وأنصبر .

ومرت الأيام . وانقضى شهران .. لا .. لن أصف ما أصابنى خلالها من
عذاب الانتظار ، وكرب القنوط .. فإتنى هنا لا أشكو .. إتنى أحبك كما أنت
تماماً : سريع الحب ، سريع النسيان ، كريم القلب ، خائن الجسم .. إتنى أحبك كما
كنت كذلك دائماً .. رجعت إلى العاصمة قبل مضى الشهرين بوقت طويل ،
دلتنى على ذلك النور فى نوافذك ، ولكنك لم تكتب إلى .. وهأنذا ، بعد هذا
الحب كله ، على وشك الموت ، ليس بين يدى سطر من خط يدك .. أنت
الذى أعطيتنى حياتى .

فانتظرت .. انتظرت يائسة .. ولكنك لم تدعنى إليك ، ولم تكتب إلى
سطراً ، ولا كلمة ، ولا حرفاً ..

لقد مات ولدى ليلة أمس .. وهذا الولد كان ولدك ، كان ثمرة إحدى تلك
الليالى الثلاث ... لقد كنت لك ، ولم أكن إلا لك ، من أول عهدى بالحب ،
حتى ليلة مولده .. لقد أحسست بأن لمسك يطهرنى ، فما كنت لأتدنس بعواطف
رجل سواك .. إنه كان ولدنا ، كان ثمرة حبنى المسكين الأمين ، وثمره عبثك
ولهوك ، وعواطفك المسرفة ، غير المقصودة ! ..

لعلك ستفرح من ذلك .. أو لعلك ستدهش .. وستعجب كيف لم أخبرك
قط بهذا الولد .. ولماذا لزممت الصمت خلال هذه السنين الطويلة .. والآن
أنفض عليك خبره وهو مسجى فى ضجعته الأخيرة ، يفارقنى فراقاً لا عودة
منه أبداً ؟ ..

كيف كنت أستطيع أن أخبرك ؟ لقد كنت فتاة غريبة ، ظهرت لأول
وهلة بمظهر المتلهفة على قضاء تلك الليالى معك .. إنك ماكنت لتصدق أبداً

أنتى — أنا الشريكة التى لا اسم لها فى لقاء عارض — كنت مخلصة وفية ، لغير
مخلص ولا وفى ! . وما كنت لتقبل أبداً ، من غير هواجس الشك ووساوس
الريبة ، التسليم بأنه ولدك .. حتى لو خالفت كل الظواهر ، ووثقت بكلمتى ،
فإنك ستظل حتماً تهمنى ، بينك وبين نفسك ، بأننى انتهزت الفرصة لأدس
عليك ، أنت الرجل المشهور الميسور ، طفلاً من عشيق آخر ! . وما كنت
لأتحمل أن يقوم بينى وبينك جو من الشك وسوء الظن ..
زد على هذا أنتى أعرفك ، ولعلى أعرفك أكثر مما تعرف نفسك ! ..
إنك أحرص ما تكون على التحرر ، والانطلاق من كل قيد ، وعلى راحة
القلب ، وعلى راحة البال .. وهذا هو ماتفهمه من معنى الحب ، فلشد ما كنت
تنفر وتشمئز إذا ما ألفت نفسك فجأة فى مركز الأب .. ووجدت نفسك
مستولاً عن مستقبل طفل .. إن نسمة الحرية هى لك بمثابة نسمة الحياة .. فإذا
ما أحسست لحظة من دهرك أنتى ربطتك ، وقيدتك بولد ، كرهتنى واجتويتنى .
وهذا ما لا أحتمله ، ولا أطيقه ، ولا أتصوره ، فإنى أريد أن أكون من دون
كل النساء اللواتى عرقتهن : تلك التى لاتذكرها إلا بالحمد وبالحب .. ولست
أنكر عليك مروءتك ونخوتك وشهامتك . فأنت رجل كريم ، دمث الطبع ،
رفيق الخلق ، تعطى باليدين ، ولكنك لا تطيق رؤية الضيق والذل .. ولقد
رأيتك وأنا صبية صغيرة تعطى سائلاً واقفاً ببابك ، قبل أن يفتح فمه ، وتعطيه
سريعاً لتتخلص منه سريعاً ، خشية أن تلتقى نظراته بنظرتك ! .. لذلك
ما كان لى أن أتجه إليك فى ضيقى وحرجى ومذلتى .. فقد تصورت استنكارك
أو اشمئزك .. ثم نقاد صبرك .. وارتياك .. ثم عطاءك : الأشد إبلاماً من
حرمانك .. وكنت لاريب ستنصحنى بالتخلص من الطفل وهو جنين ..
وكنت لاريب سأبى نصحك ، لأننى لا أستطيع أن أعصى لك أمراً .. فزهدت
فى هذا كله ، لأن الولد كان كل شيء لى .. كان ولدك ، كان منك ، كان روحك

ودمك .. وكان لحم لحمي ، وروح روحي .. كان لي .. وأنت لست لي ، ولن
تكون لي وحدي .

بالله لاتزعم أن شهور الانتظار مرت ميسورة الرخاء ، موفورة الهناء ، كما
تخيلت في الأيام الأولى .. فقد اصطدمت بسفالة البشر ، وواجهت خسارة بني
الإنسان ، فتركت عملي ، خشية أن يفضحنى الحمل ، ويبلغ أمره أهلي .. ولم أسأل
أى مالا .. بل عشت من بيع أشياء تافهة .. حتى حدث قبل الوضع بأسبوع أن
سرت الغسالة ما ادخرته من مال قليل .. فاضطرت إلى أن أقصد مستشفى
الولادة .. وهناك ، في ذلك الجو الكئيب ، المعتم ، الحزين ، ولد ولدك ، في
ذلك الوسط من البطون الملعونة ، بين أفقر الناس ، وأحقر الناس ، وأبعد
الناس عن رحمة الله والناس !.. يالها من دار يخيم عليها الموت ، وهي مع ذلك في
كل لحظة تولد فيها حياة ! . كان كل شيء فيها غريباً موحشاً .. كنا نساء يجهل
بعضنا البعض ، لايجمعنا إلا شقاء واحد ، ومقت واحد ، وضروب من البؤس
والذل والويل ، حشدتنا أمامها في صعيد واحد .. لأن المريضة في هذه الدار
تفقد شخصيتها ، ولا يبقى منها إلا اسم مكتوب في سجل المستشفى ..

عفواً إذا قلت لك ، أيها الكاتب الكبير ، إن ولدك قد ولد هنا ، في
هذا المحيط الشقي الموبوء . فالله يعلم أنني رغم هذا كله أحبك . وفي صيحة الألم ،
والولد ينتزع مني ، كما تنتزع الحياة من الموت ، قد هتفت باسمك ..

قلت إنك ما كنت لتقبل مولد ولدي ، وولدك ، بالحناسة والترحيب ..
لذلك كان لزماً عليّ أن أقوم وحدي على تربيته .. ولذلك أيضاً بعث نفسي ،
وأغضضت عيني عن معاني الشرف والكرامة . إن جسدي لم يكن يمكن أن يكون
إلا لك . فالذي بعته هو جثة هامدة لاشعور فيها .. وصاحبت رجلاً غنياً
غنى طائلاً ، أغدق عليّ المال إغداقاً ، دون أن أحس ذرة من السعادة لهذا
الترف . وكنت أعيش بالتني ، لعل أراك يوماً .. وأخيراً جاءت الساعة المرتقبة !

ومع ذلك لم تسمع أنت دقتها ، ولم تفهم .. فرأيتني ، دون أن تعرفني ، في
« كاباريه » ، مع صاحبي ، ولقيف من الأصدقاء ، رجالا ونساء .. قهقت على
النظر إلى .. فكادت الكأس تقع من يدي لشدة اضطرابي ، وأنا أرى هيامك
العارض المؤقت ، الذي شعاره : « ولك الساعة التي أنت فيها .. فأشرت إلى :
« إن لي كلاماً معك » .. وكنت أعرف ما هو كلامك .. وكنت أموت شوقاً
إلى سماع هذا الكلام . وخرجت أنت .. فأسرعت أنا واعتذرت لصاحبي
بالغياب دقيقتين .. وتبعتك .. أأست كلبتك ؟ .. فبألتني موعداً . فوجدت
مني الطاعة العمياء .. أأست جاريتك ؟ .. فجازفت وقلت : « أخرج الآن ؟ » ،
فأجبتك : « هيا بنا ! » .. وخرجت معك ، بغير معطى ، عالمة أن هذا الخروج
معناه انقطاع كل صلة بيني وبين صاحبي : معناه الفقر والحرمان ، والتسكع
والجوع .. ولكن معناه أيضاً : أنه أكرمه لك .. ساعة أخرى ! ..

وعدت إلى البيت ، بيتك ، بيتنا ، الذي أعرفه .. وكان لا يزال في إناء
الزهور ذلك الورد الأبيض الذي بعثت به إليك في الصباح ، يوم عيد ميلادك :
« من امرأة مجهولة ! » . فأخذتني بين ذراعيك . وفي حميا الهوى لم تعرفني ، ولم
تذكرني ، أنا التي أحبتك طفلة ، وأحبتك شابة ، ووهبتك ما ووهبتك .. وكان
كل ما مر بي في تلك الليلة ، مألوفاً لدي ، وكان مع ذلك جديداً علي .. حتى
إذا كان الصباح ، وتناولنا الفطور ، وقت إلى المرأة أصلح من نفسي ،
رأيتك فيها تفتح حقيبة يدي ، وتضع فيها ورقتين من البنكنوت ! .. أوأه
من شقوتي وذلتني ! .. لقد حكمت عليّ بأني امرأة بغى ، تصطاد من الملاحى ،
ويدفع لها عند الصباح أجرها ! .. كدت أموت ، وكدت أجن .. وكدت
أصرخ فيك ، وأطرح عليك كل الذل والعذاب والحزن الذي نسجت لى السنين
الطوال .. ولكنني تما لك حسرتى ودمعتي .. وسألتك أن أحمل واحدة من
تلك الوردات البيضاء ، معتذرة لك بقولي : « لعلك حريص عليها ، لأنها من

امرأة تحبك ! .. فقلت لى : « إنها هدية من امرأة لا أعرفها ! .. فظنرت
إليك فى صميمك قائلة : « قد تكون من امرأة أنت نسيتهأ ! »

ومع ذلك لم تعرف ، ولم تذكر ، ولم تشعر .. وأسرت فى الخروج من
جنتى ، من جحيمي .. ولما فتح لى الخادم العجوز وضعت فى يده ورقتى البنسكنوت
اللتين تفصلت بهما على .. فظنر إلى .. وقد أضاء وجهه نور خاطف .. نور
الذكرى .. فقد تذكرنى .. هو ! وعرفنى ، وهمهم يكاد ينطق باسمى ! . فأسرت
إلى السلم .. السلم الذى نمت عليه فى ليلة قارسة البرد .. فى انتظارك !

o o o

والآن : وداعاً .. إننى سألقى بولدنا ، إننى على فراش الحى التى أودت به ..
ولذلك كتبت إليك ، واثقة من أنها سوف تحملى إليها ، قبلما يخطر لك أن
تجى . فتحملى إليك .. لو أنك فعلت ! .

إن كل ما وقع قد وقع بإرادة الله ، التى لا مردّ لها ، ولا حيلة لنا فيها ،
ولا تفسير لدينا لمراميا . أما أنت ، أيها الحبيب ، فتق أننى حزينة من أن
خطابى سيلقاك فى عيد ميلادك ، بدل تلك الوردات البيضاء ، التى كانت عبق
روحي وأنفاسى ، تتضوع فى مسكنك مرة فى السنة .. فرجائى إليك — الرجاء
الأول والآخر — أن تضع دائماً ، فى هذا اليوم ، الذى يتذكر فيه الإنسان
نفسه ، لأنه عيد ميلاده ، ورداً أبيض : رمز حى وصفاء نفسى .. لأن نفسى
غير ناقة عليك ، فأنت فى هذا كله ، أيها الحبيب الذى لا يعرف الحب ، لا لوم
عليك ولا شريب ...



فهرس

صفحة

أنا الشرق	٧
فلسفة القوة	٩
عش في زمنك	١١
بين الحرية والغرض	١٤
مأداة فرنسا	١٦
الحياة العملية	١٩
ملا بور الصمت	٢١
الشرقي والغربي	٢٣
الصبر الجليل	٢٥
الانجليزية والفرنسية	٢٧
النسيان	٣٠
المهنة قبل الزواج	٣٣
المدينة المخارية	٣٤
الترفع بالاسلام	٣٦
ذكريات	٣٨
دروس للشرق	٤١
من أثر الحرب	٤٣
الحرب والأمومة	٤٥
سيف نابليون	٤٧
هؤلاء الانجليز	٤٩
سقوط باديس	٥١
إلى فتاة في الريف	٥٣
وهؤلاء الانجليز	٥٥
شرقية غريبة تتكلم	٥٨
عاد إلى الشرق	٦٠
ثم هؤلاء الانجليز	٦٢
شيخ يتكلم	٦٤

٢ - تابع الفهرس

صفحة

٦٦	يميش في الماضي
٦٨	الرجل الجديد
٧٠	عروس النيل
٧٢	الشرق في الغرب
٧٥	في وطنه الروحي
٧٧	التاريخ
٧٩	الشرق أولى
٨٠	عندما احتضر السلام
٨٢	تضامن الديمقراطية
٨٤	الوزير الجندي
٨٥	سماعة الشرق
٨٧	العشاء الأخير
٨٩	ثم هزلاء الانجليز
٩١	الشاعر
٩٣	نور الشرق
٩٥	ويلات
٩٧	وحدة العالم
٩٩	عادت من الغرب
١٠١	كتاب شرقية
١٠٢	موكب الذكرى
١٠٣	لوحات
١٠٥	الجو الداكن
١٠٦	شاب شرق
١٠٨	من هم الأحرار ؟
١١٠	الحب الطاهر
١١٢	كانت لهم بيوت
١١٤	السعادة الغاربة
١١٦	عود إلى التاريخ
١١٨	القدس الطيار

٣ - تابع الفهرس

صفحة

١٢٠	رسالة المرأة
١٢٢	روح الشرق
١٢٤	أسبوع الآلام
١٢٦	نبوءات
١٢٨	شريد
١٢٩	التاريخ يعيد نفسه
١٣١	المرأة في الشرق
١٣٤	لا تذكروا الربيع
١٣٥	وداع باريس
١٣٧	عرائس البادية
١٣٨	شرق وشرق
١٤٠	وجه الدنيا
١٤٢	عندما يلتقي الشرق بالغرب
١٤٤	روح حار
١٤٦	سبعود الربيع

الحياة قصة . . .

١٤٨	دروس الأدب الحساس
١٥٢	عندما أقبلت المرأة
١٥٥	لبلى
١٦١	رجال يقتاتون بالأشجان
١٦٥	وحش في باريس
١٧٠	شرقية وشرقية
١٧٧	في مقهى جامع باريس
١٨٣	مدينة النور : في الظلام
١٨٧	غارات جوية : على باريس
١٩٤	مجاور في باريس
١٩٨	رسالة رجل إلى امرأة
٢٠٦	رسالة امرأة إلى رجل

أحمد الصاوي محمد

عمر بن قتيبة

ثلاث مدارس عليا

للحب ..

والسياسة ..

والحكم ...

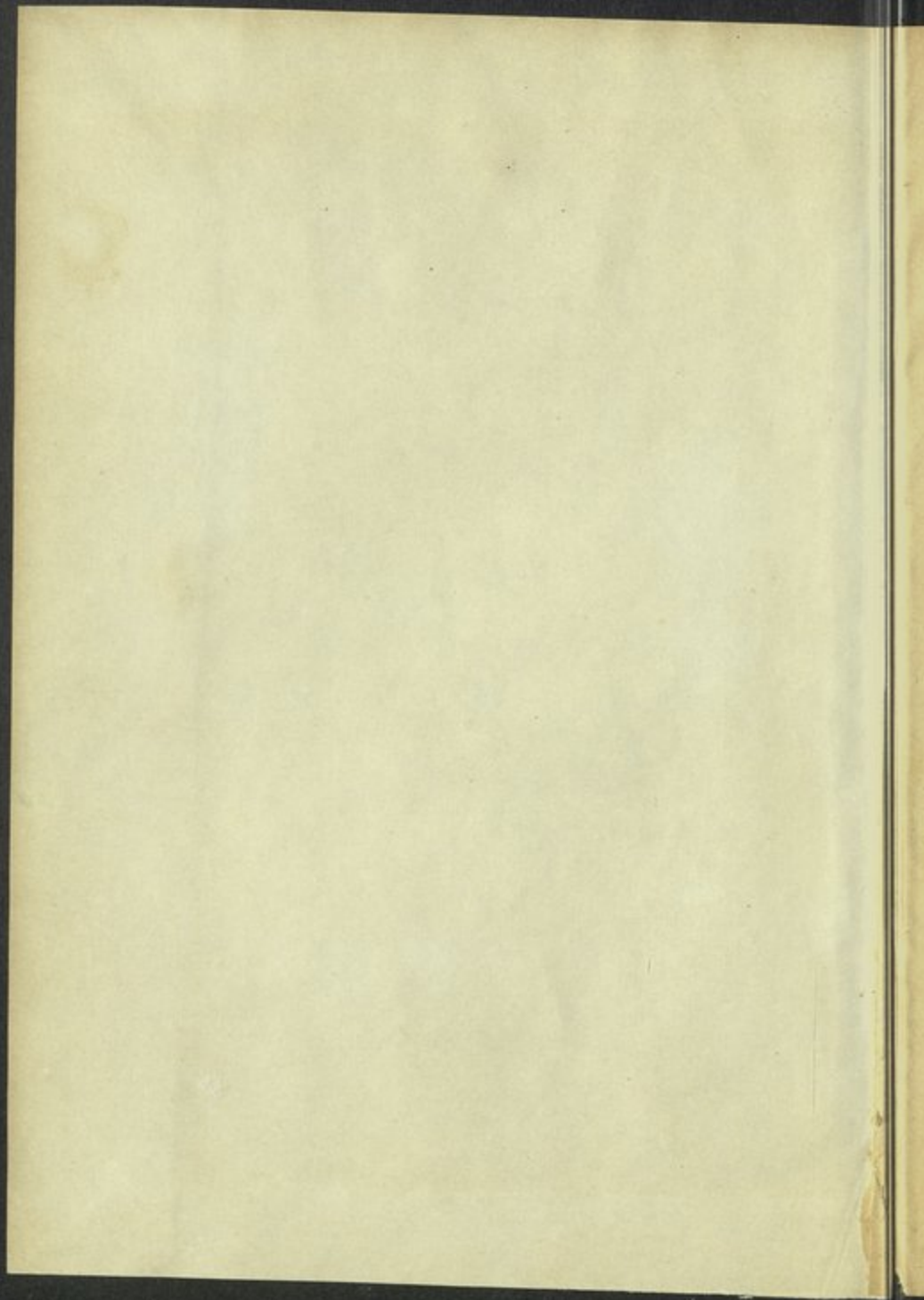
مطبوع طبعاً مدهشاً على ورق بوفان

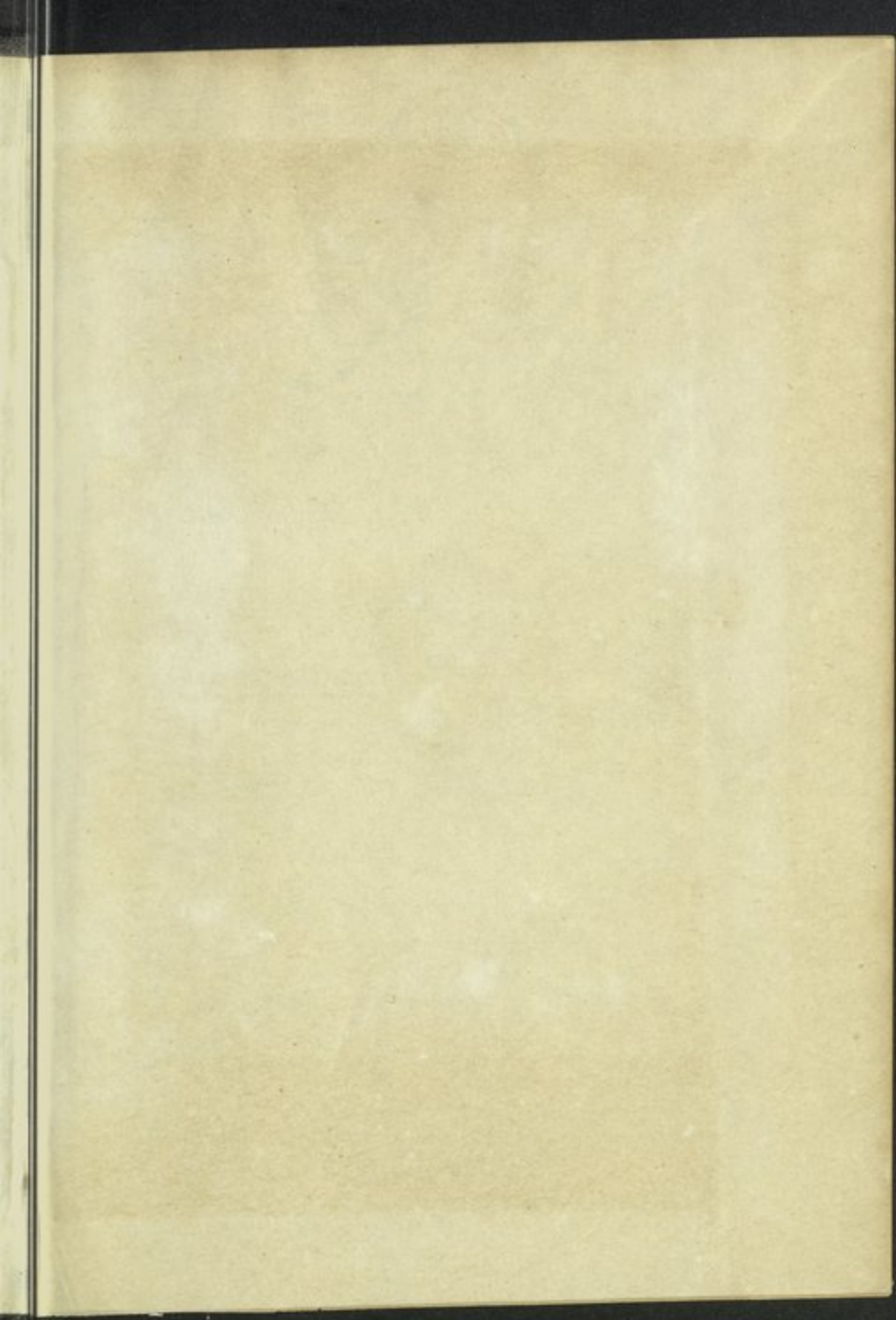
الناشر

مطبعة المعارف ومكتبتها ببصر

مكتبة المعارف ومكتبتها ببصر

هندوق بوشيه في طبرامشر - تلفون ٥٨١٤٩



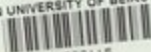


892.74:M95A:c.1

محمد، أحمد الصاوي

أنا الشرق

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01039115



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

